# معارك صغيرة

نزيه بحراوي

رواية

دار الساقي

# معارك صغيرة

نزيه بحراوي

رواية

دار الساقي

# معارك صغيرة

نزيه بحراوي

# معارك صغيرة

دار الساقي

آفاق AFAC

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخصٍ. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٩

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٩

ISBN-978-614-03-0194-8

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين
دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

**e-mail: info@daralsaqi.com**
والصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 5290–13، لبنان
فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثالثة، بإشراف الروائي جبور الدويهي.
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

**www.daralsaqi.com**
تابعونا على

**@DarAlSaqi**

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى أطفال التسعينيات...

# 1

## المطار

ليست هناك مصادفة. هذا ما قلته لنفسي وأنا ألج قاعة ركوب الطائرة في ذلك اليوم. لم أنم تقريباً، كان موعد الإقلاع في أول ساعة من الصباح، لذلك اضطررت إلى أخذ آخر قطار في الثانية بعد منتصف الليل. شربت القهوة الأولى في الثالثة صباحاً. تلك الساعة الغريبة التي تقع فيها الأحداث بلا تفسير.

حزمت حقائبي في اللحظة الأخيرة بعد يوم مكتظ بالمشاغل. ساعتان لا تكادان تكفيان للتفكير وحشو الملابس والأغراض الضرورية. عندما خرجت من البيت كان الليل عميقاً، ولما وصلت محطة القطار، وجدتها تغص بالحركة في قلب المدينة الخاوية، كمدينة في قلب المدينة. أخذت تذكرة إلى مطار الدار البيضاء. في الطريق، كان القطار مهجوراً، وطوال الرحلة خامرني شعور بأنني نسيت شيئاً ما، ربما يكون ذا أهمية قصوى، أعرف أنني سأتذكره عندما يفوت الأوان. ستلمع صورته في ذهني في اللحظة التي تترك فيها عجلات الطائرة الأرض.

كان موعد تسجيل الحقائب لا يزال بعيداً، فجررتها وجلست في الكافتيريا. طلبت أول قهوة وجلست أفكر فيما سأفعله خلال الساعات المقبلة. لا أريد أن أنام وأخاطر بتفويت الطائرة، ذلك كل ما يجب اجتنابه.

نظرت أمامي، إلى صفوف المقاعد حيث تتكوم أجساد المسافرين وتتراخى في وضعيات لا يجرّبها أحد في وضح النهار، بعضهم يغط في كوما عميقة. كان المطار في تلك الأثناء يشبه عالماً رُشَّ بمبيد حشرات فتّاك. بدأ التعب يتسلل إليّ أيضاً، فقررت أن أقاوم. نهضت، غسلت وجهي بالماء البارد، تمشيت. انجذبت إلى زحام صغير، وأخذت أبحث في الشاشات عن وجهتي. ارتطمت بأحدهم واستدرت للاعتذار، وعندئذ اكتشفت أنه وليد.

عثرت عليه من بين مئات الوجوه. عرفته في الحال، فغمرتني موجة فرح عملاقة. تعرف عليّ أيضاً، لكنه لم يقاسمني دهشتي وفرحي. ابتسم بأدب كأنني شخص عادي، جار أو زميل يلتقيه في السلالم. صافحني بحد أدنى من الحرارة، بينما دهمتني الرغبة في عناقه كصديق قديم. لم أفعل، لأن نظرته كانت تقول: لا تلمسني، أنت مليء بالجراثيم.

لم أنزعج. كان الحدث خارقاً بما يكفي لأبقى سعيداً. تفهمت أنني مجرد وجه يلمع من الماضي البعيد. أما بالنسبة إلي، فكانت هذه المصادفة تتويجاً لعمل ذهني متواصل. ظل بالي مشغولاً به في الشهور الأخيرة. فكرت فيه كل يوم تقريباً منذ صادفت صفحته في "فايسبوك". سألته: "فين مسافر؟".

– كندا طبعاً...

قالها بنوع من البداهة، كأنني أطرح سؤالاً سخيفاً من المفروض أنني أعرف إجابته، أو كأنه شخص كندي، لا يُسأل كل مرة إلى أي وطن سيعود. لم يكن لديه أي سؤال يطرحه عليّ. فحييته مبتعداً. دام اللقاء دقائق قليلة. كان كل منا مشغولاً بالوصول إلى الباب المناسب. فابتعد كل منا عن الآخر. مشيت بسلاسة وأنا أعرف أنه وراء ظهري.

أدهشني الأمر فعلاً. كنت بحاجة مستمرة إلى القصص، فكتبت واحدة عنه. يوم استظهار سورة الواقعة. منذ تلك اللحظة والذكريات تهاجمني. أدوّنها حالماً بمشروع فيلم أو رواية عن التسعينيات. هكذا بدأت الكتابة عنه، عني وعنه بالأحرى، عن طفولتنا.

لقد تغير كثيراً: تناقص شعره وازداد وزنه. كان يجب أن أنظر عميقاً في عينيه حتى أعثر على الطفل الذي كان صديقي في أولى سنوات العمر. لم أرسل إليه إضافة لما عثرت عليه في "فايسبوك"، لأنني لم أكن أعرف ماذا كنا بالضبط بعد كل تلك السنين: أصدقاء أم أعداء.

عبرت حواجز الجمارك، نزعت ملابسي عندما طُلب مني، فتحت حقيبتي. ولما تخلصت من كل أغراضي، لم يبقَ أمامي سوى التجوّل. كنت أريد أن أسأله: ماذا فعلت خلال كل تلك السنوات؟ هل صحيح ما سمعته عنك؟ هل فعلاً أصبحت "جيغولو" بعد عام من رياضة كمال الأجسام و"تربية الشعر"،

وصرت تقدم خدماتك إلى العجائز الأوروبيات؟ هل تزوجتك إحداهن وأخذتك إلى بلادها؟

عبرت إلى الداخل...

جلست في كافتيريا أخرى. أخذت قهوة جديدة. لم يعد الصباح بعيداً. بدأ عمال النظافة يظهرون.

وبعد حين سمعت صوته: "زيكو ما تبدلتيش...".

التفت فرأيته قادماً بعد أن تخلص من كل حقائبه.

– سمح ليا، كان بالي مشغول.

دعوته للجلوس، كان يجب أن يذهب لإحضار قهوته بنفسه. عندما عاد سألني أخيراً: "فين مسافر؟".

– بيروت...

قرأت في وجهه المفاجأة، كأنها وجهة في غاية الغرابة.

– شنو عندك فبيروت؟

– مهرجان...

لمعت عيناه، وسكت كأنه يفكر.

– مرت السنوات وأصبحت تصنع الأفلام...

– ما زال، فقط أكتبها أو أكتب عنها، وأنت؟

أخبرني أنه أصبح مبرمجاً، فسألته: "كيف الحياة في كندا؟".

ارتشف جرعة من قهوته...

– فكندا الفلوس كثيرة والشمس قليلة. فالمغرب الفلوس قليلة والشمس كثيرة...

كتمت رغبتي في القول إن حياة بلا شمس لا تستحق أن تعاش. فكرت أنها جملة سخيفة جداً. وقبل أن يهاجمنا الملل لم أتمالك نفسي عن السؤال: "هل تذكر الكاسكيطة؟".

– أي كاسكيطة؟

– أيام عطلة صدّام المجيدة...

رجع إلى الوراء، كأنني أعدته إلى مرحلة لا يحتمل دماغه التنقيب عن ذكرياتها.

– هذا بعيد جداً، كل ما أذكره هو سيف صدّام الذي لا يُقهر...

أبهجني أن يتذكر ذلك، وضحكنا حتى خطر لي أننا شخص واحد.

نظر إلى ساعته. وقف ولبس معطفه قائلاً: "حان موعد طائرتي".

وقفت أيضاً. فتح لي ذراعيه. تعانقنا بحرارة. ثم تحرر مني، وقبل أن يبتعد قال جملة أخيرة: "في النهاية كسروه مثل سيفك...".

لم أحتج إلى سؤاله عمّا يتحدث، كأنها عبارة في الهواء. وبعد هذا العناق الأخير، ذهب كل في اتجاه.

غمرتني فرحة لم أشعر بها منذ زمن بعيد، زمن الطفولة.

لقد تغير كلياً. ليس من ناحية الشكل فقط؛ أصبح إنساناً عادياً، بحياة رتيبة ونكات جاهزة. وليد الذي أذكره كان طفلاً خارقاً، لقد تلاشى تماماً. أين يتلاشى كل أولئك الأطفال؟

واصلت مقاومة النوم بينما بدأ الفجر بالطلوع. أخذ الضوء الأزرق يخترق الواجهات الزجاجية التي بدأت تفصح عن السماء بعد أن كانت مرايا سوداء تنعكس فيها صورة المسافرين والمطار النائم. بدأت أشعر بدوخة انعدام النوم والإفراط في القهوة. رأيت ألواناً ساحرة ومتوهجة، وأسلمت نفسي لهذيان مفتوح. أعرف أن النوم سيهجرني، وأنني سأنام في الساعات المقبلة دون أن أنام...

خطر لي فجأة أنني لم ألتقه قط، وأن كل ذلك محض تهيؤات، لكن الفرحة كانت لا تزال مستقرة داخلي، وهذا هو الأهم.

مشيت وفي ذهني أنني ربحت من هذا اللقاء الخاطف أكثر مما ربح هو. جلست في قاعة انتظار الركوب وبدأت الصور تتزاحم في رأسي. فكرت أنها قصة جيدة يمكن استرجاعها خلال الساعات المقبلة. وقبل أن أغط في نوم عميق انبعث صوت أنثوي من أبواق المطار: "نداء إلى المسافرين لركوب الطائرة...".

# 2

## الواقعة

كلما فكرت في وليد، تعود إلي تفاصيل ذلك اليوم الصعب. كان الصباح مكرّساً لاستظهار سورة الواقعة. الشمس تلطخ جدران القسم. نحن سجناء في كراسينا، ننتظر أن تعلن المعلمة داميّة أول من سيقوم إلى السبورة.

– حافظين؟

أنا الآن في السابعة من العمر. أعرف أنها تمعن في تأخير انطلاق الفرجة. نتململ جميعاً متظاهرين بالثقة في النفس، لأننا نعرف أنها تبحث عن طريدة سهلة تفتتح بها النهار.

تبتسم داميّة بمكر: "كلكم حافظين؟ فرحتوني...".

يبتسم كثيرون ببلاهة متمنين أن يقنعها ذلك بتأجيل متعتها إلى الحصة المقبلة.

– يالله، شي متطوع...

لا أحد يرفع إصبعه. أجدها فرصة سانحة لأسبق الجميع مبعداً عني الشكوك. أرفع إصبعي مقامراً على المستحيل، كأن تؤجلني إلى منتصف الحصة. ينظر إليّ الكل بحيرة، قبل أن يضطر المجتهدون إلى مجاراتي، ويتحرك بعدهم بقية التلاميذ. يرفعون أصابعهم فأختفي داخلهم.

– كاميليا؟

لم تكن كاميليا تلميذة عادية. كانت القلب النابض لكل المدرسة. تحصل على النقطة الأولى في كل دورة وتعاملنا بلطف مخدِّر. يحبها الجميع، من الأولاد إلى المعلمات، مروراً بالمديرة وموظفي الإدارة، وحتى الآباء وعاملات النظافة.

مثل ملكة النحل، يدور الكل من حولها. لكن المعادلة تنقلب عند وصولها بيتها الذي يوجد في الإقامة حيث أسكن، أنا، ووليد. لم تكن تخرج للعب مع

البنات الأخريات. أبوها دركي ممتاز ولها أخوان كبيران. انحرف الأول فطردوه من المدرسة، وبدأ الثاني يمشي على خطاه فأدخله الأب إلى التكوين المهني ليتعلم الحلاقة. كنا نلقبه بالروبيو، يحتفظ بموس الحلاقة في جيبه، مهدداً خصومه باستعداده الدائم لإنجاز التمارين. كان ولداً شريراً بكل المقاييس، لم أكن أحتمل حتى فكرة المرور قريباً منه.

نطقت كاميليا بصوت رقيق: "نعم معلمتي!".

إنها الانطلاقة الرسمية لليوم. قلت مع نفسي هذه بداية تقليدية. تلميذة مجتهدة يليها تلامذة متوسطون، حتى يأتي دور الكسالى.

تطلب المعلمة إغلاق الدفاتر والكتب التي نتشبث بها للحفظ حتى آخر ثانية. تنهض كاميليا تاركة طاولتها فارغة إلا من مقلمة ملونة. تقف أمام السبورة. يعم الصمت. أنظر إليها بكل جوارحي. في أوقات أخرى، كنت قادراً على إغلاق عينيّ والتركيز بقوة، حتى يصير بإمكاني تذكر الملابس التي ترتديها طوال السنة.

تبدأ بالاستظهار:

> أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة. خافضة رافعة. إذا رُجَّت الأرض رجّاً. وبُسَّتِ الجبال بَسّاً. فكانت هباء مُنبَثّاً. وكنتم أزواجاً ثلاثة. فأصحاب المَيْمَنَةِ ما أصحاب المَيْمَنَةَ. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون. أولئك المقربون. في جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين...

كانت تسترسل بطلاقة وأنا متعلق بشفتيها، أستظهر معها، عندما توقفت فجأة. لم نعرف أول الأمر ما يحدث. هل تأخذ استراحة قصيرة أو أن شيئاً ما أوقفها، حكة أو غصة. لكننا رأيناها لأول مرة حائرة، كأن حبلاً تمسكه انقطع فجأة. دعتها المعلمة للتأني والإعادة من البداية. أخذت كاميليا نفساً عميقاً وبدأت من جديد:

> أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. إذا وقعت الواقعة...

استظهرت بالسلاسة نفسها وبالثقة في النفس عينها، ففكرنا أن الذاكرة عادت إليها، لكنها ما إن وصلت كلمة "المشأمة"، حتى اختلطت عليها الأمور.

– كاميليا، مالك؟

اللحظة صادمة لنا جميعاً. ننتظر أن تقول كلاماً للدفاع عن نفسها، لكنها تكتفي بإحناء رأسها خجلاً.

– ما حفظتيش؟

تحني كاميليا رأسها أكثر دون أن تقدر على الإجابة. تحمرّ بشرتها احمراراً شديداً، وتتجمد وهي تنظر إلى قدميها.

– علاش ما حفظتيش؟

لم يكن ذلك سؤال المعلمة وحدها، بل سؤالنا جميعاً. علاش كاميليا ما حفظاتش؟ لم تُجب أياً منا، كانت تبدو عاجزة حتى عن التنفس.

بدأنا نتساءل ماذا ستفعل المعلمة داميّة. هل ستعفو عنها لأن الجميع يحبها؟ هل ستعاقبها لإعطاء العبرة بما أنها لم تحاول اختلاق عذر يستدر العطف أو التفهم؟

– حتى أنتي بغيتي تولي كسولة؟

شعرنا بالرعب من هذه الجملة، لأنها كانت تؤذن بأن داميّة قررت ألا تتسامح معها.

– إيوا ألالة الكسولة، سيري وقفي لهيه...

ذهبت كاميليا للوقوف في ركن من الحجرة الدراسية بانتظار عقوبتها عند نهاية الحصة. قاومت دموعها، حتى بدت كأنها اكتسبت شجاعة ترافق خطواتها الأولى في عالم الأشدّاء.

وشوشنا فيما بيننا، فأخذت داميّة تضرب بعصاها على الطاولة. من شدة الذهول، نسينا أننا ننتظر دورنا أيضاً للصعود إلى المقصلة.

فقدت المعلمة كل رغبة في اللعب بأعصابنا، أخذت تنادي أسماءنا باعتباطية دون أدنى انشغال بالتصاعد الدرامي الذي كانت تحرص عليه عادة. كان لإخفاق كاميليا وقع رهيب على معنويات الجميع، فأخذ كل من وقف يتعثر ويتلعثم. لم تعط داميّة أي فرصة استدراكية، بل كانت تصرخ بنبرة شخص تعرض للخيانة مرات عدة.

تساقط التلاميذ، واحداً بعد الآخر، كقطع دومينو. وأخذ ركن الحجرة يزدحم. تحوّل الجو إلى شيء مخدّر، واختلط رعب القيامة برعب الاستظهار، فلم يعد

أحد منا يعرف ماذا سيقع وإلى أين سيؤول كل هذا. فرغ أكثر من نصف الطاولات. سأسمع اسمي بين لحظة وأخرى وقد عزمت على الاستسلام بلا مقاومة، عندئذ نطقت المعلمة اسم وليد.

نهض وتقدم بين الطاولات، بخطوات خجولة، قبل أن يصل السبورة. نظر إلى التلاميذ المحشورين في الركن وبينهم ملكة النحل.

شرع بالاستظهار وهو ينظر إلى نقطة ما في الهواء. كان ينطق الكلمات بإيقاع متأنٍّ كمن يريد تأخير لحظة سقوطه. انتظر الجميع أن يتوقف لكنه لم يتوقف. أنهى استظهار السورة كاملة وسط دهشة الجميع. وفوجئت المعلمة نفسها، قبل أن تتدارك الأمر بدعوتنا للتصفيق له وهو يعود إلى مكانه.

صفق الجميع في لحظة غريبة امتزجت فيها الغيرة بالرعب مما هو قادم. لم يبتسم وليد تهيّباً من صرخات الألم التي ستملأ القسم بعد لحظات. تساءلت المعلمة بنبرة مسرحية ركيكة بعد أن وجدت فيه ضالتها: "علاش هو حافظ؟ وانتوما ما حافظينش؟".

ولا أدري هل تعرف أننا صديقان، لأنها نادتني بعده مباشرة. نهضت إلى السبورة وأنا أقول مع نفسي: "في أسوأ الحالات، سأنتظر عقوبتي إلى جانب كاميليا".

عندما وصلت السبورة، شعرت أنني أقف في مكان مرتفع جداً وأمامي أمواج تتلاطم بعنف. وفي عمق البحر، رأيت مركباً تلعب به العاصفة. للحظة خاطفة، أقنعت نفسي أنني قادر على تحقيق إنجاز وليد. يكفي أن أستظهر بتأنٍّ وأن أنظر أمامي إلى نقطة ما في الهواء.

بدأت الاستظهار، وبعد حين، شعرت بالغرابة وأنا أنظر إلى الحجرة الدراسية فارغة. مثلما شعرت بها وأنا ألقي نظرة خاطفة على التلاميذ المحشورين، واقفين كسجناء في فسحة ضيقة، وفي عيونهم جوع لشيء غامض. عندما عدت إلى التركيز على ما أقوله، كنت عالقاً في: "أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة"، ولم أنجح في الذهاب أبعد. تيقنت أن تلاميذ الركن هم أصحاب المشأمة وأني على أهبّة الانضمام إليهم.

نادت المعلمة على الاسم الموالي. لم تكلف نفسها عناء التأسف على إخفاقي ودعوتي للوقوف مع الآخرين. فهمت ذلك من تلقاء نفسي. عثرت على موقع غير بعيد عن كاميليا، ثم عثرت على حذائها وسط غابة الأحذية. راقبت بدقة تفاصيل تحركاته الصغيرة بينما يتلعثم آخر التلاميذ مواصلين مسلسل الهزيمة الجماعية.

في النهاية، بقي تلميذ واحد هو وليد. في مواجهة قسم برمّته، يُعِدُّ نفسه للذروة الدرامية الكبرى. كان الشر يلوح من نظرات داميّة وهي تدعو كاميليا إلى التقدم نحوها. خرجت من الزحام وهي خجلة جداً، وقفت وسط القسم وهي ترتجف. نادت المعلمة على التلميذين الكسلانين اللذين كانا يتعرضان للعقوبة كل يوم، وأمرتهما بإمساكها. كان مجرد لمسها إهانة.

دعتها المعلمة لخلع حذائها، قلت لنفسي لا بد أن فكرة الوقوف حافية في القسم لم تخطر أبداً على بالها.

جر الكَسِلان طاولتين، وشكّلا طاولة واحدة جاهزة لتعذيب الزملاء. تقدمت كاميليا حافية ومذلولة. ساعداها على الصعود والتمدد. أمسكا رجليها في اتجاه المعلمة، وعلى وجههما ابتسامة من يمسك ورقة رابحة.

رفعت داميّة العصا في الهواء وحبس معظمنا أنفاسه. وقبل أن تنزل ونسمع الصرخة الأولى، رفع وليد يده: "أستاذة!".

نظرت إليه المعلمة وهو يقف وسط الطاولات الفارغة. كان في غاية الجدية وهو يقول: "خذيني فموضعها".

فوجئ الجميع وأرخى الكَسِلان قبضتهما في انتظار رد المعلمة التي رأت في طلبه قلة أدب من نوع جديد. لكنها ابتسمت في النهاية ووافقت بروح رياضية.

– مرحباً...

أطلق الكَسِلان سراح كاميليا بينما يتقدم وليد بعزيمة. نزع حذاءه وصعد إلى الطاولة متمدداً فوقها. وقبل أن يمسكه الكَسِلان، خطرت للمعلمة فكرة جهنمية: "زكريا، أجي شدّو معاهم".

أتأكد الآن أنها تعرف أننا صديقان. كعادتها، تحب ضرب كل العصافير بحجر واحد. لم يكن هناك أي مجال للرفض، إنه جزء من قوانين اللعبة. خرجت من

بين المحشورين، وأمسكته معهما وأنا أكذب على نفسي، متخيلاً أن ذلك لمصلحته. توهمت أننا في مشهد من أفلام الكاوبوي، أمسكه ليقتلع الطبيب رصاصة من لحمه. لم تهتز معنويات وليد وهو يراني أقوم على هذه المهمة الكريهة، فهي لعبة المعلمة المفضلة.

رفعت داميّة العصا ونزلت بضربة مدوية.

لم يصرخ وليد. شعرت باهتزاز داخلي وأنا أمسكه. لم يكد يسحب أنفاسه حتى سارعته بضربة ثانية وثالثة. كانتا أقوى من الأولى، فبدأ جسده ينفلت منه. أمرتني داميّة بإمساكه جيداً.

وبدأ الجميع يعدون في سرّهم: أربعة، خمسة، ستة، سبعة...

ثم صرخ وليد أخيراً، ورأيت الدموع في عيون كاميليا. كان سينال عشر ضربات لكن المعلمة اكتفت، والتفتت إلى بقية المحشورين، وقد فسدت متعتها كلياً بعد أن عاقبت التلميذ الوحيد الذي حفظ ما يجب حفظه.

– عندكم الزهر، وليد تحمّل فموضعكم.

ألغت العقوبة ذلك الصباح. عادت كاميليا إلى مكانها. وحصل كل واحد على أربع ضربات على اليد، كانت قوية وموجعة لكننا تحملناها لأن سلوك وليد البطولي جعلنا ندخل في سياق آخر. رفع كل واحد يده بسرعة آلية، مؤجلاً الإحساس بالألم إلى حين رجوعه إلى كرسيه. أخذنا نتعاقب واحداً بعد الآخر وداميّة تضرب ببراعة لاعبة تنس.

جلس الجميع في أمكنتهم، مُكمِّدي الأيدي تحت الإبطين أو بين الفخذين، ثم استمر الألم لبعض الوقت. قالت المعلمة كلاماً لم يسمعه أحد، كنا غائبين عن الوعي، منفلتين تماماً من الواقع الملموس. رافقتنا هذه الحالة بعد نهاية الحصة، فلم ننتبه تقريباً إلى ما حدث في بقية اليوم. كان الجميع ممتنين في سرهم لوليد، رغم أنه فعل ذلك من أجل كاميليا. في ذلك اليوم، حصل على لقبه "الكابتن وليد"، مثل حارس المرمى في الرسوم المتحركة.

دق جرس السادسة. نزلنا نجري في السلالم متجهين إلى الحافلات المدرسية لتأخذنا إلى منازلنا، ودام ذلك ساعة إضافية. كانت إقامتنا هي آخر مكان تصل إليه الحافلة قبل أن ترجع إلى المدرسة. نزل الجميع بينما كان

الليل ينتشر تدريجياً. وفي النهاية، لم يبقَ سوى وليد وأنا في مؤخرة الحافلة، نتململ كجنود عائدين من معركة طاحنة. كاميليا في المقدمة جنب السائق الشاب عزيز. كنا غارقين في عتمة تخترقها من حين إلى آخر أضواء آتية من الخارج. التفتت كاميليا. نظرت إلينا زمناً بدا لي طويلاً، وشعرت مع كل التعب والصمت أن قصة حب ولدت بيننا، نحن الثلاثة، في تلك اللحظة بالذات.

# 3

## عين الشيطان

لم أجد أحداً في البيت. تذكرت أن أبي سافر إلى العراق حيث سيقضي أسبوعين. أمسكت الهاتف، اتصلت بخالتي ماريا، وجدت أمي عندها، أخبرتني أنه ترك لي عشرة دراهم. إنها ثروة صغيرة تسمح بكراء شريط فيديو لمشاهدته في منزل دونكيشو. عندما عادت إلى المنزل، سألتني كيف قضيت اليوم، فوصفت لها المذبحة. احمر وجهها وهي تقول: "هادشي ماشي معقول". كانت أمي أستاذة أيضاً، تدرّس الأولاد الكبار الذين يذهبون إلى المدرسة بالسلاسل والسكاكين على أهبة القتال فيما بينهم.

كل جمعة، يبث التلفزيون فيلماً مصرياً بالأبيض والأسود، مباشرة بعد "ركن المفتي" حيث يجلس فقيه بلحية بيضاء، للإجابة عن أسئلة الناس. في تلك الحلقة، ظل السؤال نفسه يعود في كل مرة، عن زواج الإخوة بالرضاعة، حتى اقتنعت أنها أكبر مشكلة في البلد. لماذا تُرضع الأمهات أبناء غيرهن فيتحولون إلى إخوة؟ ولماذا يُغرمون ببعضهم بعضاً بعد مرور كل تلك السنين؟ أستبعد أن تكون كاميليا أختي بالرضاعة رغم أن أمها صديقة خالتي ماريا لأنهما تسكنان في الحومة نفسها. أردت أن أسأل أمي لأتيقن. لكنني خفت أن ينكشف أمري. يجب أن يبقى الحب سرياً.

يبتدئ الفيلم أخيراً، أغطس في عالمه السحري. البطل فقير يحب شابة جميلة وغنية. يقارع المصاعب لأجلها. عندما تغرم به أخيراً، تتدخل عائلتها وتتعقد الأمور فلا يبقى أمامهما سوى الهروب. يتوقف الفيلم لبث نشرة الأخبار الأخيرة، نشرة مملة وطويلة، أغيب خلالها في تخيلات عن الحب، بينما تقول أمي إنه وقت النوم. إنها في الغرفة المجاورة، تكتب بحثاً لن تنتهي منه أبداً، على أوراق ملونة تجمعها في كيس بلاستيكي تخبئه تحت السرير.

عندما يعود الفيلم أخيراً، أكون قد نسيت ما حدث كأنني رأيته في يوم آخر. أغوص في عالمه مسترجعاً خيط القصة، لكن الأحداث تتسارع وينتهي في غضون ربع ساعة. تظهر كلمة "نهاية" فأشعر بمزيج من الخواء والامتلاء، بينما صوت أمي يقول من جديد: "يالله، النعاس..."

أستيقظ في اليوم الموالي ضاجّاً بالحيوية. السماء صافية وكل شيء يحرّض على المغامرة. أجري حول الحديقة الدائرية وسط ساحة الحومة. كلما جريت، يزداد فرحي لأن الهواء يلفح وجهي بطريقة منعشة.

يجتمع أبناء الحومة الأولى: سبعة أولاد في العمر نفسه باستثناء دونكيشو الذي يكبرنا بثلاث سنوات. نسميه كذلك لأنه نحيف وطويل، ويلتصق كالمغناطيس بأخيه كاليميرو الذي هو أصغرنا. نحن نحب كاليميرو لأنه يضحك ويبكي بسهولة، ونطرد دونكيشو ليلعب مع أقرانه، لكنه يعود عندما يطردونه أيضاً، فنضطر إلى قبوله بسبب كاليميرو الذي تقول له أمه: إما أن تلعبا معاً أو لا تلعبا على الإطلاق. لديهم جميعاً سيوف رومية قصيرة يتعاركون بها طوال الوقت. أتحايل كي أستلفها من أحدهم في كل مرة. لذلك، طلبت من أبي أن يحضر لي سيفاً من العراق.

يرى دونكيشو نفسه زعيمنا. نجح في إقناعنا عندما وزّع علينا رتباً عسكرية بعد ترتيبنا من الأطول إلى الأقصر. أصبحتُ كولونيلاً وأصبح هو جنرالاً بالطبع. حصل وليد مع ولد آخر على لقب كابتن، أما البقية، فأصبحوا كابورالات. لم نكن نعرف أياً من هذه الرتب. تعلمناها من دونكيشو الذي أمرنا باحترامها من الآن فصاعداً. خطط أن يدوم هذا النظام لأسابيع، ثم وعدنا بترقيتنا بناء على كفاءتنا وتطوّر قدراتنا الحربية.

كانت فكرة أن أصبح جنرالاً مغرية جداً، فتمسكت باللعبة، واستمات الكابورالات على أمل الحصول على رتبة كابتن. ولمع في رأسي سؤال: إذا صرت جنرالاً، فماذا سيصبح دونكيشو، فسألته: "شنو كاين فوق الجنرال؟".

– الملك طبعاً، هو القائد الأعلى لأركان الحرب.

كانت الجملة طويلة ومرعبة في الآن نفسه. لم أجرؤ على تخيّل دونكيشو ملكاً. وقفز كاليميرو بسؤال آخر: "وشنو كاين فوق الملك؟".

فكرنا أنه سؤال سخيف، لأن الجميع يعرفون أنه لا توجد رتبة أعلى من الملك. لكن دونكيشو أجابه بثقة: "كاين سيدي ربي..".

ونظرنا جميعاً إلى السماء حتى نسينا أننا فوق الأرض.

لم ننسَ أن الشيطان موجود أيضاً، تحت أقدامنا، مختبئاً عميقاً في طبقات الأرض، قادراً أن يرسل إلينا الزلازل. حتى أن كاليميرو رآه ذات يوم وجاء يصرخ: "الشيطان، الشيطان". كنا نعرف أن رؤية الله مستحيلة. أما الشيطان، فلم نكن ندري كيف تجري معه الأمور.

نظرنا إلى كاليميرو بدهشة وتبعناه إلى القادوس الموجود في ساحة الحومة. كان فيه أربعة ثقوب، نظرنا منها تباعاً. في البداية، لم نرَ سوى الظلام، ظللنا نجر بعضنا بعضاً عاجزين عن انتظار أدوارنا، ثم فجأة صرخ أحدنا: "الشيطان، والله حتى شفتو". أسرعت بوضع عيني في الثقب، ورأيت عيناً تنظر إلي في قلب الظلام. خفق قلبي وعرفت أنه الشيطان بالفعل، فصرخت أيضاً، وتزاحم الآخرون متعطشين لرؤيته.

لم أصدق ما رأته عيناي. حين عدت للتأكد، رأيت قطعة صغيرة من السماء، وظلت عين الشيطان تظهر وتختفي. صرخ الأولاد أنه شيطانان، بل ثلاثة، وقال دونكيشو إنه شيطان بثلاث عيون. لكن وليد أوقفنا جميعاً عاثراً على تفسير للغز.

كانت العيون تختفي عندما ننظر من الثقوب الأربعة. يجب أن نترك ثقباً واحداً على الأقل حتى يدخل الضوء. وفهمنا الخدعة بالسرعة، لأنها لم تكن سوى عيوننا. نظرت من جديد وتأكدت أنها عيني ترمش منعكسة على صفحة الماء الموجود داخل القادوس.

انتظرت أن يفتحه عمال الصيانة ذات يوم وينزلوا داخله كبئر مكعب لأتأكد أنه لا يوجد أي شيطان. لا بد أنه يستقر في مكان أعمق...

كنا نحس بالخدعة فجأة عندما يسألنا أولاد الحومات الأخرى مشيرين إلى دونكيشو باستخفاف: "هذا هو الزعيم ديالكم؟"، فنتذكر أننا في الأصل بلا أي زعيم. كان للحومات الأخرى زعيم مثل الروبيو، أخ كاميليا. أما نحن، فلم يكن بيننا من له تلك القوة. وحده دونكيشو يخدعنا قبل أن نكتشف ألاعيبه.

– هل تعرف ما هو البورنو؟

قال ذلك عندما عرف أنني أملك عشرة دراهم، وأن الوقت قد جاء لاختيار فيلم من "الفيديو كلوب". البورنو، كلمة تشع سحراً وغموضاً. كان لدى عائلة دونكيشو جهاز فيديو. يوم السبت نذهب لاستئجار شريط بعدما نتشارك في ثمنه...

عندما شاهدت أول فيلم في منزله سألت أمي: "علاش ماعندناش فيديو؟"، فأجابتني بسرعة: "دونكيشو أغنياء، ألا ترى أن لديهم خمس غرف ونحن ثلاث". كان لدينا ثلاث غرف فعلاً، دون احتساب الصالون... فقلت لها: "وعمتي زكية؟"، فأجابت: "عمتك غنية أيضاً، لديهم بيت من طابقين وسطح لنشر الغسيل". عندئذ ذهبت لأسأل أبي، فقال لي مقلباً صفحات الجريدة: "من أين تريد أن نحضر لك فيديو؟ إنه موجود في أمريكا والبلدان المتقدمة. بمليونين أو مليون ونصف. هل تظنهم يعطوننا هذه الأجرة في الشهر؟".

أبي يروي الحكايات، لكن أمي تفعل الأشياء. أخذتني إلى السوق لأرى الأطفال يحملون الأكياس البلاستيكية المليئة بالخضراوات بدرهم ونصف، وقالت سأعطيك درهمين إذا حملته.

تشطرت حتى رفعت أجرتي إلى ثلاثة دراهم. صفقة رابحة في البداية، لكنها لم تتوقف عن شراء اللحوم والخضار والفواكه. أخذت أعد الكيلوغرامات في رأسي حتى اختلط عليّ الحساب. امتلأ الكيس عن آخره وأصبح ثقيلاً جداً، فتحولت قبضته إلى شفرة حادة تترك آثاراً حمراء على الأصابع. عدنا إلى المنزل مشياً على الأقدام، كانت تلك المسافة وحدها تعذيباً قائم الذات، حتى شعرت أن الألم لن يتوقف أبداً.

صرفت الدراهم الثلاثة بسرعة. وعندما جاء موعد التسوق من جديد، فكرت أنه مبلغ لا يستحق كل ذلك العناء، لذلك لم أعد أسألها عن الفيديو. وقررت أن أدبّر أموري، بالتوفير والاشتراك مع الأولاد الآخرين. كنا دائماً بحاجة إلى درهمين أو ثلاثة لإكمال الثمن، فنعثر على راشد نتحايل عليه، حتى يُخرج القطع النقدية من جيبه ويلقيها في الهواء فنتقافز عليها فرحين.

في كل مرة، كنا نكتري فيلماً، كان وليد يقول لي: لا تذهب معهم، إنهم قردة. لكنني أفشل في المقاومة وأذهب. أنظر إليهم يتقافزون وهم يلعبون بالكرة، أمعن فيهم يطلقون صيحات مجنونة. أقول لنفسي معه حق، إنهم قردة فعلاً. منذ ذلك الحين أصبح ذلك هو اسم عصابتنا. كان وليد طفلاً عادياً قبل أن يقطع طريقه أولاد البراريك.

عندما دخلنا "الفيديو كلوب"، نظرنا إلى مئات الأغلفة الشهية وتهجيّنا العناوين. تناقشنا طويلاً: أي فيلم سيكون أحسن، الكوميدي أم الأكشن؟ كان الخيار الأخير يعود إلي لأنني من يملك النقود هذه المرة. لكن التهامي صاحب المحل ظل يخبرنا أن ما اخترناه غير موجود. كل الأفلام الجيدة مكتراة سلفاً. فاحتفظت بفلوسي، وعدنا من حيث أتينا. قررت أن أحافظ عليها حتى عودة أبي، لكنني فشلت كالعادة وصرفتها.

ابتدأ أسبوع جديد. لم أكن أكره المدرسة، كانت شيئاً لا مفر منه، لئلا تصبح زبالاً كما يقولون. أنظر كل صباح من نافذة الحافلة المدرسية إلى الزبالين بزيهم الأخضر، يكنسون الشوارع، مقنعاً نفسي أن الأمر ليس بذلك السوء، أنظر إليهم يتضاءلون حتى يصبحوا بعيدين جداً.

الحافلة أجمل ما في المدرسة، يقودها سائق نلقبه بالشاب عزيز. لأنه يستمع لأغاني "الراي" طوال الوقت. كان نحيفاً ويدخن بشراهة، يرتدي نظارات شمسية ويمشط شعره إلى الوراء. يداعب عجلة القيادة بمهارة كأنه يقود بنا مركبة خارقة. نغني له ليزيد في السرعة:

زيد زيد يا شيفور... زيد شوية فالموطور...

عندما لا تكون عندي مشكلات، أنظر من نافذتها كأنني في السينما. فيلم بلا رأس وبلا ذيل، يبتدئ بالمقبرة المحاذية لإقامتنا وينتهي بمقبرة الشهداء قبل التوجه إلى مركز مدينة الرباط. عندما تكون معنوياتي منخفضة يذكرني ذلك بموت جدي وبيوم القيامة والعقاب الذي ينتظرنا جميعاً عندما نموت.

تدوم الرحلة خمساً وأربعين دقيقة، أربع مرات كل يوم، كل الشوارع تلتصق برأسي. فيصبح في وسعي أن أخلق حكايات للأشخاص الذين أراهم، ولا

تتوقف القصص عن التطور. كل مرة نمر جنب أحد الشوارع يشير ولد بإصبعه: هناك يوجد منزل الحاج طلال. كلنا نعرف الحاج طلال، خليجي يضاجع الأولاد والبنات مقابل دراجة نارية من نوع "سكوتر". يصور ذلك بالفيديو ليبيعه في السوق السوداء. كلما رأينا أحدهم راكباً "سكوتر"، نصرخ ضاحكين: لقد كوّكك الحاج طلال...

أتمنى يومياً أن تنقلب الحافلة في المنعرج الخطير، أترقب أن تفقد توازنها وتسقط في البحر. أحلم بذلك وأنا مقتنع أنني سأفلت من النافذة وأسبح بملابسي نحو السطح. أعرف أنني قادر على ذلك، لأنني تعلمت السباحة بتلك الطريقة. عندما ألقاني خالي في مسبح عميق، وبقي ينظر إلي من فوق أتركل في الماء حتى طفوت. سأسبح داخل الحافلة بين أجساد التلاميذ المهلوعين، سأمسك يد كاميليا ونخرج من النافذة. يجب أن آخذ نفساً عميقاً بمجرد أن تنحرف الحافلة وتطير في الهواء. سأحتفظ بما يكفي من الأكسجين لكلينا. رأيت في التلفزيون غواصين ينفخون في أفواه بعضهم بعضاً. سيغمى عليها فأسحبها إلى الشاطئ وأرجعها إلى الوعي بالنفخ في فمها.

عندما نصل أخيراً، أشعر بالخذلان لأن أمنيتي لم تتحقق. أنظر إلى المدرسة كزنزانة عملاقة، أعرف وأنا داخل إليها أن الفسحة اليومية انتهت، وأنه لا مجال للإفلات الآن. سيكون اليوم طويلاً ومضجراً ومليئاً بالمخاطر والتهديدات. أتمنى أن يأتي زلزال يهد البناية برمتها فنهرب فرحين. لكنني لا أعلق آمالاً كثيرة على ذلك، فانقلاب الحافلة في المنعرج أكثر واقعية، ومع ذلك لا تنقلب، فما بالك بالزلزال. عندئذ أفكر أن الحياة آمنة على نحو مثير للقرف.

في تمام العاشرة، جاءت مي عيشة لتخبر المعلمة داميّة أن المديرة تطلب رؤيتها. سألتها عن السبب، فوشوشت في أذنها. نظرت نحوي فعرفت تلقائياً أنها أمي. دعتنا للخروج للاستراحة، وعندما رجعنا كانت لا تزال غائبة. خفت أن يحدث لي شيء من جراء ما ستفعله أمي.

عندما رجعت داميّة أخيراً، كانت منهارة تماماً. لدرجة أنها لم تستأنف الدرس، عادت إلى مؤخرة القسم وسألتني بغاية اللطف عما قلته لأمي بالضبط. كانت دموعها تنهمر بحرارة، فتبتعد في كل مرة لاسترجاع أنفاسها.

فاجأني أن يكون لزيارة أمي كل ذلك الوقع على داميّة القوية. وفوجئ التلاميذ أن يروا دموع الغولة التي ظلت ترعبنا. عندما عدت إلى المنزل، عرفت أن أمي أثّبتها قائلة إن ما تفعله لا يشرّف رجال ونساء التعليم. كانت داميّة تبدو في عمر أمي، لكنها لم تكن متزوجة ولم يكن عندها أولاد مثل بقية المعلمات، وقد أخبرتها المديرة في ذلك اليوم أنها مطرودة من المدرسة.

# 4

# فلاش باك

كان بيتنا يطل على البحر. عندما انتقلنا إليه، كنت لا أزال في الخامسة من العمر. أتذكر ذلك بوضوح. الإقامة حديثة البناء، جدرانها ناصعة البياض، تفوح منها رائحة الطلاء المنعشة. سلسلة من العمارات المتراصة وشقق كالمكعبات، تحيط بها الأحياء الصفيحية من كل الجهات. في البداية، لم يكن هناك أي أطفال. وقد جاءت عائلة وليد للسكن في العمارة المقابلة لنا تماماً، في الطابق الأول، بينما نحن في الثالث. أرى ما يحدث عندهم في المطبخ، وما يحدث في غرفة وليد عندما تكون الستائر مفتوحة.

كان مرحاً جداً في تلك الفترة، مستعداً دائماً للمغامرة. لعبنا كثيراً قبل أن يأتي الأطفال الآخرون. أصبحت لدينا درّاجات ندور بها حول العمارات بأكبر سرعة ممكنة، نتسابق ونتبارى في نزول السلالم والقيادة بعجلة واحدة. ثم بدأنا ننظم رحلات استكشافية، فعثرنا على مكان غير بعيد، يضع فيه السكان نفاياتهم، قبل أن تأتي شاحنة في منتصف الليل لتفريغها. صرنا نستعمله في النهار كزنزانة، عندما يكون خالياً ونظيفاً، لأنه يشبه قفصاً يُقفل من الخارج، ويستحيل فتحه من الداخل.

تعرفنا على كل الحومات، وهي خمس عشرة حومة بالضبط. معظمها كان خالياً من الأطفال حتى ذلك الوقت. وفي قلب الإقامة، وجدنا بناية كبيرة من أربعة طوابق لا تشبه بقية العمارات. يقول الجميع إنها مدرسة لم ينهوا بناءها لأن الشركة أعلنت الإفلاس. تمنينا أن يشتريها أحدهم ليكمل بناءها حتى يخلصنا من جحيم ركوب الحافلات والسفر إلى المدارس البعيدة.

بعد مدة، امتلأت الإقامة بالأطفال ودخلنا جميعاً في نزاعات مسلحة. حتى أصبح ممنوعاً على أي ولد أن يعبر الحومات الأخرى. وحدهم أطفال البراريك

يعبرون كل المناطق بحُريّة. يصعدون عاري الصدور من البحر، مسلحين بالشباك والأسلاك الحديدية، يقتسمون الخبز بالطون وقرعة كوكا. بالنسبة إلينا، تلك قمة المغامرة. إنهم يعيشون كقراصنة، أحراراً طليقين، يصطادون الأخطبوط ويحملون زجاجات مليئة بالأسماك الصغيرة. أولاد البراريك أقوى من أي شيء. يأتون إلى البحر وحدهم بلا آباء. من حين إلى آخر، يغرق أحدهم، فتتجمع كل المدينة، وينتظر الجميع أن يلفظ البحر جثته.

كل يوم أحد، لما يكون الجو رائقاً، يأخذنا أبوانا إلى البحر. لا يفصل إقامتنا عنه سوى طريق تخترقها السيارات والشاحنات. ذلك هو الحد الذي يُمنع علينا كأطفال تجاوزه. ونحن نعبره، ينتشر داخلي إحساس منعش بالحرية. نتسابق أنا ووليد نازلين. عندما نصل الأسفل، تختفي العمارات البيضاء كلياً. ليس هناك سوى البحر والسماء والكتل الصخرية التي تبدو كجبال عالية وحادة. إنه مليء بالمغارات التي كان يسكنها الإنسان البدائي. يقول أبي إن اسمه "إنسان الهرهورة" وقد كان يعيش من صيد السمك. نجري من مغارة إلى مغارة مقهقهين، بينما يتناوب أبوانا على تدخين لفافة واحدة، تشبه سيجارة الكاوبوي.

خلال الجَزر، يتراجع البحر تاركاً خلفه بحيرات صغيرة. ينعكس ضوء الشمس داخلها وتبدو كأنها عوالم مستقلة بذاتها، فيها أعشاب مائية وسلطعونات وأسماك صغيرة جداً، نحاول إمساكها لكنها تفلت بخفة مدهشة. نرش بعضنا بعضاً، قبل أن يصفر علينا أبو وليد ملوّحاً لنا بيده للالتحاق بهما. يقفز وليد من صخرة إلى صخرة، ألحق به. يذهب بعيداً في كل مرة، فيبقى تركيزي على حذائه البلاستيكي الأحمر وهو يتقافز كأرنب. تبدأ الشمس بالغروب فنصعد بصعوبة حتى نعود إلى السطح. أشعر أننا سافرنا في الزمن، من عالم الإنسان البدائي إلى وقتنا الحاضر.

كانت أمهاتنا صديقتين أيضاً. تقصان شعرهما بالطريقة نفسها، وتعملان في الثانوية المحاذية للإقامة. كانتا تأخذاننا للسباحة في الصيف. هناك أنبوب عملاق لتصريف قاذورات المدينة يصب في البحر مباشرة. يأخذ الأمر منهما وقتاً قبل أن تعثرا لنا على بركة نظيفة، أما أطفال البراريك، فيسبحون بكل

مرح في البحر الكبير، فننظر إليهم بحسرة على الحرية التي يتمتعون بها. في مرة أخرى، عدت مع أبي فتركني أسبح معهم. كان ذلك رائعاً، لكنني شعرت بالحكة بمجرد خروجي من الماء. أخذت أهرش جلدي ونحن عائدان إلى المنزل، ثم ظهرت حبيبات في كل جسمي، وتطلبت معالجتها عشرة أيام. واضطررت إلى تناول الدواء كعقاب إضافي حتى بعد اختفائها.

في رأس السنة، كانوا يأتون عندنا لنحتفل كأننا عائلة واحدة. نرقص ونأكل الحلوى ونشرب العصير بينما يحتسي الكبار الخمر. أعرفه من رائحته ولونه الأحمر، كما أعرف أن شربه ليس للأطفال. بعد بضع كؤوس يسكر الكبار ويفعلون أشياء مضحكة. ذات مرة، حاولت ووليد أن نجرّبه خلسة، تذوقنا بقايا الكؤوس في المطبخ فوجدنا أن مذاقه فظيع جداً.

كان ذلك في نهاية الثمانينيات، عندما رأيت أشخاصاً في التلفزيون يدمّرون جداراً، ويعانقون بعضهم بحرارة تستعصي على الفهم. أخبرني أبي أنه جدار فرّق مدينة برلين إلى نصفين. نصف لأميركا ونصف لروسيا، وأن شخصاً خرج للتسوق في الصباح وجد بيته مقسوماً لدى عودته، فبقي عالقاً في الجزء الخطأ، وانتظر أربعين سنة قبل أن يلتقي أفراد عائلته. كانت تلك نهاية الحرب الباردة.

أخبرنا دونكيشو أن الحرب الباردة هي عندما تستعمل روسيا الثلوج كسلاح للقضاء على جيوش نابليون وهتلر. هذه الخطة لم تنجح ضد أميركا. لأن أميركا ثقبت طبقة الأوزون فارتفعت درجة الحرارة، وأخذت الثلوج بالذوبان في كل الكرة الأرضية. ثم شرح لي أبي أن الحرب الباردة هي عندما لا تدخل في المعركة مباشرة، وأن روسيا وأميركا ظلتا تهددان بعضهما بعضاً بالقنابل النووية، وفي حال اشتعلت الحرب، سيُدمّر الجميع...

بعد شهور، رأيت الألمانيين يلعبون المباراة النهائية في كأس العالم. كنت سعيداً بالفرجة على بطلي المفضل مارادونا. لم أصدق أنهم كسروه مثلما كسروا الجدار. صُدمت وأنا أراه يخسر المباراة، وبعدها لم يتوقف عن البكاء كطفل صغير رغم أنهم ألبسوه ميدالية ذهبية.

كنا وحيدين بلا إخوة. وهو ما أدر على وليد مكاسب عدة. فألعابه كثيرة ومتطورة علينا جميعاً. إنه أول من اشترى دراجة "بيمكس" قبل أن نشن حرباً شعواء على آبائنا. في المقابل، لم يكن مسموحاً له أن يأخذ أطفالاً إلى المنزل، ولا أن يحتفل بعيد ميلاده. لم يكن أحد يتخيل ما يوجد داخل بيته الذي يختلف عن بيوتنا جميعاً. أنا الوحيد الذي تحقق له ذلك، بفضل أبي، الذي بعثني لإحضار كاميرا فوتوغرافية، ليأخذها معه في سفره إلى العراق. وقد كان أولاد الحومة يحسبون عليّ ذلك مراراً، ويرونه نوعاً من الخيانة.

فتح لي أبو وليد وهو يرتدي شورتاً قصيراً ممسكاً سيجارة بيده. دعاني للدخول ثم تركني في الصالون وذهب للحظات. الغرف بلا أبواب، باستثناء الحمام وغرفة وليد، توجد بدلاً منها عناقيد بلاستيكية ملونة ورنانة. لم يكن الصالون صالوناً، هناك حصائر ووسادات فقط، لذلك يبدو شاسعاً وفائضاً عن الحاجة. وفي قلب ذلك الخواء، يوجد تلفزيون فوقه ديكودور لمشاهدة القناة الثانية. أما الجدران، فكانت مزينة بصور كبيرة بالأبيض والأسود، تبدو فيها أم وليد جميلة كنجمة من نجمات السينما. وكان ضوء الحمام أحمر، أخبرني أبي أنهم يستعملونه لتحميض الصور الفوتوغرافية. وكان لديهم كلب اسمه "باكونين" نناديه "باكو"، وكانوا يتحدثون بالفرنسية فيما بينهم.

عاد أبو وليد بالكاميرا، أخبرني أنه ترك داخلها شريطاً لم يلتقط به سوى أربع صور، يمكن لأبي استعمال الباقي. وأظن أن وليد كان بغرفته حينذاك، لكنه لم يخرج لرؤيتي.

سيتأتى لي رؤية غرفته بعد ذلك. عندما أدخلني إلى المنزل أول مرة، نظر بانزعاج إلى ما حوله وقال: "هذا البيت مؤقت..."، لم أفهم ما الذي يعنيه، فأضاف: "سنهاجر قريباً إلى كندا". لكنهم لم يهاجروا أبداً إلى أي مكان. كانت غرفته تشبه غرف الأولاد في المسلسلات الأميركية: ملصقات أفلام على الجدران، سلة باسكيت خلف الباب، مكتب، رفوف مليئة بالدراجات النارية الصغيرة وسيارات السباق. إنها عالم مستقل بذاته في بيت متواضع جداً. يظل بابه مغلقاً، يدق عليه الأبوان قبل أن يفتحا. عندما يفتح أبوه، يلقي لنا بموزتين، يتلقفهما وليد في الهواء كحارس مرمى بارع.

أعرف أنه يفاوضهما دورياً للحصول على هدايا جديدة يسيطر بها على العصابة. هكذا حصل على كرة سلة من الطراز الرفيع، وهواتف تولكي وولكي صرنا نستعملها في ملاحقاتنا البوليسية، وسكيت بحاميات للركب والمرفقين، دون حاجة إلى قبعة واقية لأنه يتزحلق بمهاراة فائقة، وقفازات بلا أصابع، ومونوبولي، قبل أن يدشن موسم الأحذية الرياضية. كان وليد يواصل معركة الموضة الذكورية بلا هوادة، ولم نكن نعرف أننا نريد الأشياء قبل أن نراها عنده.

بنينا طريقاً سيّاراً حول الفراش، ولعبنا سباق السيارات الكهربائية بالمانيطات، ثم لعبنا المونوبولي فأذهلتني اللعبة كثيراً. أعجبني إمساك الأوراق النقدية التي تخيلت أنها دولارات، وأحببت شراء الفنادق والعمارات، وبدت لي فكرة اللعبة رائعة، ولم أعد أريد سوى شيء واحد: أن يشتريها لي أبي بأي ثمن. عندما عدت في المرة التالية، امتنع وليد عن العودة إلى هذه الألعاب، بل أخرج صندوقاً من خشب العرعار، وقرر أن يعلمني الشطرنج.

ولأول مرة، رأيت شيئاً مختلفاً يلمع في عينيه وهو ينطق اسم كل قطعة. إنها لعبة الملوك، كان يقول. ورغم أنه علمني قواعد اللعب، فأنا لم أفهم روحها أبداً. ظل يقول لي: لا تندفع بمشاعرك، لأنها تجعلك ترتكب أخطاء إستراتيجية. فكر بعقلك واستعمل خيالك للتنبؤ بضربات العدو.

كانت لديه كاسكيطة سوداء رائعة، بقطع معدنية براقة، مثل قبعة مايكل جاكسون. يرتديها كل سبت ويخرج مزهواً بنفسه، ونحن نتحايل عليه لتجريبها، إلى اليوم الذي خطفها منه أولاد البراريك، وأقفلوا عليه في زنزانة الأزبال، حيث بقي سجيناً إلى وقت متأخر. منذ تلك الليلة تحوّل إلى طفل آخر. لم يعد يرتدي أي قبعة بعد ذلك، وابتعد عن العصابة شيئاً فشيئاً.

ذهب أبي إلى العراق صحافياً. كتب لي رسالة من هناك وعاد قبل أن أنجح في الإجابة عنها. عاد بثلاث حقائب مليئة بالكتب والهدايا، وكمية هائلة من البخور أخذت تفوح في منزلنا منذ ذلك الحين، وديكورات عدة من بينها كرة زجاجية توجد داخلها راية عراقية صغيرة وتراب مخلوط بدم الشهداء. وأحضر لي رجلاً آلياً بشاشة تعرض دبابات وطائرات حربية في أوج المعركة، وسيفاً

عربياً مقوّساً تكسّر داخل الأمتعة. إحدى تلك الحقائب مليئة عن آخرها بكتب الأطفال، أخبرني أن المسؤولين العراقيين أخذوهم إلى مكتبة كبيرة وسمحوا لهم بأخذ كل ما يريدون.

استضاف صدّام مؤتمر الكتاب العرب في بغداد، بعد نصره على الفرس، وذهب أبي لتغطيته. أخبرهم صدّام أن المخابرات الإسرائيلية قد شنت حملة لاغتيال العلماء العراقيين الشباب، وهو خير دليل على تفوقهم. استرسل ضاحكاً وهو يُخرج شيئاً من جيبه يشبه محرك لعبة كهربائية، إنها قنبلة متطورة صنعها الشباب، قال إنه سيستعملها لمسح إسرائيل من خريطة العالم.

رأيت في الصور الفوتوغرافية أشخاصاً مع أبي، من بينهم ممثلون شاهدتهم في التلفزيون. وصورة لمجرى مائي يسمونه نهر النصر. شربوا منه قبل أن ينتصروا على الفرس. وأصبحت "بغداد" كلمة مألوفة في بيتنا، لكن اسم صدّام سيدخل كل البيوت في غضون الشهور التالية، عندما سيعلن حرباً جديدة في مكان آخر.

سيفرح الجميع بهذه الحرب لأن التلفزيون سيعلن إجازة رغم أنهم ظلوا يقولون إنه لا يجوز لبلد عربي أن يهجم على بلد عربي آخر، ولم نكن نفهم ما الذي يعنيه ذلك بالتحديد. لكننا كنا سعيدين بالعطلة، والكبار أيضاً، حتى لو هجم صدّام على كل البلدان العربية التي يريد. قضيت أيام العطلة في أصيلة، في بيت جدتي أولاً، ثم في بيت عمتي زكية التي لديها بنتان في عمري وجهاز فيديو. نكتري فيلمين كل يوم ونشاهدهما مرات عدة، قبل أن نعيدهما إلى "الفيديو كلوب". أحب هذا الجو كثيراً، نتناوش على مدار الساعات للسيطرة على جهازي التحكم في التلفزيون والفيديو. أحب عمتي عندما تقول لي إنها تشم فيّ رائحة أبي الذي لم يعد إلى المدينة منذ سنوات. وتقول أيضاً إن أبي وأمي عاشا قصة حب فوق السطوح لأنهما أبناء جيران، وأنهما ذهبا إلى المدرسة معاً قبل أن يتزوجا ويُنجباني...

عندما انتهت العطلة، دخل صدّام فجأة إلى حياة كل الأطفال. وجدت نفسي في مركز المبادلات التجارية، في الوقت الذي بدأ فيه نجم وليد يأفل هو وألعابه الأميركية. أصبحت القطع النقدية العراقية التي أحضرها أبي مرغوبة

جداً، فبادلتها بأشياء كثيرة. وتحولت الكتب المختومة برمز "وزارة الثقافة العراقية–دائرة الأطفال" إلى سلعة رائجة بين أطفال الحومة والمدرسة، خصوصاً تلك التي تبتدئ بصورة للقائد العظيم ونشيد لابنته ندى التي أصبحنا نحبها جميعاً. بدا كأني صرت مثل وليد تماماً: طفلٌ وحيدُ أبويه يحظى بكل الرعاية والاهتمام.

كل ذلك حدث قبل أن أستسلم لنومة طويلة، أنا الذي يكره النوم في الظهيرة، وأستيقظ في عالم جديد، حيث وجدت أمي وأبي يضحكان في غرفة المعيشة التي نستعملها كمكتبة أيضاً. كانا رائقين على نحو غير معتاد بينما ضوء العشية يلون الأجواء. وقد طرحا عليّ سؤالاً غريباً وأنا بعد في منطقة بين النوم واليقظة: هل أريد أن يجلبوا إلي أخاً من الخيرية، أم أفضّل أن تحمله أمي داخلها وتلده لنا بعد تسعة أشهر. وطبعاً، بدت لي المهلة طويلة جداً، لكنني فضلت مع ذلك إمكانية الحمل. كنت أطالبهما من حين إلى آخر بأخ صغير، فأخبراني أن الوقت قد حان، وأنه سيأتي بعد شهور...

# 5

## الإهانة

مع الوقت، صرت أنتبه أكثر إلى المعلمة داميّة. تراجعت المديرة عن طردها، فأصبحت تركز عقوباتها على التلاميذ الكسالى فقط. كانت ترافقنا في الحافلة المدرسية من حين إلى آخر. وعندما يكون عندها دفاتر للتصحيح، تكدسها في قفة وتجلس في المقدمة جنب السائق، بينهما كاميليا. يخرج الشاب عزيز عن مساره المعتاد ويتوغل في أحد الأحياء الشعبية، بينما تطلب منه إنزالها بعيداً، لكنه يصر دائماً على الاقتراب من بيتها. كانت تدور بينهما حوارات صامتة وإشارات جعلت الأطفال يتخيلون أنها قصة غرامية. لم أصدق ذلك حتى رأيت صمتهما يتحول إلى ابتسامات متواطئة. عندئذ فهمت أن ثمة شيئاً يقع خارج هذه الرحلة اليومية.

وجاء اليوم الذي أراد أن يهديها فيه علبة صغيرة حزرت أن داخلها خاتماً ذهبياً. رفضت داميّة أن تأخذها منه وهي تتمنع قائلة: "غيشفونا الناس..."، ثم نزلت من الحافلة وهي تبتسم، لم نكن قد رأينا الابتسامة في وجهها من قبل، لذلك بدا لنا كأنه وجه آخر.

بقي الشاب عزيز في حيرة من أمره، والحافلة واقفة لا تتحرك، ونحن نتابع المشهد الذي أكد الإشاعة. تطوّعت مي عيشة حارسة البوابة، فأخذت منه العلبة الصغيرة ونزلت من الحافلة، ومدتها إليها وهي على وشك أن تزغرد. أمسكت داميّة الهدية وابتسمت كأنه أجمل يوم في حياتها. ارتاح الشاب عزيز أخيراً، وارتحنا أيضاً، قبل أن تنطلق الحافلة من جديد.

في السنة الموالية، حصل دونكيشو على الشهادة الابتدائية. ورغم ذلك لم يتوقف عن اللعب معنا. أصبحنا، أنا ووليد، في فوجين مختلفين، بينما ظلت كاميليا معي. لم أعد أعرف ما يصنعه في قسمه، ولم يعد بإمكان أي معلمة شريرة أن تدعونا لإمساك بعضنا بعضاً أثناء العقوبات.

كل شيء كان عادياً. داميّة تدرّسني للعام الثاني على التوالي. مرت الدورة الأولى بسلام، وبدأ بطن أمي بالانتفاخ كالبالون. كان الجو بارداً وكنت أتفرج على "القناة الصغيرة" في التلفزيون، فرأيت الثلج يتهاطل على مدينة إيفران، والناس سعيدون بتقاذف الكرات الثلجية كأنهم في أوروبا. كل الأولاد رأوا ذلك في نشرة الأطفال، وتمنى الجميع لو أن الثلج تساقط في مدينتنا أيضاً.

وجاء اليوم الأخير قبل بداية العطلة الشتوية. كتبت المعلمة على السبورة: الجمعة 21 دجنبر 1990. شعرت بالسعادة وأنا أقرأ ذلك التاريخ، وأحصيت بأصابعي الأيام التي ستمتد خلالها العطلة: عشرة، أحد عشر، ثلاثة عشر. ظللت أخطئ في كل مرة. وزّعت علينا أوراقاً مليئة بالتمارين حتى لا ننسى ما تعلمناه خلال العطلة. أضفتها إلى تمارين الفرنسية والرياضيات وأحصيتها هي الأخرى. تسعة عشر، عشرين، واحد وعشرين. ياه! فكرت أن كمية التمارين تزداد مع السنين. لكنني لم أعر ذلك اهتماماً، لأنني لا أريد أن يتعكر مزاجي، أريد أن أفكر في العطلة فقط. سألعب وسأسافر، سأشاهد التلفزيون متى أريد وسألعب من جديد.

كنت غارقاً في تلك الأحلام عندما طرق أحدهم باب القسم. فتحت داميّة، وتبين أنها مدام زنيبر مديرة المدرسة. وقفنا فجأة ونحن نشعر بنوع من المهابة، هي في الحقيقة رهبة المعلمات ينقلنها إلينا عبر الهواء. لم يكن في هيأتها ما يثير الخوف. كانت في عمر جداتنا، لها ابتساماتهن المفعمة بالطمأنينة، كل ما يفصلها عنهن هو ارتداؤها ملابس عصرية، وقصة شعرها القصيرة ونظاراتها الأنيقة. لكن المعلمات كن يرتعدن لخبر تجوّلها في كولوارات المدرسة ويهبن زيارتها أكثر من زيارة المفتش؛ كانت رؤيتهن في تلك الحالة مسلية جداً. دخلت مدام زنيبر ومعها وليد يحمل ورقة كُتب عليها: "حمار".

أمر صادم للغاية! أوقفته وسط القسم على مقربة من السبورة، وسألتنا بالعربية الفصحى: "من هذا؟".

وأجاب التلاميذ دون أي تردد: "هذا حمااااااررووون".

لم أكن ملزماً مجاراتهم، لكنني فعلت في خضم التدفق الجماعي. ثم التفتت المديرة إلى وليد وسألته لتجبره على إهانة نفسه بنفسه: "من أنت؟".

وترفّع عن إجابتها، فلم تجد أي وسيلة لإجباره.

في ذلك اليوم، أهانته أمام كل المدرسة. لم يعرف أحد السبب حتى تُكلّف المديرة نفسها عناء أخذه من قسم إلى قسم. كل ما نجحنا في معرفته هو أنه قال "ما لا يُقال". لم تشف هذه العبارة غليلنا على الإطلاق. في البداية، فكرنا أنها شتيمة. لكنه لم يكن من النوع الذي يتفوه بالشتائم، وأنا لم أسمعه يشتم أحداً قط. فحيّرنا الأمر كلياً.

في آخر مرة تدخلت فيها مدام زنيبر لإلحاق هذه العقوبة، هجم أربعة أولاد على مراحيض البنات وأشهروا عليهن أعضاءهم الذكرية. كانت تلك قمة المخاطرة التي يتصورها العقل، فتعرضوا للعقوبة نفسها لكنهم كانوا سعيدين في أعماقهم، وأصبحوا يحظون باحترام شديد من باقي الأولاد في ساحة الاستراحة. بعد عمليتهم الانتحارية، صار لهم شأن وأصبحت شجاعتهم أمراً لا يُعلى عليه. فكرت من جديد: وليد ليس من النوع الذي يجري وراء المجد باقتحام مراحيض البنات.

جعلته المديرة يتجول بين الصفوف إمعاناً في إذلاله. شعرتُ بالخجل الشديد من أجله، لكنه ظل مطمئناً طوال الوقت، ينظر إلى الأرض دون خوف أو استعطاف. وجاءت اللحظة التي مر فيها أمامي. تبادلنا نظرات كأننا لا نعرف بعضنا بعضاً. كنت أشك هل هو وليد الذي أعرفه أو ولد آخر انتحل شخصيته. تبين لي أنه هو فعلاً عندما ابتسم لي ابتسامة صغيرة كأنه يقول: "لا تقلق، فأنا أعرف ما أفعل". فاجأتني ثقته بنفسه وصلابته في تلك اللحظة. لم ينتبه إلى ذلك أحد سواي، أنا الذي أعرفه منذ كان يتعثر في المشي والكلام. أحسست كأنه في غضون تحقيق شيء مهم لا علاقة له بالشتائم والمراحيض وبطولات ساحة الاستراحة. كان الكابتن وليد يقدم على إنجاز كبير يتجاوز التلاميذ والمعلمات على حد سواء. وحدها المديرة استوعبت ما يحدث وعزمت على كسره من الداخل.

دامت الجولة المهينة بضع دقائق. بدت كأنها لن تنتهي أبداً. ظللت أتخيل المديرة تأخذه من قسم إلى قسم، إلى أن خرجت المعلمات للتحادث فيما بينهن للاطلاع على ملابسات القضية. عمّ الهرج في القسم، وتحوّل التلاميذ إلى حيوانات في الحديقة. وعندما عادت المعلمة داميّة، أخبرتنا أن المسألة خطيرة جداً، وقد تكلفه الطرد النهائي، وأن ما فعله عمل بشع سيجعل المدارس الأخرى ترفض قبوله أيضاً، وهكذا ستتوقف حياته وسينتهي به الأمر زبّالاً.

لم أفهم ما الذي يمكن لولد صغير أن يقوله حتى يثير هذا الزلزال، وكيف يمكن لقول أن يكون فعلاً في الآن نفسه، وكيف له أن يتسبب في نهاية مشوراه الدراسي.

في منتصف النهار، ركبنا الحافلة لتناول الغذاء في بيوتنا. أراد الأولاد أن يعرفوا ما قاله بأي وسيلة. حاولوا أن يسخروا منه وأن يلحقوا به الأذى، لكنه ظل صامداً على نحو مذهل. استغلت مجموعة منهم فرصة نزول مي عيشة حارسة البوابة لإيصال أطفال صغار، فهجموا عليه من جميع الجهات. بدا كأنه تحالف واسع شارك فيه أولاد من كل الخنادق، ولم تكن أسباب الضرب مفهومة، هل لما فعله، أم لأنه يرفض الإفصاح عنه.

كل ما نجحوا في معرفته من زملائه في القسم هو أن ذلك "الشيء" حدث في حصة العبادات، وأنه قال شيئاً ما عن "سيدي ربي". ولم ينجح أحد في تصوّر ما الذي يمكن أن يقوله ليثير حفيظة المديرة والمعلمات إلى تلك الدرجة.

تناولت الغذاء في المنزل بسرعة وعدت لانتظار الحافلة. تأخر وليد حتى ظننت أنه لن يأتي. ثم رأيته قادماً بعدما جاءت الحافلة، فانتظرناه وهو يجري اتجاهنا.

استمر الأولاد بالغليان طوال الزوال متشوقين للعطلة ولحل اللغز. لم يكن للمعلمة ما تدرّسه لنا، فقد أجرينا كل الامتحانات وحصلنا على النتائج وانتهت الدورة الأولى. لم يبقَ أمامنا سوى انتظار العطلة.

بدأت أتلذذ بمرور الزمن دقيقة دقيقة بعد رجوعنا من استراحة الرابعة. كنت أحس كأنني في موقع قوة وأن الوقت مضطر أن ينقضي آجلاً أم عاجلاً ونرحل إلى بيوتنا لنلعب ونمرح. لمعت في ذهني صورة ساعة رملية تنساب حبيباتها واحدة بعد أخرى دون توقف، وبدأت الشمس تغرب، فأشعلت المعلمة الضوء في القسم وبدا الجو حميمياً. جمعنا كل أدواتنا وبقينا ننتظر بصبر، ثم سمعنا تلاميذ من الأقسام الأخرى يركضون في السلالم، ودقّ الجرس أخيراً.

دعتنا داميّة للخروج بهدوء. تمالكنا أنفسنا في البداية، ثم أخذنا نجري عندما تركنا القسم. نزلنا السلالم بفرح جنوني، كان الهواء منعشاً والليل عميقاً. توجهنا إلى موقف الحافلات، وركبنا حافلتنا التي كانت مظلمة في الداخل لدرجة أننا لم نكن نرى بعضنا بعضاً. لم ينسَ الأولاد حكاية وليد، بل انتشر خبر جديد بسرعة البرق. تجمعت المعلومات وتقاطعت فيما بينها دون أن تشكل خبراً متكاملاً. وشوش أحدهم في أذني جملة لا أحد يعرف من أين جاءت: "أبوه شيوعي وأمه تدخن السجائر".

لم أعرف أول الأمر ما معنى ذلك. لكن الجميع كان يتناقل الجملة كأنها شيء خطير. لم أكن أعرف ما معنى شيوعي بالضبط، تذكرت أن البوليس يقبض على الأشخاص في الأفلام المصرية بتهمة الشيوعية. لم يكن البوليس وحده من يحارب الشيوعيين في تلك الأفلام، فالناس كانوا يخافون على أولادهم منها، والفقهاء يصفونهم بأعداء الدين؛ كنت أستنتج أنهم كفّار أو شيء من هذا القبيل.

لم يكن هناك وجود للشيوعية في المسلسلات المغربية. ولم يكن أبو وليد يشبه الكفّار كما رأيتهم في التلفزيون، ليست له لحية مشعّثة، وهو لا يقهقه بزجاجة خمر بيده مثل أبي جهل. فشلت في تذكر هل رأيت أمه تدخن. لكنني تذكرت رائحة السجائر التي لا تفارق بيتهم. خمنت أن تدخين الأمهات ليس كتدخين الآباء، لأن ذلك يجعلهن يظهرن كنجمات خطيرات.

انتشر الليل في كل مكان بينما الحافلة في طريقها إلى بيوتنا، وانتابت الأولاد حالة من الهيجان، فخرجوا كلياً عن نطاق سيطرة حارسة البوابة،

لعلمهم أن العطلة طويلة وستنسيها الوشاية بهم للإدارة. عندئذ بدؤوا الغناء الشرير:

شلالا أولي... شلالا لالا...
ولد مي عيشة... مالووو؟
زلق في الحمام... وسببهووو؟
الصابون البلدي...
شلالا أولي... شلالا لالا...

ثم استغلوا الظلام لتوجيه الضربات إلى وليد، ولكزني أحدهم ببركار أسفل ظهري انتقاماً مني أو لجعلي أبقى بعيداً ولا أحاول مساعدته. كان ذلك مؤلماً للغاية، شعرت بظلم وقهر لم أشعر بهما من قبل، لدرجة أن عينيّ اغرورقتا بالدموع. مسحتهما في الظلام دون أن يراني أحد. ما ذنبي أنا في كل ما يحدث! تجمع الأولاد فوقه حتى شكلوا كومة بشرية كبرى، حجبوا عنه الأكسجين وأخذوا يوجهون إليه الضربات في العتمة. لم تكن صرخاته تُسمع داخل الضجيج الذي يصنعه الجميع.

عندما أخذ الأطفال يتناقصون في الحافلة، اكتشفنا أنهم سرقوا حذاءه، وظللنا نبحث عنه في الظلام. لم يكن بوسع مي عيشة أن تفعل لنا شيئاً. فعاد وليد إلى منزله يعرج بحذاء واحد، وتمشينا في الإقامة منهكين، وبدأ يبكي لأول مرة في ذلك اليوم الطويل. أوقفه أبوه في الباب رافضاً إدخاله المنزل، فذهبت معه لتأكيد أن الأولاد سرقوا حذاءه وأن مي عيشة لم تفعل شيئاً لمساعدته.

تركته وعدت إلى المنزل حائراً. لم أجرؤ على سؤاله عن الذي قاله؛ لم أجد أي فرصة لذلك، كنت فقط متألماً لما يحدث له. كانت تنتظره عقوبة أخرى سيصدرها المجلس التأديبي عندما سنعود إلى المدرسة. لابد أن العطلة ستكون عسيرة عليه. وربما تكون من حظه، لأنها ستجعل الجميع ينسون. ربما حدث زلزال أو اندلعت الحرب العالمية الثالثة فتنسى المعلمات والمديرة أيضاً.

# 6

## الغيمة

في الصباح الموالي، تجمّع أولاد الحومة الأولى وكان ينقصنا وليد. ذهبنا إلى أنترفون العمارة وضغطنا على الزر. أجابنا أبوه باقتضاب يستغني عن أي مبررات: وليد لن يخرج. سألني الأولاد هل أنا على علم بما يجري، ونظروا إلي كأنني أكتم عنهم سراً. فكرت أنه يواجه عقوبة ستمتد لأيام، لكنني لم أقل لهم ذلك. لعبنا ثلاث ساعات متواصلة قبل أن تشرع أمهاتنا بمناداتنا. كان الغذاء لذيذاً، لم أكن مجبراً على الإسراع في الأكل لألحق بالحافلة المدرسية، بل استرخيت أمام التلفزيون لساعتين قبل أن تخبرني أمي أننا سنسافر إلى أصيلة بعد أيام. فرحت بالخبر لكنها أمرتني بإنجاز الواجبات المدرسية لأنني لن أجد الفرصة هناك. مجرد النظر إلى الأوراق العشرين يشعرني بالنفور. لا أريد التفكير فيها الآن. أتحايل عليها وأنزل مجدداً إلى الساحة. لعبنا ثلاثة أيام متوالية، من الصباح إلى الليل، دون أن نرتوي بتاتاً.

سافرنا إلى أصيلة حيث تسكن جدتي. جاءت خالاتي من مختلف المدن مع أبنائهن. ألعب مع حسام وفؤاد. لا نشكل عصابة ثلاثية لأنهما أصغر مني. حسام كسلان جداً وفؤاد مجتهد جداً، ورغم ذلك، هما متضامنان. عندما يلتقيان في العطلة يتحولان إلى شخص واحد مستعد لمواجهة كل المخاطر. مهما هددهما الكبار، يُقدمان على الأفعال المجنونة، كالسطو على نقود الآخرين، والهرب من المنزل للمغامرة في كل المدينة، بينما يبحث عنهما الجميع.

كل الفرص متاحة للعب، ننزل إلى الطابق السفلي حيث يتجمع الأطفال، أو نصعد إلى السطح ونرى منه كل المدينة، في مشهد يشبه الكارت بوستال، تتزاحم فيه البيوت بفوضوية على مدى البصر. تمكن مراقبة حياة الجيران الموجودين أسفل منا، أو متابعة شخص يمشي كالنملة لعدة كيلومترات. كل مساء، تحضّر جدتي الحلويات، نتجمع حول المائدة في الصالون. الأكل ساخن

ولذيذ، والجو مليء بالقهقهات، قبل أن ينقلب بكاء إذا تمادى أحدنا وقررت أمه أن تلقنه درساً.

كان ذلك موعد الزيارات، تأتي نساء إلى المنزل بالجلابيب، قريبات أو صديقات لا نعرفهن. يسردن حكايات مشوقة لأشخاص حقيقيين، لا نفهم مهما تتبعنا التفاصيل، لأنهن يستعملن لغة سرية في ما بينهن. يضحكن جميعاً مع كل حكاية كأنها نكتة، يتصاعد إيقاع الضحكات حتى يتحول إلى قهقهة نسائية عملاقة تهتز لها جدران المنزل بطبقاته الثلاث.

تستنزف كل زائرة خالاتي اللائي يضحكن إلى أن تلتقي الدموع أسفل وجوههن، بينما نلعب بكرة بلاستيكية أو تنيسة وسط الدار أو في السلالم. وقد بدأن الحديث فيما بينهن عن صدّام وعن الحرب، بدا موضوعاً عجيباً لمجلس نساء، وقبل أن أنجح في الفهم، حاولت أمي أن تجبرني على إنجاز تمرين أو تمرينين، لكنني أفلتت منها لألعب مع أبناء خالاتي.

جاءت عمتي زكية وزوجها عبد السلام وبنتاهما آية وإحسان. كانت إحسان أكبر مني وآية أصغر، وكنا نكوّن عصابة مرحة جداً. أحب اللعب معهما لأنهما أكبر من أبناء خالاتي الأولاد. وقرروا أن يأخذوني معهم في رحلة إلى مدينة إيفران. فرحت لأن أمي وافقت ولم أصدق أنني سأرى الثلج لأول مرة.

استيقظنا في الفجر وارتدينا معاطف ثقيلة، ولبسنا جوارب مغلّفة بأكياس بلاستيكية حتى لا يصل البلل. شعرت بالجو بارداً عندما ركبنا السيارة. جلسنا في الخلف، نحن الثلاثة، ومعنا ربيعة الخادمة التي كانت في سننا أيضاً، بدأنا ندفأ تدريجياً بينما زوج عمتي يسوق في الظلام. إنه رجل يحب الضحك والمرح، أخبرنا ذات يوم أنه أكل الجراد لما كان في عمرنا، عندما هجمت أسراب كبرى من تلك الحشرات الخضراء والتهمت المحاصيل في كل أنحاء البلد، وأصبح الجميع مهدّدين بالمجاعة، فقرر المغاربة أن يأكلوها بدورهم. سألته آية كيف كان طعمها، فارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يقول إنها لذيذة جداً ومليئة بالبروتينات، وكشف عن ذراعه ليرينا عضلاته القوية. وصرخنا جميعاً لأن مجرد التفكير في ذلك يقززنا.

تلاشى الظلام وأخذ العالم يتوضح تدريجياً. كانت الطريق طويلة فنمنا حتى أيقظونا عندما وصلنا. نظرنا من النوافذ وصحنا: "فين الثلج؟". أجابنا زوج عمّتي: "لا بد أنه ذاب".فصحنا من جديد: "كيفاش ذاب؟". لا يحدث ذلك في الأفلام قبل مجيء الربيع، ونحن بعد في بداية الشتاء. كيف يذوب في المدة ما بين بث صوره في التلفزيون ووصولنا المدينة؟

كان الأمر محبطاً، ولم يكن هناك ما يستدعي الاهتمام في المدينة باستثناء تمثال سبع كبير يأتي الناس لالتقاط الصور معه. الشمس فاقعة وحارة رغم أننا في فصل الشتاء. فتخلصنا من معاطفنا. كنا منزعجين جداً، فقرر عمي عبد السلام أن يأخذنا إلى قمة جبلية قريبة اسمها ميشليفن. لكنه أعدّنا لاحتمال ذوبان الثلج هناك أيضاً.

في ميشليفن، كان الجبل شامخاً، تعلوه بقع بيضاء في القمة. صعدنا واكتشفنا أنه موجود أكثر مما رأيناه من الأسفل. صنعنا كرات ثلجية وتراشقنا بها. تشتت في الهواء، وعندما لمست وجوهنا أحسسنا بانتعاش كبير. اكترى لنا عمي عبد السلام مزلاجين تزحلقنا فوقهما حتى شعرنا بالدوخة. فكرت حينذاك أن العطلة شيء رائع، وأن الحياة يجب أن تكون كلها عطلة.

تغذينا وأخذنا صوراً تذكارية قبل العودة. وفي الطريق، تحدث زوج عمتي مع رجال الدرك فأشاروا له إلى مكان غير بعيد. أخذنا إلى غابة بدا مدخلها مذهلاً لأنها كانت مكسوة كلياً بالثلج. تغلغل في أعماقها قبل أن يوقف السيارة ويتركنا نلعب. لم أصدق ما أراه. كنا في قلب غابة بيضاء، تنبعث منها رائحة قوية. لم يكن الجو بارداً، كان العالم جامداً كأنه يطفو في مكانه، بقيت متوجساً أن يظهر ذئب بسرعة خاطفة كما في الأفلام، وبقينا نلعب قريباً من السيارة لساعة كاملة حتى تعبنا ورجعنا من تلقاء أنفسنا.

عدنا بالسيارة في الليل وقد نال منا التعب. تذكرت وليد فجأة فأفلت مني الفرح الذي شعرت به طوال اليوم. أخذت أتساءل ماذا يفعل في تلك الأثناء، هل هو معاقب من أبويه أم صفحا عنه، وما الذي سيحدث له في المجلس التأديبي عندما نعود إلى المدرسة.

قضيت بقية العطلة في بيت عمتي زكية بعد أن أقنعت أمي أنهم سيحرصون على أن أنجز واجباتي المدرسية. ظل شبح تلك الواجبات يلاحقني كل يوم وأنا أهرب منه بمشاهدة أفلام الفيديو التي كنا نستأجرها. كان عمي عبد السلام يحب الأفلام التاريخية مثل "عمر المختار" و"الرسالة"، يأخذنا إلى "الفيديو كلوب" ويتركنا ننظر إلى الأغلفة ويطلب من القائم على المحل: "شي فيلم نقي، مافيهش الوسخ".

كانت له شرائط فيديو لا ندري من أين يأتي بها، يحرص على حفظها في خزانة غرفة النوم ويقفل عليها بالمفتاح. يشاهدها كل الصباح عندما ننتهي من الإفطار، كانت مملة جداً لأنها مجرد ندوات ومحاضرات بالعربية الفصحى، فنتركه ونذهب للعب. صوتها خشن وصورتها باهتة وكلامها طويل ومضجر وغير مفهوم. حاولت مشاهدتها معه مرتين دون أن أنجح. واحد من تلك الأشرطة اسمه "حياة البرزخ" والثاني "وصف الجنة".

تذكرت وليد وتهمة الشيوعية، فقررت أن أسأله. أخبرني أن العالم كان ينقسم إلى بلدان شيوعية كروسيا ورأسمالية كأميركا. فسألته هل نحن شيوعيون أم رأسماليون، فأجابني نحن مسلمون. أكثر من مليار. لدينا نظامنا الخاص المذكور في **القرآن**. وجاءت عمتي زكية تبتسم لأسئلتي، ولم أكن بعد قد فهمت ما هي الشيوعية ولماذا هي سيئة، فسألت من جديد.

قالت عمتي إن روسيا هجمت على أفغانستان لأنها بلد مسلم، وقتلت النساء والأطفال. تلك هي الشيوعية. عندما هجموا على أفغانستان، هب المسلمون من كل أنحاء العالم لنجدتها... ثم أضافت أن الروس والأمريكان مثل الفرس والروم أيام النبوة. سيتحاربان إلى آخر رجل، لتقوم الأمة الإسلامية من جديد.

ذات يوم عثرت آية على مفتاح الخزانة، فانتهزنا الفرصة لفتحها واكتشاف ما داخلها، فوجدنا عشرات الأشرطة دون أغلفة أخبرتني أنها أفلام "الدعوة"، ثم عثرنا من بينها على شريط لفيلم كليوباترا. نظرنا إلى غلافها مصدومين؛ كانت ترتدي فستاناً شفافاً يكشف عن مفاتنها، وقد خطر لي حينذاك أنها شخصية تاريخية أيضاً...

كانت عائلة عمتي سعيدة جداً، لا يعكر صفوها سوى عناد إحسان التي لا تشبع من النوم وتراكم عليها الصلوات. يجعل ذلك أبويها يؤنبانها كل يوم. أما أنا وآية، فكنا خارج تلك السوق. في المدرسة، أخبرونا أن تعلم الصلاة يبدأ في سن السابعة وتصبح واجبة في العاشرة، عندئذ يجب ضرب الطفل إن تعنت في أدائها.

نبقى، أنا وآية، أمام التلفزيون، بينما يذهبون إلى الصالون العلوي لأداء صلاة الجماعة. تدّعي آية أمامي أنها تعرف كيف تصلي، بل تصلي من حين إلى آخر، وهم يتركونها لأنها ما زالت صغيرة. كل ذلك غريب علي، فأبي وأمي لا يصليان، وأنا متعودٌ رؤية المسنين فقط يفعلون ذلك، أراقبهم يوشوشون عند نهاية كل صلاة، ويبدو لي ذلك كالتواصل مع عالم آخر، عالم الأشباح.

عندما عدت إلى الرباط، كانت العطلة تشرف على نهايتها. أخبرني الأولاد الآخرون أن وليد لم يخرج طوال تلك المدة. ربما سافر دون أن يدروا. أمامي الكثير من الواجبات المدرسية ظللت أهرب منها. الآن لم يبقَ معي سوى يومين لمواجهة الأمر الواقع. حاولت إنجاز نصفها على الأقل لكنني فشلت. قضيت يومي السبت والأحد عاكفاً عليها، شعرت أنني أصعد جبلاً لا ينتهي وأن غيمة سوداء تكبر فوق رأسي حتى تحجب عني السماء.

في كل مرة، أنحني على الأوراق أخربش فيها، وفي كل مرة أعدّ الصفحات المتبقية وأجد أن عددها أكثر من الساعات التي تفصلني عن موعد النوم. شعرت بألم في ظهري، وتمنيت الخروج للعب لكن ذلك لم يكن متخيلاً حتى في الأحلام. كان الجو غائماً لمضاعفة تعاسة ذلك اليوم.

وبقيت الساعات تتلاحق بسرعة مذهلة. ألقيت إطلالة من النافذة، لم يكن هناك أحد. خمنت أن الجميع غارق في تمارينه أيضاً. وفجأة رأيت وليد يخرج من عمارتهم وفي يده السكيت الذي يتزحلق عليه. ناديته ولوّح لي بيده، دعاني للنزول فقلت له إنني لا أقدر. رجعت إلى مكتبي لأن الوقت كان يجري، استأنفت صعود الجبل الذي لا ينتهي وأنا أسمع صوت تزحلقه على السكيت. كنت أسمع ارتطامات عجلاته بالأرض، وأحزر أنه يدرّب نفسه على القفز عالياً بينما يلف السكيت حول نفسه في الهواء. دهمني الحزن عندما فكرت أن

أبويه منعاه من الخروج طوال العطلة، ولما أفرجوا عنه أخيراً، صرنا المسجونين.

جاءت ليلة الأحد، كنت قد اشتغلت كثيراً، وملأت وقتي بالأرقام والكلمات دون أن أنتهي من تلك التمارين اللعينة. واصلت بعد العشاء حتى تبقى لي تمرين واحد. سمحت لي أمي بالنوم وأيقظتني في الخامسة صباحاً لإتمامه. شعرت بالسعادة وأنا أكتب سطوره الأخيرة، كسعادتي بمشهد الساعة الرملية قبل أن تبدأ العطلة. بقي لي متسع من الوقت لأفطر وألبس. نزلت سلالم العمارة وأنا أفكر في كل ما سأحكيه عن الثلج في إيفران.

انتظرت الحافلة وأنا أشعر بارتياح عميق لأول مرة منذ ابتدأت العطلة وظل شبح الواجبات يلاحقني. الجو بارد والشمس تلطخ العمارات والأولاد والبنات واقفون في مجموعات صغيرة هنا وهناك. الكل ينتظر حافلته. كان وليد يقف إلى جانبي، صامتاً بوزرته الزرقاء محملاً بحقيبته المدرسية. لم أجرؤ على سؤاله في ماذا يفكر، لأنني تذكرت فجأة ما ينتظره، وأحسست أنه قضى عطلة سيئة جداً، محبوساً في المنزل، وقلقاً بشأن ما سيفعلونه معه. لا بد أنه ظل يفكر في ما قاله، وكيف واتته الشجاعة ليقوله، وهل قال حماقة دون أن يعرف...

رأينا مجموعة أطفال يتركون أماكنهم عائدين. لعل حافلتهم المدرسية تعطلت. كان يمكن أن نرى سعادتهم من بعيد. تمنينا أن يحدث الشيء نفسه معنا، لكن حافلتنا لاحت في الأفق. فتلاشى أملنا وأعددنا أنفسنا لولوج يوم سيّئ. لم أكن حتى ذلك الوقت أكره المدرسة، كانت شيئاً لا مفر منه. فماذا بوسع طفل لا يذهب إلى المدرسة أن يفعل؟

وصلت الحافلة وانفتحت البوابة. كانت خالية تماماً من التلاميذ، ضحك الشاب عزيز وهو يقول لنا: "ما كاينة مدرسة".

كررت مي عيشة ما قاله مضيفة: "رجعوا فحالكم، راه الحرب جاية...".

سألتها بدهشة: "إنا حرب؟"

فأجابت وهي تجر البوابة المعدنية: "الحرب ديال صدّام".

أقفلت البوابة كلياً، وانطلقت الحافلة، ثم أخذت تصغر مبتعدة نحو الأفق.

7

# صدّام سوبرستار

تبادلنا النظرات وأطلقنا صيحة فرح. انضممنا إلى الأطفال الذين كانوا يتجمعون، حتى نقرر ماذا سنفعل.

قال كاليميرو: "إذا جات الحرب، خاصنا ندافعو على الإقامة".

وقال دونكيشو: "نحطو شكايرنا ونهبطوا السلاح".

اتفق الجميع على هذا القرار. أخذنا نجري إلى بيوتنا والفرحة ستطيّرنا. وضعت محفظتي المكتظة بالواجبات المدرسية المنجزة عن آخرها تحت المكتب جنب الكرسي. أخرجت مسدسي الفضائي ورشاشاً من نوع كلاشنيكوف، علقته وراء ظهري بحزام جلدي. ثم أخذت السيف الذي أحضره لي أبي من العراق. كان جميلاً جداً ويشبه سيفاً حقيقياً، لكن منظر انكساره يؤلم القلب. قررت أن ألصقه بالسكوتش، فأدرت حوله الشريط اللاصق عشرات المرات حتى صار متماسكاً، عندئذ أصبح من المستحيل إدخاله في غمده الضيق.

خرجت ومعي كل تلك الأسلحة. وجدت الجميع مدججين بالأسلحة أيضاً. أحضر كاليميرو رايات مغربية صغيرة ولم تكن لديه أي رايات عراقية، فاكتفينا بالذي عندنا. كنا فرحين بصدّام، فصرنا نهتف له مثل الجميع: "بالروح بالدم، نفديك يا صدّام". أطل علينا الجيران من النوافذ، وابتسموا لمنظرنا نرفع أسلحتنا عالياً في الهواء ونعد أنفسنا لحماية الحي. ضحكوا لنا وشجعونا. لم أفهم الشعار الذي كنا نهتفه، فصدّام هو من يجب أن يفدينا بروحه ودمه، إن كان قوياً فعلاً. لكنني هتفت باسمه مثل الآخرين.

فكرنا في إستراتيجية عسكرية لتأمين إقامتنا. قال دونكيشو إننا في مواجهة المحيط الأطلسي، الخط الأول في حال غزو أميركي عبر البحر. لذلك، أول

خطوة نفعلها كل يوم هي دوريات مراقبة. من عادتنا مراقبة البحر الذي يمتد على مرمى البصر، ننجح في رؤية المراكب البعيدة جداً. لم يكن بوسع الأسطول الأميركي أن يبحر في اتجاهنا دون أن نلمحه في الأفق وننشر الخبر.

كان احتمال ظهور مئات البواخر الحربية ذات صباح معقولاً جداً لنا، فقد أخبرنا دونكيشو أن الجنود الأميركيين جاؤوا مباشرة عبر البحر ونزلوا في المغرب خلال الحرب العالمية الثانية، قبل أن يشقوا طريقهم نحو أوروبا لتحرير فرنسا والقضاء على هتلر. من المرجح جداً أن "الميريكان" سيغزون المغرب، ثم الجزائر ثم تونس ثم ليبيا ثم مصر قبل الوصول إلى العراق. يجب أن نؤخر تقدمهم بكل الوسائل، حتى نعطي الوقت لصدّام لتحرير فلسطين.

شعرت بالحماسة وأنا أخرج سيفي. أخبرت الجميع أنه سيف صدّام الذي لا يُقهر. أرادوا تجريبه كلهم. ثم واجهوني بسيوفهم الرومية الصغيرة. نازلتهم الواحد بعد الآخر، حتى تطايرت قطعة منه في السماء وسقطت على الأرض. أوجعني ذلك للحظات، ثم قررت أن أقاتل بالنصف المتبقي، لكنه أصبح أقصر من سيوفهم فلم يعد ذلك ممتعاً على الإطلاق. تساءل الجميع لماذا هو مكسور، فأخبرتهم أن رجال الجمارك العراقيين منعوا أبي من الصعود به إلى الطائرة لأنه سيُخيف الركاب، لذلك دسّه في الحقيبة فتكسر داخلها. نصحني دونكيشو بأن أستعمل الكولاسبيسيال، وأضاف كاليميرو ضاحكاً أن أصابعه التصقت بسببها ذات يوم، فأخذوه إلى الطبيب ليفرّقها.

سألت أبي عن الكولاسبيسيال وقت الغذاء، فأخبرني أنها موجودة عندنا وأنها خطيرة على الأطفال لأنها قوية جداً وتلصق بسرعة خاطفة. أحضرت إليه السيف، فعلمني كيف أحك أطرافه بالقاعيط الأحرش حتى تلتصق بفعالية. ثبتنا القطعتين وقطّر بضع قطرات من المحلول الأبيض بدقة شديدة. رائحته قوية تهيّج العينين. تماسك السيف في لحظات، ثم حككت نتوءات اللصاق المتجمد على أطراف الكسر. صار من الممكن أن يرجع إلى غمده ويخرج كسيف حقيقي. أشهرته في الصالون معلناً أنني سأقاتل مع صدّام لتوحيد الأمة العربية.

نزلت مجدداً ومعنوياتي مرتفعة، لكن معظم الأطفال كانوا بلا أسلحة ومصممين على لعب الكرة، فوضعت السيف في مكان آمن وانقسمنا فريقين ثم بدأنا نركض ونركل الكرة في كل الاتجاهات. كان وليد في الفريق الآخر يتولى حراسة المرمى، بينما أهاجم في كل مرة مسدداً الكرة بكل قوتي فيتصدى لها ببراعة. بدا للحظات كأنه يدرّب نفسه على تحمل الألم متصدياً لكل أنواع الضربات.

ظللت ألقي نظرة على مكان السيف بعد كل هجمة حتى اختفى فجأة. توقفت المباراة حتى نعثر عليه. بحثنا في كل الجنبات دون أن نجد له أثراً، وعاين وليد أفراد فريقه وأشار إلى واحد منهم بيده قائلاً: "عطيوه السيف ديالو".

ضحكوا جميعاً ضحكات متواطئة، ثم أعاد إلي أحدهم سيفي قائلاً: "مرة أخرى رد بالك...".

صعدت إلى المنزل لوضع السيف. تناولت وجبة المساء وشاهدت الرسوم المتحركة، ثم نزلت من جديد أحمل معي مسدسي الفضائي، كان يشعل ضوءاً أحمر ويطلق أصواتاً إلكترونية رائعة. كان لوليد مسدس بكاتم صوت يجعله يبدو كقاتل محترف. لم يبق معنا طويلاً، بل صعد إلى منزله بمجرد نزول الليل، دون حتى أن يناديه أحد أبويه. أما نحن، فبقينا نلعب إلى أن تكاثر عددنا وشعرنا بأنفسنا أكثر قوة، فأجرينا جولة استكشافية خارج حومتنا. لم تدم جولتنا طويلاً قبل أن نمر جنب أولاد الحومة الخامسة دون أن ينتبهوا إلينا. كانوا مجموعة صغيرة يتحدثون فيما بينهم، فصوبت مسدسي الفضائي بدقة وصعقتهم حتى اهتزوا من شدة الهلع. ثم هربنا ونحن نقهقه ملء صدورنا.

كان أولاد الحومة الخامسة الأقوى في كل الإقامة. عددهم هائل ومن بينهم أطفال كبار كثيرون. لم يكونوا حومة واحدة بل مجموعة حومات صغيرة تكتلت فيما بينها، فصاروا حلفاً واسعاً للسيطرة على الإقامة. الكنز لعبتهم المفضلة، تقوم على تحمل كل أنواع التعذيب لكتمان السر.

حاولنا في الأيام التالية أن نجمع معلومات عن الحرب. لم نفهم من كان صدّام يحارب بالضبط، الكويت أم أميركا أم السعودية أم ماذا... وما دخل

المغرب في كل ذلك؟ قال دونكيشو إننا دولة عربية وإسلامية، وإن أميركا تصوّب صاروخاً نووياً على كل دولة عربية وإسلامية، ستطلقه عليها بمجرد محاولتها مساعدة صدّام. بدت لنا فرصة القتال بشجاعة ضئيلة إذا ما نسفتنا أميركا. تلك القنبلة، قال دونكيشو، لا تنجو منها سوى الصراصير.

وقال ولد آخر: "صدّام ضرب السعودية بصاروخ، وإسرائيل بصاروخ".

وقال آخر: "إذا استعمر السعودية، غيربح فلوس البترول".

وقال آخر: "ومن بعد يحرر فلسطين".

أنصت وليد إلى الجميع قبل أن يقول إن المغرب أرسل ثلاثين ألف جندي. رقم مهول. ثم أخبرنا أن الملك قال في التلفزيون إنه لا يجوز للمسلم أن يقاتل أخاه المسلم. لهذا جنودنا ذاهبون لحماية الأراضي المقدسة وليس لمحاربة العراقيين. لم نفهم بالضبط ما هي الأراضي المقدسة، فقال لنا دونكيشو إنها الحج. ثم أضاف وليد أن الملك قال في خطبته إننا لن نأخذ الفلوس من أحد لأن هذا واجبنا، سيعجن كل جندي خبزته بنفسه. فسحرتنا فكرة الجنود وهم يعجنون الخبز المغربي في خضم المعركة.

تساءل كاليميرو من سيربح لو واجه الجيشان المغربي والعراقي بعضهما بعضاً. وقال ولد آخر إنه من الأجدى أن يتحدا للهجوم على السعودية والاستحواذ على مليارات الحج والبترول. ضحك الجميع ضحكات شريرة، بينما كنت أفكر أن وليد صار يعرف الأمور أكثر منا، لأنه لم يخرج من البيت خلال العطلة، لهذا شاهد الخطبة في التلفزيون فيما كنا نتقافز كالأغبياء.

تواصلت الأخبار في المقاهي والحمامات وصالونات الحلاقة. الكل يحكي عن صدّام، الزعيم العربي الذي قال "لا لا لا" لأميركا، قبل أن يضرب إسرائيل في عقر دارها. أصبح الجميع يعرف أسماء صواريخ "السكود" و"الحسين" و"الباتريوت"، كما صرت أتابع الأخبار في التلفزيون وأسأل أبي أن يشرح لي ماذا يجري. تداول الناس خبر إسقاط صدّام سبعين طائرة أميركية وإنكليزية منذ الأيام الأولى للحرب، وكان ذلك مصدراً لفرحة كبرى. الناس سعيدون في كل مكان، ومؤمنون أن صدّام على وشك تحقيق نصر عظيم، إنه صلاح الدين

الأيوبي قد عاد إلينا من جديد. كل ما علينا أن نفعله لمساعدته هو ألّا نذهب إلى العمل أو المدرسة.

ذات مساء دهمني الملل؛ لم يكن هناك أولاد ألعب معهم سوى كاليميرو. عندئذ، ذهبت لأسأل عن وليد. أخبرني أبوه في الانترفون أنه يدعوني للصعود. فرحت بالدعوة. فتح لي الأب وأدخلني البيت، دق مرتين على بابه قبل أن يفتح.

رأيت وليد يجلس في مكتبه كمدير صغير. كانت الغرفة مظلمة لأن الليل في بدايته. هناك أبجورة على الطاولة تضيء رقعة الشطرنج وهو ينظر إليها بإمعان. أعرف أنه يلعب الشطرنج مع الكمبيوتر الذي اشتراه أبوه، لكنني لم أتخيل أنه يلعب الشطرنج وحده. لا بد أن أسبوعاً من العزلة جعله يطوّر مهاراته، ولم أعرف هل الوقت مناسب لأسأله عما قاله في المدرسة أو لماذا لم يخرج طوال العطلة الشتوية. كان يبدو سعيداً الآن ولم أكن أريد أن أنغّص عليه بما ينتظره بعد نهاية الحرب، فربما قلب صدّام الموازين وأصبح العالم مختلفاً بلا مدرسة وبلا عقوبات مدرسية.

أطفأ وليد الأبجورة وأشعل ضوء الغرفة. أخرج مجلداً كبيراً من المكتبة، ثم وضعه فوق الفراش. سألته: "شنو هاذ الكتاب؟".

أجابني وهو يفتحه كصندوق مليء بالمعادن النفيسة: "هذي موسوعة علمية للأطفال".

أخذ يقلب صفحاتها المليئة بالرسومات.أخبرني أنه قضى أجمل أسبوع في حياته وهو يتعلم منها. لم تدهمه رغبة الخروج طوال ذلك الوقت ونسي العالم الخارجي حتى انتهى من قراءتها. صدمني الخبر، أنا الذي كنت أحمل همّ شعوره بالذنب خلال عقوبته المفترضة. هاجمتني رغبة الحصول على الموسوعة، وفهم ذلك، قال لي إن بإمكاني الاحتفاظ بها حتى تنتهي العطلة، شرط ألا يعرف القردة الآخرون بالأمر. قبلت الشرط ثم سألته بجدية: "صدّام غيربح؟".

سخر مني: "شنو غيربح؟ الحرب العالمية الثالثة؟".

أخذ يضحك فبدا لي أنه يخفي عني الجواب، طرحت عليه سؤالاً آخر: "حنا مع العراق ولى ضده؟".

فأجابني: "حنا مع ميريكان، أقوى دولة فالعالم".

وبدا لي ذلك متناقضاً مع فكرة ألا يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً، فضحك علي من جديد: "أنت تصدق تلك الحجايات. لا تصدّق أي شيء".

ثم أضاف بلامبالاة أن العرب زبون جيد، وأن أميركا هندست كل ذلك لتتخلص من أسلحتها بعد أن تلاشى عدوها السوفياتي. فقدت الرغبة في سؤاله عما قاله في المدرسة. وقررت أن أرحل مخفياً الغنيمة الكبرى تحت ملابسي، توجهت مباشرة إلى المنزل وسيف صدّام يتأرجح جهة خصري.

في غرفتي، انكببت على الموسوعة. لم أنزل للعب في الليل رغم أنني سمعت أصوات الأولاد يمرحون في الأسفل، وعندما سألوني في الانترفون هل سأنزل، قلت لهم إنني مشغول. واصلت تصفح الموسوعة بولع ابتدأ منذ صفحاتها الأولى التي كانت تفسر العالم، ككواكب المجموعة الشمسية وتاريخ الاختراعات كالطابعة والراديو والمصباح، والثورة الصناعية واكتشاف أميركا... تلك المعلومات شهية ولذيذة لا مجال لمقارنتها بحصة النشاط العلمي في المدرسة. لقد قرأها وليد، ودخلت كلها إلى رأسه، فقررت أن أفعل مثله. كانت الرسومات مذهلة وقراءتها يسيرة للأطفال، فأصبحت أعرف تفاصيل حياة المخترعين والمكتشفين كليوناردو دافينشي ونيوتن وكريستوف كولومبس وداروين وأديسون وماركوني. كلهم أوروبيون أو أميركيون، لم يكن هناك عربي واحد، بمن في ذلك العراقيون الشباب الذين سيساهمون في مسح إسرائيل من الخريطة. حاولت التفكير لماذا ليس لدينا مخترعون أيضاً، فكان الجميع يردون ضاحكين: "كاين عباس بن فرناس، اللي طار فالسما وتساس".

تعلمت في أسبوع واحد أشياء ممتعة ومفيدة لم أتعلمها طوال سنوات من ذهابي إلى المدرسة. فهمت أن العلماء هم الأبطال الحقيقيون لأنهم لا يموتون أبداً ويستفيد من اختراعاتهم الجميع. يقاومون المصاعب ويتجاوزون العقبات ويفشلون مرات عدة لكنهم في النهاية ينتصرون، ولم يكن أحد منا يعرف ماذا اخترع العرب بالضبط وماذا أضافوا على العالم. أخبرونا في المدرسة أنهم

اخترعوا الصفر، وبدا لنا اختراعاً عجيباً؛ حرنا كيف كان الناس يعدّون أشياءهم دون هذا الرقم الذي ليس حتى رقماً. تقول المعلمات بنشوة إننا اخترعنا الصفر وبقينا عالقين فيه، فنضحك إلى أن تأمرننا بالسكوت. وأصبحت أفكر في أن أصبح مخترعاً، لأن ذلك أجدى من الحرب إلى جانب صدّام، وصرت أخمن في ما يمكن أن أخترعه، وحرت في أمري.

وأخذت أيام العطلة تتناقص، قبل أن تصل أخيراً نهايتها. لم تكن هناك واجبات مدرسية تلاحقني هذه المرة. كانت المحفظة لا تزال في مكانها، جنب الكرسي تحت الطاولة. وتمنيت لو أن الحياة كلها عطلة، أو أن تستمر حرب صدّام حتى نكبر ونشارك فيها.

خرجت للعب للمرة الأخيرة، وشارك الجميع بحماسة مساء ذلك الأحد، بمن فيهم البنات. لعبنا "كاش كاش" وظللنا نجري ونختبئ حتى تحولت كل أركان الحومة إلى مخابئ لم نفكر فيها من قبل. كان ذلك تدريباً جيداً في حال هجم علينا الأمريكان؛ سنختبئ لهم في الشجر والحفر مثل الفيتناميين في الأفلام. انتشر الظلام تدريجياً، وبدأنا نشعر بنهاية العالم، ونستمتع مع ذلك باللحظات الأخيرة للعطلة.

شعرنا بالعطش، لكننا كنا نعرف أننا إن ذهبنا للشرب في بيوتنا، لن يتركنا آباؤنا نخرج من جديد. فقررنا المقاومة مهما كان الثمن. وبعد حين استسلم كاليميرو لأنه خاف أن يموت، وشعرنا مع ذهابه أننا بدأنا بالتناقص، وأن آخر لحظات العطلة ستنفلت من بين أصابعنا إلى الأبد.

وفجأة أطلت أخت أحد أصدقائنا من النافذة، وأخبرتنا أن الإضرابات ستستمر ولن تفتح المدارس أبوابها خلال الأسبوع المقبل. لم نتمالك أنفسنا من الفرحة، وصرنا نطلب من آبائنا في انترفون العمارة أن يؤكدوا لنا الخبر، فتأكدنا من صحته، وكان ذلك يعني شيئاً واحداً: المزيد من اللعب في تلك الليلة الرائعة.

# 8

## الكنز

ابتدأ الأسبوع الثالث من العطلة بصورة مختلفة. بينما كنا نتجول في الإقامة، عثرنا على مجموعة من أولاد متجمهرين في حلقة كبيرة. لم يأبهوا لنا أول الأمر، فانضممنا إليهم لنرى ما يصنعون. كانوا يحاصرون قطة من جميع الجهات، مصممين على إعدامها بعد أن أنهكوها. وشوش أحدهم في أذني أن للقطط سبعة أرواح وقال آخر إنهم قتلوها إلى الآن ثلاث مرات، وفي كل مرة تنبعث فيها روح جديدة. كنت بحاجة إلى متابعة التجربة لأصدّق. رفع أحدهم ياجورة في السماء وهوى عليها بقوة.

لم تمت القطة، رغم خروج الدم من رأسها. قال أحدهم: "بسم الله الرحمن الرحيم، إنها مسكونة". توالت عليها الضربات ونحن نتابع المشهد بمزيج من الصدمة والفضول. ثم خارت قواها أخيراً، بعد أن لم يتبقَّ لها سوى روح واحدة. تململت قليلاً، فظهر من بينهم الروبيو، أخو كاميليا، وهوى عليها بقطعة حجر، مخمداً جثتها نهائياً.

بعد ذلك، بدؤوا يتنبهون إلى وجودنا. أمسكني أحد الأولاد الثلاثة الذين صعقتهم بمسدسي الفضائي. تجمع حولنا الأولاد الأشرار ولم يكن في وسع أصدقائي أن يساعدوني. استل أحدهم سيفي بمهارة وهو يضحك.

– شديناك دابا...

ضحك الثاني وهو يستلم منه السيف.

– عطيني، نوريه العياقة كي دايرة...

تحسسه كأنه تحفة فنية. كنت خائفاً أن يسرقه مني، لكن فكرة أخرى كانت تدور في رأسه.

– هذا هو سيف صدّام؟

جرب أن يكسره بكلتاً يديه، فقاوم السيف ما في وسعه بفضل الكولاسبيسيال. لكنه تكسر في مكان آخر.

قهقهوا ببشاعة قبل أن يلقوه على الأرض ويرحلوا.

– أودي يا سيف صدّام، بكري حاربنا الميركان...

ظللت متجمداً في مكاني وأنا أراه مكسوراً غير بعيد عن جثة القطة. لم أتصور أنني سألصقه مرة أخرى، ولم أقدر حتى أن أنحني لألتقطه من الأرض. أخذه وليد، وقال لي ألا أحزن. كانت تلك لحظة تعيسة جداً، لدرجة أنني نسيت أننا في عطلة، وفكرت أن كل ذلك ما كان ليحدث لو كنا في المدرسة في هذا الوقت، ولو لم يشن صدّام حربه اللعينة.

ذهبت مع وليد إلى منزله وأخرج سفوداً حمّاه بالنار. ثقب السيف أربع مرات، ثم أدخل سلكاً معدنياً في كل ثقبين وعقده بإحكام. وضع السيف على مقربة من النار لتلتصق القطعتان. انبعثت رائحة خانقة وتراقص خيط من الدخان الأسود قبل أن يمرره تحت الماء. كان يعمل بمهارة وهو يرتدي نظارتين كعبقري في مختبر كيمياء. تماسك السيف من جديد لكنه أصبح بشعاً للغاية، بنتوءات وبقع سوداء. اقترحت عليه أن يبقى عنده لبعض الوقت حتى لا يكتشفه أبي ويسألني كيف وصل به الأمر إلى هذه الحال.

عدت إلى البيت وانكببت على الموسوعة بكل جوارحي. أصبحت أتذكر تفاصيل الاختراعات المهمة وأسباب الظواهر الطبيعية كالزلازل وتكوّن القارات. قرأت عن رجال الدين وحربهم ضد العلماء لأنهم يخرجون الناس من الظلمات إلى النور. وكيف بدت لهم كروية الأرض فكرة مجنونة ودورانها حول الشمس وحول نفسها فكرة أكثر جنونا، فعاقبوا صاحبها دون النظر إلى الأدلة والبراهين التي يقدمها. ولم أعد أخرج تقريباً، وكلما خرجت، كانت تقع أحداث استثنائية.

في المرة الأولى، أعلنا الحرب على الحومة الثانية بعد أن استولوا على بطاقات كاليميرو التي تحمل صور لاعبي كأس العالم. ألقوها في الهواء وتخاطفوا عليها. هجمنا على أول ولد يخرج منهم، وأرسلناه بخبر الحرب. هيأنا أسلحتنا، وتوزعنا في مداخل الحومة. بقينا ننتظر حتى جاؤوا من المدخل

الرئيسي. خاب أملنا لأن عددهم كان قليلاً فطردناهم بسهولة. ثم جاء عدد كبير من المدخل الخلفي الذي تركناه بلا حراسة. ظلوا يلقون الحجارة ونحن نتجنبها بمهارة. أصبح الأمر خطيراً عندما نجحوا في الدخول إلى عقر حومتنا. تعاركنا بركلات التيكواندو، ثم أقفلنا المدخل وعلق بعضهم فأشبعناهم ضرباً وهم يحاولون الإفلات. طردناهم فتشتتوا ولم تعد لهم رغبة في غزونا. واكتفوا بالمرابطة على حدود حومتهم، أما نحن، فرأينا ذلك نصراً بحد ذاته.

في المرة الثانية، أرسلوا إلينا دعوة للتحالف معهم ضد الحومة الخامسة، لم نكن نعرف سبب الحرب لكن الفكرة أعجبتنا. جاء أولاد الحومة الخامسة بأعداد هائلة مدججين بمقالع لقذف الحجارة، ولم يتوقفوا عن التكاثر. لم تنجح خطتنا مع الحومة الثانية في مقاومتهم، فأخذوا يهاجموننا من كل المداخل، وكانت الحجارة تأتي إلينا من مسافات بعيدة جداً، فلا نراها إلا وهي تنزل من السماء بسرعة قصوى. كادت إحداها أن تصيبني، وأصيب ثلاثة منا بجروح. فقررنا الخروج من حومتنا والهرب إلى مكان آمن، لكنهم لاحقونا فتفرقنا في كل أنحاء الإقامة، قبل أن نجتمع من جديد في حومتنا. وقد جاؤوا مرة أخرى لمهاجمتنا فلم أجد بدّاً من الانسحاب وسط لغط المعركة، وهربت إلى المنزل دون أن ينتبه إلي أحد. رآني وليد وغض النظر. لم تعد تهمني الحروب، بل كنت أفكر في الموسوعة التي تنتظرني في البيت.

عندما خرجت للمرة الثالثة، أبرمت الحومات صلحاً شاملاً، فقرر الجميع أن نلعب الكنز مع نزول الليل. تركنا كاليميرو يشارك معنا رغم أنها لم تكن لعبة للصغار. تعرف حومة واحدة مخبأ الكنز. نعطي مهلة لأعضائها كي يهربوا ثم نبحث عنهم ونعذبهم حتى يعترفوا. ذهب دونكيشو ليمثل حومتنا في القرعة. سحب العود الأقصر. فرحنا أول الأمر، إلى اللحظة التي نظرت فيها إلى وليد ممعناً في التفكير. عاد دونكيشو بالعلبة المعدنية كأنها كنز حقيقي.

قال كاليميرو: "ماذا يوجد فيها؟ فلنتقاسمه ونهرب".

نظر إليه وليد زاجراً: "الكنز لا قيمة له".

وأضاف دونكيشو بنبرة الأخ الأكبر: "الكنز هو أن تغلق فمك".

بدأ الآخرون بالعد: "واحد، جوج، ثلاثة...".

شعرنا بالقلق ونحن نتساءل أين سنخبئه. "عشرة، حضاش، طناش..."، لم يعد ثمة وقت للتفكير، يجب أن نهرب، لأنهم سيصلون المئة، وعندئذ سيبدؤون تعقب آثارنا.

قال وليد: "أعطوني الكنز، لن يعثروا عليه أبداً".

مد إليه دونكيشو العلبة المعدنية في خضم الارتباك، متخلصاً من المسؤولية. بدأنا نجري بكل قوتنا، وتفرقنا شيئاً شيئاً، حتى أصبح لهاثنا لهاث ولد واحد هو أنا. ركضت في الظلام إلى أبعد نقطة من الإقامة. كل هدفي أن يتأخروا في القبض علي، ويعذبوا الآخرين حتى يعترف أحدهم وتنتهي اللعبة. ابتعدت عن قلب الأحداث حتى شعرت بالملل. بدا الوقت طويلاً بعيداً عن المغامرة. تمنيت أن أصادف مجموعة تلاحقني فأفلت منها بطريقة بطولية. لذلك اقتربت من المركز. لمحت أولاداً يمسكون دونكيشو، فاختبأت وراء سيارة ورأيتهم يضربونه على قفاه وهم يجرونه إلى معقلهم في الحومة الخامسة. اختفوا تدريجياً فلم أعد أرى سوى ظلالهم وأسمع أصوات خطواتهم العنيفة، وظللت أتحرك بحذر وأنا أسمع صرخات أولاد آخرين ترتفع كالنباح كلما عثروا على أحدنا وأمسكوه. تنقلت من مكان إلى مكان حتى التقيت وليد خارجاً من الظلام، قلت له: "لقد قبضوا على دونكيشو".

فأجابني: "لا تقلق، إنه لا يعرف شيئاً".

وسألته: "فين خبيتيه؟".

فأجابني: "لن نربح إن أخبرتك".

وذكرني بهربي من المعركة الأخيرة. فقلت له محتجاً إن هذه ليست قوانين اللعبة. لكنه أجابني بكل برودة: "لن أفشي السر، يجب أن نفترق".

تفرقنا. قبضوا علي. أخذوني إلى قلب الحومة الخامسة. وجدتهم أمسكوا بكل أولاد حومتنا، كانوا جميعاً راكعين فوق العشب، وكاليميرو يبكي. لم يعذبوني لأن الجميع أخبروهم: الكنز مع وليد. كانوا منزعجين، لأنهم في كل مرة يسمعون الجواب نفسه. وتركوا بعضهم لحراستنا، وانتشروا في كل الحومات بحثاً عنه.

قال أحد الحراس: "تركتم الكنز معه، لأنكم ماشي رجال".

وقال آخر: "سنمسكه ونُدكدك عظامه حتى يعترف".

نظرت إلى الحومة الخامسة، كانت خاوية وهادئة. فكرت أن اللعبة قد انتهت، فالإمساك بوليد ليس سوى مسألة وقت. تساءلت لماذا فعل ذلك؟ هل يعتبرنا جبناء؟ ماذا سيجني إذا عذبوه وحده؟ الجميع يعترفون في النهاية. هل يضحي بنفسه من أجل العصابة وهو لا يحب أعضاءها؟

بعد حين بدأنا نسمع أصواتهم عائدين: "ها هو... هاهو...".

ثم ظهروا، كانوا جمعاً غفيراً، يجرجرونه فرحين بعصابة حول عينيه، بينما هو متماسك، يصفعونه في قفاه ويركلونه ويدفعونه في كل الاتجاهات. لم تكن تلك سوى البداية، لأن ما سيأتي أسوأ.

بدأ الاستنطاق.

– فين الكنز؟

ربطوه بعمود نور، وأحضروا مضرباً وأخذوا يسددون كرة تنس في اتجاهه. واحداً بعد الآخر، سدد كل واحد الكرة بكل قوته. بعضهم أخطأه لكن معظمها أصابته بقوة شديدة. تلقى ضربات في كل مكان من جسمه. صوّبوا في اتجاه قدميه وذراعيه وصدره، ثم سددوا نحو رأسه وحجره، وكان يصمد في كل مرة.

فكوا وثاقه وجرجروه إلى الحديقة، ثم بدأ كل واحد يجمعه بنص، فيطير في الهواء بالعرض البطيء، ويسقط على العشب، مصدراً صرخة بكماء. تعاقبوا عليه حتى أخذوا يلهثون.

تدخل الروبيو بعد أن أصبح زعيماً لكل الحومات: "يالله يا وليد. مشى الوقت، يجب أن ننهي اللعبة".

وتصايح الأولاد الآخرون مستعطفين، عندما رأوا أن الضرب لا يجدي معه: "أخبرنا، أخبرنا...".

رفع رأسه مبتسماً والنصر يلمع في عينيه. ثم ضحك متغلباً على آلامه: "ربحنا؟".

استسلم له الجميع. عندئذ أخبرهم عن مكانه. إنه مخبأ في المدرسة المهجورة. شهقوا مدهوشين ونحن معهم. سأله الروبيو مشككاً: "فين

بالضبط؟“.

– في الطابق الأخير.

كان ذلك أمراً لا يتصوره العقل. المدرسة من أربعة طوابق، وهي قلعة مستحيلة. حالكة بالليل، مليئة بالفئران، سلالمها من الآجور مفتوحة على الفراغ، والأنابيب تنفجر من جدرانها كأمعاء بلاستيكية. مجرد الصعود إلى الطابق الأول نهاراً يعد إنجازاً بطولياً. كيف خطرت له تلك الفكرة الجهنمية، ومن أين واتته الشجاعة لتنفيذها، وكيف عاد منها سالماً؟ كل تلك الأسئلة كانت تتلاطم في رؤوسنا ولم يصدق أحدنا أن ذلك ممكن.

ركضنا جميعاً إلى القلعة. أوقفونا أمامها في صف واحد. وعدونا أن عقابنا سيكون عسيراً إن كذب علينا. ثم أحضروا مصابيح يدوية ودخلوا بوليد، فيما بقي عدد قليل لإعطاء الإشارة في حال تنبه إليهم العساس. صعدوا فوق أكتاف بعضهم بعضاً لقفز السور، وتعلق بعضهم الآخر حتى دخلوا من منفذ في الطابق الأول. اختفوا جميعاً وأصبح العالم صامتاً. وبدأنا نرى أضواءهم تتصاعد من طابق لطابق حتى وصلوا المحطة الأخيرة.

عندما بدؤوا بالنزول اشتعل الضوء في منزل العساس، وبدأ كلبه النباح، وصفّر الأولاد الذين بقوا لحراستنا تصفيرات طويلة لإعلامهم. فأخذنا نسمع خطواتهم العنيفة وهم ينزلون راكضين، وسمعنا صيحاتهم التي لم نعرف هل هي صرخات رعب أم قهقهات. ثم أخذوا يخرجون من كل المنافذ الممكنة. وفتح العساس البوابة وكلبه ينبح برعب. لم يكن قادراً على فهم ما يجري، ولم ينجح في إمساكهم. لكنه رآنا وأخذ يركض اتجاهنا، فتركنا حراسنا وركضنا هاربين منه ونباح الكلب يلاحقنا، حتى أفلتنا منهما، لكن الأولاد أمسكونا من جديد وأخذونا إلى الحومة الخامسة.

عاد الجميع ومعهم وليد. كان الروبيو يمسك الكنز بيده وأشهره للجميع، وأخذوا يتصايحون. منذ تلك اللحظة، كسب وليد احترام الأولاد الأشرار. كان المنتصر الوحيد في تلك الليلة. واعترفوا أنه رجل.

لم أخرج من البيت بعد هذه المغامرة، وشعرت بخوف غامض ألا تنتهي الحرب وألا نعود إلى المدرسة أبداً.

جاء يوم الأحد وقد أنهكتنا العطلة كلياً، وتتبعنا التلفزيون حتى أعلنت نشرة الأخبار توقف الإضراب. ظللنا متوجسين صباح الإثنين في انتظار الحافلة. كان الجميع قد نالوا كفايتهم من صدّام وحربه. وجاءت الحافلة المدرسية مليئة بالتلاميذ. انطلقت بنا وأخذت أراقب المشاهد تتلاحق عبر النافذة، فكان كل تفصيل في الطريق يطمئنني أن الحرب انتهت، وأن حياتنا ستستأنف مجراها.

في المدرسة، عاملتنا المعلمات بمودة لم نعتدها، قبل أن نخرج إلى استراحة الساعة العاشرة وأكتشف أن وليد غير موجود، لأن المديرة لم تنسَ فعلته، وهو ممنوع من حضور الدروس إلى حين انعقاد المجلس التأديبي. هكذا، نجح في الحصول على أسبوع رابع من العطلة، لا بد أنه سيستثمره في القراءة ولعب الشطرنج ومتابعة أخبار العالم.

# 9

## المحاكمة

جاء يوم الجمعة. وفي الرابعة زوالاً، بينما كنا في الاستراحة، رأينا وليد قادماً مع أبيه الذي ارتدى بدلة زرقاء غامقة ونظارات شمسية ومشط شعره إلى الوراء. جاء آباء كثيرون من بينهم أمي أيضاً. انضمت إليهم المعلمات وموظفو الإدارة، أقفلوا عليهم الباب وأدخلونا إلى الأقسام. تفرقت عاملات النظافة والسائقون لحراستنا، منعونا من الكلام طوال الجلسة.

جلس جنبي ولد يشعرني بالاشمئزاز لأنه كسلان ورائحته كريهة. لم يكن لدينا وسيلة لقتل الوقت، فأخذنا دفتراً ورسمنا عليه مربعات، ثم اقتطعنا وريقات صغيرة واستعملناها لنلعب الداما. لم تكن اللعبة تحتاج إلى ذكاء خارق، فقواعدها بسيطة، وليست كالشطرنج الذي يتطلب أن تحزر إستراتيجيات العدو. لعبنا بصمت عدداً لا حصر له من الجولات. دون أن نفكر تقريباً، أكل كلانا بيادق الآخر. الأولاد الآخرون منهمكون في ألعاب أخرى بصمت أيضاً، والبنات يكتبن الرسائل السرية، ويستأذنن مي عيشة لتمرير الوريقات. إنهن لا يتوقفن عن الضحك، بلا سبب، متظاهرات بأن ما تحتويه ذو أهمية.

في الخامسة والنصف، انتشر الظلام. أخرجونا بهدوء لركوب الحافلات، ولم تكن الجلسة قد انتهت بعد. الجميع في حيرة من أمرهم. انفتح باب الإدارة أخيراً ورأينا وليد يخرج رفقة أبيه ويتوجهان نحو بوابة المدرسة. لم يخرج الآباء الآخرون، كأن الاجتماع ما زال مستمراً. نزع أبو وليد بدلته فظهر أنه يلبس تحتها تيشيرت بألوان مزركشة رغم أننا في عز الشتاء. اشترى قطعتين من حلوى "جبان كولوبان" وواصلا مشيهما مستمتعين بقضمهما.

خرجت المعلمات بعد نصف ساعة وأرجعونا إلى الأقسام، لأن لديهن أوامر مهمة. تواصل التشويق ولم نتمالك أنفسنا من السكوت، فانفجرت وشوشاتنا

دفعة واحدة وتحولت إلى موجة عملاقة فشلت مي عيشة في ردعها. لم نعد نأبه لتهديداتها، لأننا كنا نشرف على عطلة نهاية الأسبوع. وبما أنها كانت أميّة، عينت تلميذة مسمومة لتُسجِّل أسماء المشاغبين وراء السبورة، فسجلت أسماءنا جميعاً. عندما جاءت المعلمة داميّة، وجدت هرجاً عارماً توقف في لحظة واحدة. شكرت مي عيشة وأقفلت الباب، ثم نظرت إلى أسمائنا خلف السبورة.

لم تفوت فرصة عقابنا، رغم أن موعد ذهابنا إلى بيوتنا قد حل منذ وقت طويل، كانت ملامحها متجهمة وهي تدور علينا بسرعة وتعطينا ضربتين لكل واحد. إنها أول عقوبة بعد عطلة صدّام المجيدة. ليست مؤلمة، بل تذكير صغير بما ينتظرنا بعدما عشنا أسابيع بلا قيود.

لما انتهت، وقفت خلف مكتبها وأعلنت ما قرره المجلس التأديبي. قالت إن الأمر كان يقتضي فصله عشرة أيام، لكن ذلك لن يجدي لأنه قضى ما يكفي من الوقت بلا مدرسة. بدلاً من ذلك سيكون عليه حفظ سور طويلة من الذكر الحكيم وسيستظهرها كل أسبوع. وطبعاً منعوه من تكرار ما قاله على مسامعنا، وإلّا سيُطرد فوراً. ومُنِعنا من سؤاله أيضاً، وأخبرتنا بمكرها المعتاد أن كل من سيحاول المعرفة سيتعرض للوشاية من طرف وليد نفسه، وسيتعرض لعقوبة "التحمّال" أمام كل المدرسة. وقدم الآباء تزكيتهم لهذه العقوبة مسبقاً. ثم اختتمت بقولها إن المدرسة عازمة على إعطاء العبرة والمثال لأن ما فعله لا يغتفر.

في ذلك المساء، شعرت برهبة ما ينتظره. ما الذي فعله؟ ظل السؤال يبلبلني بينما ينزل الأولاد والبنات من الحافلة تاركين أماكنهم فارغة. وعندما نزل الجميع، لم يبقَ سواي وكاميليا، بينما تواصل الحافلة رحلتها الليلية إلى محطتها الأخيرة التي هي إقامتنا.

حكت أمي لأبي ما حدث في المحاكمة، سمعته يقول لها: "البرهوش داروينى" وهو يضحك بصوت عالٍ. فقالت له إن أبا وليد يعبث بعقل الصغير وإنه سيواجه عقوبات قاسية بسببه. وحذرته من ملء رأسي، أنا الآخر،

بالخزعبلات. قالت له يجب ألا يكلمني في مواضيع الكبار. وإلا سأقول ما لا يجب قوله وسأتعرض للعقوبة أيضاً.

وامتثل وليد لكل شروطهم. استظهر كل أسبوع في حصة العبادات بنجاح. ثم أخذت مظاهر جديدة تطبع سلوكه، فأصبح يحمل مصحفًاً صغيراً أينما ذهب. يقرأ فيه وقت الاستراحة وخلال رحلات الحافلة دون أن يزعجه أحد. وقرر التلاميذ من تلقاء أنفسهم أن يقاطعوه، وصاروا ينعتونني بزيكو الخائن لأنني أصادقه خفية عنهم. كانوا يتشوقون أثناء استظهاره أن يخطأ كي يتطوعوا ليمسكوه بينما تهوي عليه المعلمة بضرباتها، لكن ذلك لم يتحقق لهم أبداً.

مرت الأسابيع والشهور، وانتفخ بطن أمي أكثر فأكثر، ورأيت الصورة الإيكوغرافية التي تؤكد أننا ننتظر بنتاً لا ولداً. كنت أفضل أن يكون لي أخ صغير أعلمه فنون القتال. أخبرني أبي أن احتمال الولد ما زال وارداً، لأن الأطباء يخطئون أحياناً أو أن الصورة الإيكوغرافية لا تكون دقيقة. لذلك ظللت أعلق الأمل أن يكون لي أخ صغير.

وشارف فصل الربيع على نهايته، ولا أدري هل ثمة عقوبة أخرى أُجبر وليد عليها، لأنني رأيته ذات يوم يخرج من مسجد إقامتنا. فوجئت من ذهابه وحده. لم أجرؤ على سؤاله، لأنني لا أعرف هل تلك عقوبة إضافية أو أنه يفعل ذلك من تلقاء نفسه لأنه ندم ويحاول التكفير عن خطئه القديم. كان أولاد المدرسة مقتنعين أنه يمثل دور المسلم الصغير الذي كنا نشاهده يوم الأحد في التلفزيون. أما أنا، فشعرت أن الوقت قد حان لأشرع في ذلك أيضاً، كي لا أدخل جهنم.

ثم جاء درس الصلاة، فساعدنا على التوضؤ الصحيح، واقترحت عليه المعلمة أن يؤمّنا في صلاة الجماعة التي أجريناها في القسم لأنه كان يحفظ أحسن منا. عندئذ فكرت أن فرصتي في تعلم الصلاة قد أتت أخيراً. أفسحنا الطاولات، وكان معظمنا يرتبكون في أداء الحركات الواجبة ولا يتذكرون الآيات التي يجب استظهارها. كنا نحاول ألا نتبادل النظرات حتى لا نضحك. الكل خائفون أن يؤدي انفلات الضحكات إلى مجزرة تقودها داميّة. وليد في

غضون كل ذلك كان خاشعاً ومتأنياً في صلاته، يتلو بصوت رخيم ويقود خلفه جموع التلاميذ المرتبكين.

لم أنجح في الاستفادة من ذلك الدرس، فعزمت على تعلم الصلاة بوسائلي الخاصة. أرغمت أبي أن يأخذني إلى المكتبة يوم السبت. ولمحت كتاب تعليم الصلاة معلقاً في الرفوف. لم يكن ثمنه يتجاوز عشرة دراهم، فدفعه أبي على مضض. وعدنا إلى المنزل مشياً على الأقدام. قلّبت صفحاته بشوق في الطريق، وفوجئت أنه مليء بالكتابة وليست فيه أي رسومات توضيحية! حاولت قراءته في البيت واكتشفت أنه يتحدث عن فوائد الصلاة والأسباب التي جعلتها فرضاً وركناً من أركان الإسلام، دون التطرق إلى كيفية أدائها، فأشعرني ذلك بالإحباط.

تجاوز وليد ما فُرض عليه حفظه حتى بدا كأنه حفظ المصحف كله. ولم تعد المعلمات ينصتن إليه لمعاقبته إن أخطأ، بل صرن يستمتعن بترتيله أيما استمتاع. وكن في كل حصة مخصصة لذلك يدعوننا لجمع أدواتنا وتربيع أيادينا، قبل أن يبدأ الاستظهار، فندخل كلنا في نوع من الجذبة الجماعية.

وتباعدت ذكرى عطلة صدّام المجيدة، الذي يبدو أنه خسر الحرب رغم أنه كتب "الله أكبر" في العلم العراقي، ورغم أن جنوده شربوا من نهر النصر، ومع أن الأمة العربية تضامنت معه ضد أميركا في المقاهي والبيوت والحمامات. بدأنا نسمع كلمات جديدة في التلفزيون كلما تعلق الأمر بالعراق، كالحصار والحظر الدولي والنفط مقابل الغذاء والأسلحة الكيماوية والأكراد. عندذاك انضم الأطفال العراقيون إلى الأطفال الفلسطينيين في مخيلتنا الصغيرة، فأصبحوا أطفال حجارة آخرين.

نظّم وليد حملة لجمع التبرعات لأطفال العراق، ودعمته المديرة، معتبرة ذلك خير دليل على التحوّل العميق الذي مر به، وعلى تدخلها الصائب في الوقت المناسب، ثم ارتفعت نقطه وأصبح الأول في كل المواد. وفي تلك الأثناء، حاول الأولاد الهجوم عليه في السلالم للسطو على حقيبة الفلوس. تنحى وليد بخفة عن الولد البدين الذي كان يحاول دفعه من فوق السلالم. فقد الولد توازنه وأمسك بالذين معه فسقطوا جميعاً وتدحرجوا مع محافظهم إلى

الأسفل. ثم انتفضوا جميعاً هاربين، وتخيّلوا منذ ذلك الحين أن له قوة خارقة يهزم بها العشرات. ولم يصدق الأولاد الآخرون تلك الحكاية وأرادوا أن يتأكدوا بأنفسهم، فوضعوا خطة وهاجموه في الحافلة وسرقوا محفظته.

هذه المرة، أوقفتهم الإدارة جميعاً بفضل تعاون مي عيشة، واحتجزتهم إلى أن استرجع محفظته. ذكرّنا ذلك بما حدث في الماضي، فحدث تطور جديد. كان الأولاد يريدون كسره من الداخل. لكنه كان أقوى مما يتصورون.

خلال رحلة منتصف النهار. انبعثت رائحة غريبة في الحافلة قبل أن ترتسم علامات القرف في وجوه الأطفال بعد أن صاح أحدهم: "خراء". بدأنا نبحث بفضول عمن تغوّط في ملابسه. وأخذ الأولاد الكبار يتحققون من الصغار واحداً بعد الآخر، بشمشمة مؤخراتهم. لم تكن تلك الرائحة تنبعث من مؤخرة أحد. باستثناء وليد الذي لم تترك مي عيشة الأولاد يقتربون منه، لكنها سألته بنفسها، فخفض رأسه قبل أن يبتسم للأولاد ابتسامة غامضة.

عندئذ شعر الجميع بالتقزز وأخذوا يطلعون فوق بعضهم بعضاً للابتعاد عنه. عم الصراخ كل الحافلة، وبدأ الجميع يبتعدون عنه رغم الزحام، فانفرجت المساحة التي يجلس فيها. انزعجت منه مي عيشة قائلة إن الأولاد في عمره لا يتغوطون في ملابسهم، بينما كان الأولاد يتعلقون بالعمود الحديدي، مترنحين في الهواء كقردة.

فعلها ثلاث مرات حتى تحوّل لقبه من الكابتن وليد إلى "وليد الخرّاي". كل مرة تنفجر في الحافلة موجة اشمئزاز. فيبذل الأولاد والبنات ما في وسعهم للابتعاد عنه. وتنهره مي عيشة لكنه يحافظ على طمأنينته المعتادة. يحاول الجميع الاقتراب من النافذة لإخراج رؤوسهم منها. يسأله الأولاد: ماذا أكلت؟ هذه ليست خرية، إنها قنبلة نووية. ويسألونني: هذا صاحبك؟ خليك معه، ما تهربش. يبقى هو في أحد أركان الحافلة مستمتعاً بالفضاء والشمس بينما يهرب الجميع. ويحكمون عليّ بالبقاء جنبه برائحته القذرة.

لم أعد أتحمل تلك العقوبة. تنظر إلينا كاميليا من مقدمة الحافلة بنفور، واضعة منديلاً فوق أنفها. وهو لا يهتم لرد فعلها على الإطلاق. في تلك اللحظات، أحاول الانفصال عنه، وأشعر بالقرف ليس منه فقط، بل من نفسي

أيضاً، مع تلك الرائحة التي تستحوذ على كل الأكسجين، تخرج من مؤخرته لأستنشقها رغماً عن أنفي.

في المرة الأخيرة التي فعلها، فقدت صوابي. شعرت في رغبة جامحة بالصراخ عليه أمام الجميع: أنت قذر، قذر، يخ عليك... لا أفهم كيف يفعل ذلك ولد في سنه. عندما نزلنا من الحافلة أخيراً، لم أستطع أن أكتم غضبي وقرفي، فقلت له: أنت تتغوط كقرد.

ضحك وقال ما الذي يزعجك في ذلك؟ إنه مجرد خراء، الجميع يفعلها... لم أفهم رد فعله، لكنني توقفت عن الكلام معه، حتى يرى الأولاد الآخرون أنني منفصل عنه، وأن بيننا حربٌ باردة.

عندما عدت إلى البيت، علمت أن أمي ستدخل المصحة غداً. وفي اليوم الموالي، بينما أنا في القسم، جاءت إحدى عاملات النظافة وأخبرت المعلمة أن خالي ينتظرني في الإدارة. شعرت بالفرحة، وسُمح لي بجمع أدواتي والرحيل قبل الوقت، لأن أختي كانت قد وُلدت.

# 10

## ثقب في القلب

أخذني خالي بسيارته من الرباط إلى سلا، لأن أختي وُلدت هناك. عندما وصلنا المصحة بدا لي المكان غريباً، وتساءلت عما سأجد داخله. مشيت خلفه في بهو لولبي توجد فيه أبواب متشابهة. فتح أحدها ودعاني للدخول. كانت الغرفة مليئة بالجميع: أبي وأمي وخالاتي وعمتي، باستثناء جدتي التي أخفوا عنها الأمر لأنها تقلق كثيراً. أردت أن أرى أختي، فأخبرتني أمي أنها نائمة. بدا لي عجيباً أن يولد الإنسان وفوراً يخلد إلى النوم. كان ثمة كعك وحليب وقهوة على الطاولة. أخذت قطعة منه واقتربت من المهد الذي توجد داخله، جررت الستار الأبيض الذي يحميها من العالم الخارجي ونظرت إليها للمرة الأولى.

كانت صغيرة جداً، وردية اللون، تغط في نوم عميق كإنسان كبير. قلت مع نفسي هذه أختي. عمري الآن تسع سنوات وقد أصبحت لي أخت. انتهت حياتي كولد وحيد. تساقط عليها فتات من الكعك، واستقر بين وجهها وعنقها، لم أجرؤ على مدّ يدي لسحبها خوفاً من إيقاظها.

التفتت إلى الخلف، كان الجميع يستعدون للخروج حتى لا يوقظوها. بقيت خالتي الممرضة لتبيت مع أمي، بينما عدنا بسيارة خالي. كان البيت غريباً بلا أمي ولا أختي، وكان علينا أن نتدبر أمرنا، أنا وأبي، بينما ذهب الجميع للمبيت عند خالتي ماريا. سألت أبي متى سنسميها، فأخبرني أنها ستبقى بلا اسم حتى مرور سبعة أيام وإقامة "حفل سبوع" لها. وسألته لماذا، فأجابني أن الأطفال أحياناً لا ينجحون في البقاء أحياء في أسبوعهم الأول، فلا نسميهم كي لا نرتبط بهم، إنهم تقريباً لم يوجدوا بعد. وتذكرت القبور الصغيرة في مدخل المقبرة أثناء جنازة جدي. وشعرت أنني كنت محظوظاً باجتياز امتحان الأسبوع الأول، وتمنيت أن تجتازه أختي أيضاً.

كانت السنة الدراسية تشرف على نهايتها والجو الصيفي يبعث على البهجة. أصبحت المعلمة داميّة تتخلف عن الركوب الحافلة معنا. كنت أصنع المشاهد داخل رأسي مستعملاً ما أتذكره من الأفلام المصرية، فأتخيل أن علاقتها الغرامية بالشاب عزيز أخذت تتدهور وأنها أرجعت إليه "الدبلة"...

بعد إجراء كل الامتحانات بقيت معها في القسم، أقرأ عليها النقاط وهي تسجلها في الجداول. كنت فخوراً بتلك المهمة، وسعيداً بالوجود في القسم خاوياً من التلاميذ. لكنني رأيت دموعها تتساقط فجأة فوق الدفتر، قبل أن تنهض بسرعة وتتجه إلى الطرف الآخر من الحجرة. وقفت خلفي وأمرتني بصرامة ألا أستدير. وجدت نفسي عالقاً في حجرة فارغة، ممنوعاً من الاستدارة، أخمن ما يحدث لها.

ركبنا الحافلة. وظللت أراقب صمتهما طوال الرحلة. كان السائق ينظر أمامه طوال الوقت، ولم يتبادلا كلمة واحدة بينما كاميليا تجلس بينهما. عند وصولها، سمحت لي مي عيشة بمرافقتها لحمل قفة الدفاتر معها. كنت أشعر أنها نهاية الفيلم الغرامي بينهما. مشيت جنبها حزينة ومكسورة، ودخلت معها إلى أعماق الحي. صعدنا بيتاً مظلماً فوجئت بعدد الطوابق داخله. كانت داميّة تسكن في الطابق الأخير تماماً، في حجرة صغيرة جداً. فتحت لنا أمها العجوز وأحضرت إلي كأس ماء. لم تكن داميّة تريدني أن أبقى أكثر من ذلك، وكان يجب أن أعود لأن الحافلة كانت تنتظر.

خرجت أمي من المصحة. ولم تأتِ للعيش معنا. بل ذهبت عند خالتي ماريا لأننا في الطابق الثالث وهي في السفلي. أزعجني ذلك وظللت أسأل أبي متى ستعود أمي وأختي للعيش معنا، فكان يجيبني أنها بحاجة إلى مساعدة خالتي، وأن ذلك أحسن لها وللرضيعة. ظللنا نذهب لزيارتهما ونعود إلى النوم في بيتنا بعد ذلك. وكانت أختي تبتسم وتضحك للجميع رغم أنها صغيرة جداً لا يتعدى عمرها بضعة أيام.

سافر وليد إلى الصويرة كعادته عندما يأتي الصيف، قبل حتى أن نحصل على النتائج. ذهب مع أمه بينما بقي أبوه في المنزل حتى ينتهي من شغله ويلتحق

بهما. كنت خلال ذلك الوقت أنخدع في كل مرة بالضوء المنبعث من نوافذ بيتهم، قبل أن أتذكر أنه قد سافر ودشن عطلته الكبرى.

بقيت ألح على أمي أن تعود، إلى أن استسلموا جميعاً في غضون ثلاثة أيام. نقلناها وأختي إلى بيتنا، حملنا أغراضهما، وساعدناها على صعود السلالم. منذ ذلك الحين، امتلأ بيتنا بصرخات أختي الرقيقة التي جاءت مع بداية العطلة الصيفية.

انهمكنا في التحضير لـ"حفل السبوع" الذي لم يكن حفلة واحدة بل حفلتين متتاليتين: واحدة للعائلة، وواحدة لصديقات أمي. وقد حضرت أم كاميليا في الثانية لأنها صديقة خالتي ماريا، وجاءت معها كاميليا مرتدية فستاناً جميلاً، وابتسمنا لبعضنا بعضاً لكنني لم أبقَ في الصالون لأنه كان مليئاً بالنساء. وتطلّب الأمر خمسة وعشرين دجاجة في كل مرة، وطاهية بدينة تقرفص في المطبخ أمام برمة كبيرة تبقبق كأنها شربة "شرشبيل" السحرية.

ساعدني دونكيشو تارة، وبقية الأولاد تارة أخرى، في حمل القفف المليئة بزجاجات المونادا الخاوية، نشتري مقابلها الزجاجات المليئة ونعود بها وقد تضاعف ثقلها.

أعطاني الأقارب الذين جاؤوا لزيارتنا بعض الدراهم، فتجمعت لدي ثروة صغيرة، وذهبنا إلى "الفيديو كلوب" لنرى هل ثمة أفلام جديدة. لكن المحل كان مقفلاً، فاضطررنا إلى العودة في وقت لاحق. لكننا وجدناه مقفلاً في كل مرة. بدا لي ذلك غريباً جداً. وبعد أيام انتشر الخبر في كل الإقامة، حتى بيننا، نحن الأطفال، عرفنا أن البوليس قبض على التهامي لأنه كانت له علاقة غرامية بخادمة تعمل في أحد البيوت المجاورة. وانتهى به الأمر إلى تمزيقها، ولم أكن أعرف ما معنى أن يمزقها، لكنني اكتشفت يومذاك أن القانون يجبره على أن يختار بين الزواج بها أو أن يُسجن خمس سنوات. صدمني كل شيء في القصة، بدءاً من وجود شيء اسمه التمزيق وصولاً إلى خيار التهامي دخول السجن، ما بدا لي بطولياً على نحو غامض.

انتهى الجو الاحتفالي في منزلنا، وذهب المدعوون كل في حال سبيله، وتعوّدنا وجود فرد جديد في العائلة. حصلت أختي أخيراً على اسم لها سمحوا

لي أن أختاره بنفسي. وبدأنا نعود تدريجياً إلى حياتنا اليومية، وقد انطلقت العطلة الصيفية بالفعل.

بعد أيام قليلة توقفت أختي عن الضحك. وأخذت كميات الحليب التي تشربها تتناقص. لم نكن نفهم ما يحدث. ذهبت أمي إلى السوق وتركتني معها بعد أن علمتني كيف أحضّر رضّاعتها، وبقيت معها ذلك الصباح وحاولت إرضاعها لما استيقظت صارخة. لكنها توقفت بعد جرعات قليلة رغم كل محاولاتي. كانت تبدو كأنها غير جائعة أو لا تحب طعم ما نقدمه إليها. انتظرت أمي وأخبرتها، فحاولت بدورها. وعندما جاء أبي، انحنى عليها وأصغى بانتباه إلى إيقاع تنفسها، ولاحظ أن ثمة شيئاً غريباً: انحباس غامض بعد سلسلة من الزفير والشهيق.

أخذوها إلى الطبيب، فطلب منهم مجموعة من التحليلات، ثم بدأت الأمور تتعقد منذرة بشيء خطير. كنت ألعب طوال اليوم حتى أنسى أمرها تماماً، قبل أن أراهما عائدين إلى البيت بالأدوية والراديوهات، وأصعد إلى المنزل لأجدهما محملين بالأخبار السيئة. قال الأطباء إنها وُلدت بثقب في القلب، وإن أمامها أياماً قليلة إن لم تُعالج. شرحوا لنا أننا نولد جميعاً بقلوب مفتوحة تنغلق تدريجياً في الأيام الأولى، لكن ثقبها ظل مفتوحاً.

انتشر الخبر في العائلة وبين الأصدقاء، وأخذت النساء تتوافد على المنزل من كل الجهات، فيكونُ عليّ أن أنزل لشراء زجاجة مونادا. في كل مرة أنزل بواحدة خاوية وأعود بالمليئة. كن ينجحن في إبكاء أمي طوال الوقت. حتى عندما تقاوم ذلك في حضورهن، تبدأ دموعها بالانهمار بمجرد رحيلهن ويحمرّ أنفها احمراراً شديداً.

كانت أختي بحاجة إلى عملية جراحية في فرنسا. رفض الجميع أن يفصح لي عن ثمنها رغم إلحاحي، وقد لحقت بأبي في ساحة الحومة حتى أيقن أنني لن أتركه إن لم يخبرني. فقال لي إنها ستكلف 18 مليوناً. بدا لي الرقم جهنمياً، هو في الحقيقة أكبر رقم أعرفه لأنه ثمن البيت الذي نسكنه، والذي أخذنا من أجله قرضاً بنكياً يمتد عشرين سنة. أحسست أن الأمر خطير ومستعصٍ، وأننا

سنبيع كل شيء لإنقاذها. صرنا نجري ضد الزمن وكان يمكن أن تموت في أي لحظة.

ثم التقى أبي شخصاً قال إنه من الحزب. كان يعمل في مصلحة التأمين الصحي، فسرّع الإجراءات لكي تصبح العملية شبه مجانية. وعندما حصلنا على موعد لإجرائها في فرنسا، صارت المشكلة في العثور على المال لحجز تذاكر الطائرة وتغطية تكاليف السفر. ذهبنا إلى أصيلة، وتجمع كل أفراد العائلة، وساهم كل واحد بالذي يقدر عليه، حتى الذين لم يكن عندهم فلوس.

فرحت بكوني سأذهب إلى فرنسا وفرحت أكثر لفكرة ركوب الطائرة. لكنني بدأت أفهم تدريجياً أن ذلك سيكون صعباً أيضاً. قالت أمي إنها ستبيع أساورها الذهبية حتى يشتروا لي تذكرة، وبدا لي ذلك جديراً بمشهد ميلودرامي من مشاهد الأفلام المصرية التي كنت أتفرج عليها كل جمعة. كنت ألعب طوال الوقت في ساحة الحومة، وألحق بأمي عندما أراها عائدة إلى البيت. ألقي نظرة سريعة إلى يدها فأرى الأساور وأعرف أنها لم تبعها.

جهزت جوازات السفر، وأضيفت صورة أختي في كليهما. قال أبي إن ذلك هو السر في حصولهما عليها بسرعة خارقة. ثم سألني بحضور أمي عن أكثر شيء أريده من فرنسا، فلمع في ذهني جهاز الفيديو. أخبرني أنه علي أن أختار بين الفيديو والبقاء في المغرب، أو الذهاب معهما والعودة بلا أي شيء، لأن الفلوس محدودة. فكرت جيداً، وبدا لي أن الرحلة إلى فرنسا مغامرة تستحق أن أضحي في سبيلها بالفيديو. فدخلا في صمت عميق عند سماع جوابي. وأصبح الحديث في الموضوع بعد ذلك يدشن غضبهما، ويجرّ علي نعت الصغير الذي لا يفهم.

حجزوا التذاكر، وأخذ موعد السفر يقترب. ثم أخذني أبي في جولة إلى الجوطية، وحدثني عن العملية الجراحية قائلاً إنها قد تفشل، وإننا يجب أن نكون مستعدين لذلك. تذكرت مرة أخرى القبور الصغيرة في جنازة جدي، ثم أعجبني عصفور بيروش داخل قفص فاشتراه لي وعدت سعيداً.

جاء اليوم الأخير، واستيقظنا باكراً. كان أبو وليد ينتظرنا في السادسة صباحاً. ركبوا جميعاً في سيارته وتركوا لي مفتاح المنزل ورحلوا. ظللت أنظر إلى

السيارة وهي تبتعد حتى اختفت كلياً. عندئذ شعرت أنني أصبحت بلا أبوين وأن كل شيء انتهى. ذهبت إلى بيت خالتي ماريا التي كانت لا تزال نائمة، فتحت الباب ودخلت للجلوس في الصالون. شعرت بالخواء داخلي، وبكيت طويلاً قبل أن تستيقظ.

# 11

## الطائرة

بدأت أتعوّد الحياة بلا أبوين. وتدريجياً شعرت أنني صرت أمتلك حرية لم أعرفها من قبل: عندما يهددني الأولاد بالوشاية بي لأمي لا تؤتي تهديداتهم مفعولها، أو عندما أذهب إلى أماكن بعيدة من الإقامة دون الحاجة إلى استئذان، أو إذا فعلت أي شيء يراه الكبار خطيراً. أقضي يومي في حومتنا، أدخل بيتنا المهجور لإطعام العصفور، ولا أعود إلى بيت خالتي ماريا إلا في وقت متأخر للنوم. كانت تشتغل في المستشفى طوال الوقت، فلا تزعجني ولا أزعجها. أشعر أنني "هوك" صديق "توم سويور" الذي يعيش بكل حرية في منزل خشبي بناه أصدقاؤه فوق شجرة. وأخذ الأطفال يعاملونني بطريقة مختلفة لما علموا ما حدث معي، حتى أن أولاد الحومة الخامسة الأشرار لم يعودوا يعيرونني اهتماماً كأنني صرت من حومتهم. ألعب في الحوميتين طبقاً للأطفال الذين أجدهم كل صباح.

أبي وأمي يتصلان بالهاتف من مساء إلى آخر. تبعث خالتي أحداً للعثور علي بينما يعيدان الاتصال. لا أجد ما أقوله لأمي، إنهم على أهبة إجراء العملية الجراحية، وقد وضع الأطباء لأختي أنبوباً في أنفها يغذيها رغماً عنها. تنتهي المكالمة فأعود إلى اللعب في العتمة الرائعة، وتأتي أوقات أتحرر فيها كلياً من غيمة الحزن المخيمة فوق رأسي. أنسى ما يمكن أن يحدث لها وأنسى القبور الصغيرة وأنسى حتى من أكون.

ذات صباح خرجت باكراً ولم أعثر على أحد. كنت أنظر إلى السماء من حين إلى آخر فأرى طائرة تتقدم ببطء راسمة خطاً أبيض، فيذكرني ذلك بأمي وأبي وفرنسا، أتساءل متى ستعود إحدى تلك الطائرات بهما برفقة أختي. لم أجد سوى الروبيو الشرير يصطاد الفراشات بصندلته، وقد تحوّل أيضاً إلى صديق. نزعت صندلتي، وحاولت أن أفعل مثله لكنني كنت أدهسها في الهواء وتموت

كل مرة. علمني كيف أضربها وهي تطير ضربات قوية وخاطفة تجعلها تدوخ دون أن تموت. فيأخذها ويدسها داخل علبة مارلبورو حمراء. حاولت مرات عدة قبل أن أنجح في إسقاط أول فراشة. أمسكتها من جناحيها ووضعتها داخل علبة السجائر التي فتحها الروبيو بحذر شديد حتى لا تطير الأخريات، وبقيت ألوانها عالقة بإصبعي.

قفزنا داخل الحديقة وقطفنا حبات طماطم لم تكن ناضجة، لكن الروبيو قال إنها قابلة للأكل. قضم منها وأعطاني لأجرب فأدهشني طعمها لأنه كان لذيذاً جداً.

دخلنا العمارة وأقفلنا الباب، فتح علبة السجائر فتطايرت الفراشات راسمة دوائر في الهواء، محاولة التغلب على دوختها، كان منظرها مثيراً للضحك قبل أن تنزل أمه وتسألني عن صحة أختي. قلت لها إنهم سيجرون لها العملية قريباً وإنهم سيعودون بعد ثلاثة أسابيع. عندها دعتني لأكل الكسكس يوم الجمعة. فرحت كثيراً لأنني أحب الكسكس، ولأنني سآكله مع كاميليا.

أخذت أحلم بذلك اليوم. قلت مع نفسي هناك شيء جيد في كل ما يحدث لي. وعندما جاء الموعد، ساعدتني خالتي على ارتداء ملابس أنيقة، ورافقت الروبيو إلى بيته. دخلنا وأجلسني في غرفة الأطفال التي كان فيها أربعة أسرة متراصّة مثل الأسرة العسكرية. جاءت كاميليا وابتسمت لي ابتسامة لطيفة كأنها تقول إنها على علم بما حدث لي ولعائلتي.

سألها الروبيو: "فين وصل الغذا؟".

أجابته: "ها هو كيوجد...".

كانت نبرته فظة، فأجابته على مضض ورحلت. وظللت دائخاً مثل الفراشات، لا أصدق أنني أجلس في الغرفة التي تنام فيها. نادتنا أمها للغذاء، لم يكن هناك كسكس على الإطلاق، بل طاجين بطاطا صفراء بالزيتون. كان لذيذاً مع ذلك، والتحق بنا الأب ولا أدري لماذا لم يأتِ أخوها الأكبر. ظل الروبيو يحتج على غياب الكسكس فضربه الأب على رأسه قائلاً: "كل واسكت..."، وقالت أمه: "إنك تشوهنا أمام الضيف".

بعد الغذاء عدنا إلى غرفة الأطفال، وعادت معنا كاميليا، واقترح علينا الروبيو لعبة. نزعنا كل الأثاث الذي يمكن أن يعيق حركتنا. أغلقنا الباب والستائر إلى أن أصبح الظلام حالكاً. أخذ الروبيو مخدة يضربنا بها. كانت الضربات تهوي بقوة على رأسي تدوخني، حتى نسيت أين أنا وما الذي أفعله، وحررتني اللعبة من كل شيء. ضحكنا كثيراً وكنت سعيداً بأن أجد نفسي في ظلام مطلق مع كاميليا فلا أراها ولا تراني، كنت أشعر بحضورها بكل حواسي وظل رنين ضحكاتها يملأ رأسي.

جاء خالي في نهاية الأسبوع الأول ليقضي معنا بضعة أيام، وأخذت خالتي ماريا عطلة من عملها، وذهبنا إلى البحر. تكلمنا مع جدتي في الهاتف، فأخبرتنا أنها تمطر في أصيلة، وأدهشني أن تمطر في الصيف. وددت لو ذهبنا إلى هناك، فقرر خالي وخالتي أن نسافر في الغد. أخذت معي قفص العصفور وركبنا السيارة ورحلنا.

عندما وصلنا، لم يكن هناك أثر للمطر. قضيت يومين في بيت جدتي قبل أن ألتحق بعمتي زكية التي كانت تستعد مع أسرتها للسفر إلى طنجة لإعادة ربيعة إلى أسرتها حتى تقضي عطلتها السنوية. كانوا قد اشتروا لها كمية كبيرة من ألعاب عاشوراء، وكان زوج عمتي يمسك لائحة بأثمنة كل شيء ويحسبان. فهمت أنه أجر ربيعة السنوي، تأخذه عائلتها نقداً، وأن ألعاب الأطفال جزء من ذلك الأجر. وقد سافرت معهم إلى هناك، وقضينا يوماً كاملاً في المدينة التي كانت تبدو لي إسبانية آنذاك.

وصلنا المدينة قبل منتصف النهار. ذهبنا إلى قرية ربيعة وجاء شخص أصلع تبين أنه أخوها الأكبر. ثم جاء إخوتها الصغار وفرحوا بها فرحاً جنونياً. أخرجوا من الكوفر كيساً مليئاً بالهدايا مثل خنشة بابا نويل. وذهب عمي عبد السلام برفقة أخيها إلى حيث يوجد بيت العائلة، بينما بقينا في السيارة. نظرنا حولنا، كان المكان متربعاً على هامش العالم، مليئاً بالبراريك. عاد زوج عمتي بعد لحظات هو وربيعة، وبقينا نتبادل النظرات في لحظة غريبة شعرنا خلالها أنها فرد من العائلة، سنتخلى عنه في ذلك المكان المقفر ونرحل!

ذهبنا بعد ذلك إلى وسط المدينة، وتوهمت للحظات أننا فعلاً في إسبانيا بسبب هندسة المدينة وبناياتها. أكلت البوكاديوس لأول مرة في مطعم مكتظ بالزبائن. ثم ذهبنا إلى سوق كبير حيث توجد السلع الإسبانية بوفرة وبأثمنة بخسة، من شكولاتة وجبن، وقد اشترت العائلة ما يكفيها لعام كامل. أخذنا طريق العودة في بداية المساء. لم تكن المسافة بعيدة وكان زوج عمتي يحب الأسفار الليلية، فسألته عن ذلك وأخبرني أنها أسهل. أصبحت الطريق خالية بينما الليل يتقدم، ثم شعرنا بتعب كثير لكنني لم أنم لأنني كنت أرى كائنات مضيئة صغيرة تهجم كالحجارة على السيارة، وكنت خائفاً أن تكسر الزجاج وتقع لنا حادثة. أخبرني زوج عمتي أنها مجرد حشرات يجذبها ضوء السيارة.

في الأيام التالية، أصبحت الحياة بلا ربيعة عسيرة وبدأت تتراكم المشكلات. وأخذت العائلة السعيدة تنزلق تدريجياً إلى حالة من الفوضى. لم تجنح بنتا عمتي في الحفاظ على الحد الأدنى من شروط البيت النظيف والمنظم. وكانت عمتي وزوجها يعوّلان على العطلة الصيفية لتدريبهما لتصبحا ربتي بيت حادقتين. لكن إحسان التي حصلت على شهادتها الابتدائية للتو ظلت تقاوم كعادتها باستماتة، وكانت آية أصغر من أن تتحمل أي مسؤوليات. ولم يكن لدي أي شيء أعمله لأنني ضيف، ولأنهم يرونني رجلاً فوق كل ذلك.

أتابع ما يحدث منبهراً، كيف أن البيت الذي كان منظماً ونظيفاً، والأكل جاهز، كل ذلك تحول إلى عمل شاق يستدعي صراخ عمتي على بنتيها واتهامهما بالكسل وقلة الهمة. أخذ هذا الجو يتراكم إلى أن انهارت عمتي وغابت عن الوعي من شدة الصراخ. تجمعنا حولها، وأبرم الأب اتفاقاً جديداً ليبدؤوا صفحة جديدة.

بعد ذلك أخذ النظام يعود إلى البيت فصرنا نقضي وقتاً مرحاً، خصوصاً عندما أحضر عمي عبد السلام كمية كبيرة من العنب وطلب من عمتي أن تصنع لنا الخمر. تجمعنا في غرفة المعيشة بعد الغداء، وأحضرت عمتي آلة صغيرة للطحن. أخبرنا أنه ذهب إلى معمل ورأى كيف يصنعونه، كان المنظر مقززاً، لأن العمال قذرين، يدعسون العنب المتعفن بأحذيتهم البلاستيكية العالية وعندما ينتهون يتبولون عليه. لكننا سنصنع خمراً نظيفاً وحلالاً. وقال لنا إن

الجنة تجري من تحتها أنهار من الشراب اللذيذ الذي لا يؤلم الرأس. كان يحكي لنا القصة بينما تدير عمتي رحى الطاحونة الصغيرة، وتصب كأساً لكل واحد، وهو يستعجلها بطريقة كوميدية لتصب لنا كؤوساً أخرى. شربت ثلاث كؤوس، وكنت أعرف أنه ليس خمراً حقيقياً بل مجرد عصير، لكننا ظللنا نضحك حتى شعرنا أننا سكرنا بالفعل.

كنا نذهب يومياً إلى بيت جدتي، وكان عمي عبد السلام يأتي لأخذنا بالسيارة عندما ينزل الليل. في ذلك المساء، كان سعيداً جداً، التفت إلينا ونحن نركب السيارة، أخبرنا أن "الإخوة" حققوا نجاحاً كاسحاً. لم نفهم عمّ يتحدث، فشرح لنا أن المجاهدين الجزائريين عادوا من أفغانستان بعد الانتصار على روسيا. حلقوا لحاهم للمشاركة في الانتخابات وربحوا في اللعبة الديموقراطية. حكى لنا ذلك بابتسامة عريضة كأنه مقلب ناجح. فرحنا دون أن نفهم بالضبط ما يحدث، كانت تلك لحظة كبيرة له، لأن الجزائر ستصبح دولة إسلامية ولأن دولاً أخرى ستتبعها.

ظلت أمي تتصل بي في بيت عمتي، وعلمتُ أن أختي قد أجرت العملية أخيراً، وأننا بحاجة إلى بضعة أيام للتأكد من نجاحها. كان غياب أبويّ قد دخل أسبوعه الثاني، وبدأت أشعر أن موعد رجوعهما لن يصل أبداً. كنت أشعر طوال الوقت بالحنين إليهما وبالأمل في أن تنجح العملية، وعندما يأتي الليل كنت أفكر في الله وأطلب منه أن ينقذ أختي، وأعده أن أشرع في الصلاة وأواظب عليها إذا ما حقق أمنيتي.

توالت المكالمات الهاتفية، وأخبرني أبي أنهم اشتروا لي الهدية التي أريد، وأن حالة أختي في تحسن مستمر. فرحت كثيراً بالخبر وكان علي أن أصبر عشرة أيام أخرى قبل عودتهم. لكننا، ذات مساء، بينما كل العائلة مجتمعة عند جدتي، رنّ الهاتف، وتكلمنا مع أمي بسرعة: أنا وجدتي وخالتي ماريا. فاجأتنا بتغييرهم موعد التذاكر وبعودتهم في غضون ثلاثة أيام. كانت مفاجأة سارة جداً ولم أتمكن من تصديق أن كل ذلك الحزن سيتحول إلى فرحة بعودة أمي وأبي وأختي بصحة جيدة وهدايا، وفرحت كل العائلة وتصاعدت ضحكات الجميع.

عدنا جميعاً إلى الرباط. وتجمعنا في المطار الذي كان لا يزال في طور البناء. ذهبنا هناك بساعات قبل أن تحط الطائرة. كنت أشعر بغرابة شديدة، وأحس أنه لا معنى لكل ما حدث خلال الأسابيع الماضية. لاحت الطائرة أخيراً في السماء وسمعنا أزيز محركاتها قبل أن تحط فوق الأرض.

نزلنا لنراهم، ومر وقت قبل أن تخرج أمي عندنا وهي تحمل أختي التي كبرت وأصبحت تضحك، وفرح بهما الجميع. كانت أمي تحدثني بسعادة لكنني كنت لا أزال أشعر بالغرابة نفسها، كأن جزءاً من الحزن بقي عالقاً داخلي. وظل أبي مع الجمارك بعد أن حدثت مشكلة ما في الحقائب. بقيت أنظر إليه بعيداً من خلف الزجاج. بدا لي كأنه شخص مختلف. لم يخرج إلا بعد ساعتين من عندهم وأخبرنا أنهم بعثوا إحدى الحقائب خطأ إلى مطار الدار البيضاء. عدنا إلى بيتنا الذي ظل مهجوراً وقد امتلأ فجأة بكم هائل من الأقارب السعيدين. وحدي كنت أشعر بالخواء، وأتساءل كيف يعقل ألّا أكون سعيداً. كان يبدو لي أبي وأمي في تلك الأثناء كأنهما شخصان غريبان، وأحسست أنني أصبحت طفلاً آخر.

# 12

## الغنيمة

أشرف الصيف على نهايته دون أن يصل جهاز الفيديو. بقي في الحقيبة التي بعثوها إلى الدار البيضاء. أحضر أبي ثلاثة أفلام في الحقيبة الأخرى: فيلم كاوبوي يطلق عليه اسم "ويسترن سباغيتي"، وفيلم "القيامة الآن" عن حرب فيتنام، ورسوم متحركة عنوانها "علبة الحشرات المضيئة". أنظر طوال الوقت إلى أغلفتها متخيلاً قصة كل واحد.

اكتشفت أن المدرسة المهجورة ستفتح أبوابها بعد أن تسارعت أشغال بنائها في الصيف. اقتربت منها برفقة كاليميرو، فاستقبلتنا السكرتيرة في الباب. التقطت الفضول في عيوننا وأدخلتنا لإجراء جولة. تبعناها وهي تمشي متمايلة، فلحقنا بفستانها ورائحة عطرها، منبهرين بتحول الجدران المتآكلة والأرض المتربة إلى بلاط نظيف وحيطان ناصعة مزينة بالرسومات.

عندما عاد وليد أخيراً، كان شديد السمرة بفعل التشمس في البحر. لم أخبره بما حدث معي ومع عائلتي لأننا لم نتكلم معاً، ولأن أحداثاً كثيرة كانت بانتظارنا في المدرسة الجديدة، أوّلها أنهم لم يطلبوا منا شراء الأدوات المدرسية، بل اقتطعوا كلفتها من ثمن التسجيل.

في اليوم الأول، ذهبنا بمحافظنا خاوية. فرحت بوجود كاميليا من بين التلميذات. وكان قسمنا يضم بنات كثيرات من الإقامة لم أَرَهُّن من قبل. أما الأولاد، فكنت أعرف معظمهم بفضل ألعابنا وحروبنا. كانت معلمة الفرنسية جميلة جداً، اسمها نادية، وقصيرة لدرجة أنها بطولنا. امرأة مضغوطة صالحة للزواج بطفل. أما معلمة العربية، فكان اسمها ميلودة وكانت طويلة ونحيفة، تحب أن تقول إنها أول امرأة ركبت الدراجة النارية في البلاد.

وزّعت علينا المعلمتان في مراسيم شبه مسرحية أكياساً بلاستيكية مليئة بالكتب والدفاتر. استلم الجميع أدواته إلا أنا. ولم يبقَ سوى كيس واحد لتلميذة

متغيبة لها اسمي العائلي نفسه. فتنبهت المعلمة أنها أخطأت وكتبت اسم فوزية بدلاً من زكريا. ضحك القسم بهستيرية قبل أن تنهرتهم ميلودة بقسوة. لكن ذلك لم يمنعهم من تلقيبي بفوزية خلال الأسابيع الموالية، وكان يجب أن أجد وسيلة للانتقام من كل واحد، حتى تلاشى الاسم من رؤوسهم.

اكتشفنا أن معنا ولد عراقي اسمه فراس. كانت أمه مغربية، وقد هربوا جميعاً من الحرب. ظل يصرّ على أن تناديه المعلمتان باسمه واسم أبيه واسم جده. الجميع في حيرة من أمره لكونه بلا اسم عائلي. في الاستراحة، تجمعنا حوله وسألناه عن صدّام. لم يكن يتذكر حياته في العراق لأنه كان صغيراً، ولأنهم كانوا يعيشون في الكويت. أما أبوه، فكان يعارض صدّام. لم نفهم معنى ذلك ولم يعرف كيف يشرحه لنا. كان هو نفسه يحبه ويتفاخر به بعدما أصبح بطل الأمة العربية.

مرّ الأسبوع الأول ونحن نتجوّل في المدرسة. إنها كبيرة جداً. فيها ثلاث ساحات للكبار والصغار، وبيت صغير للحارس وزوجته نطل خلسة من نافذته على غرفة النوم. تسجل تلاميذ قلائل فامتلأ الطابق الأول تقريباً، وكنا، القسم الخامس، وحدنا ندرس في الطابق الثاني. أما القسم السادس، فلم يتسجل فيه سوى ثلاثة تلاميذ، منهم سليم، الولد الوحيد من الحومة الخامسة الذي صار يلعب معنا الكرة، والذي سيصبح صديقي فيما بعد. ظل صدى صوت المعلمتين نادية وميلودة يتردد إلى ما لا نهاية في القسم الكبير. فجهزوا لهم قاعة صغيرة جداً كانت في الأصل مستودعاً لمواد النظافة، وأصبحت قسمهم منذ ذلك الحين. في الطابق الرابع، توجد ورشة للنشاط العلمي مليئة بالأدوات، يشرف عليها الأستاذ اليعقوبي، وينام فيها أيضاً. كنا نظنه مخترعاً عبقرياً، لذلك أطلقنا عليه اسم "عبقرينو". رغم أنه لم يخترع أي شيء. أُحبّ حصة النشاط العلمي، وأُحبّ الصعود إلى الورشة في الطابق العلوي، من حيث أنظر إلى السحاب، وأطل على ساحة الصغار فيبدون كحشرات صغيرة.

تجد ميلودة الفرصة على الدوام لتذكرنا أنها معلمة منذ خمسٍ وثلاثين سنة، لم تُمنَ خلالها بتلاميذ أسوأ منا. تقول إن الله كتب على جبهة كل واحد منا "سعيد" أو "شقي"، لذلك كل شيء محسوم مسبقاً. تذكرنا بالقيامة بمناسبة

ودون مناسبة، يوم سيكون حسابنا عسيراً. اكتشفنا أن المعلمة نادية صارمة أيضاً. كلما تملى أحدنا في جمالها، تنقض عليه وتلسعه كعقرب. أخبرتنا المعلمتان بفخر أننا سنجري "مراقبة مستمرة" كل ثلاثة أسابيع. لا أحد منا جرّب ذلك في مدرسته القديمة.

صرنا نعود إلى المنزل مبكراً، وربحنا الوقت لمشاهدة الرسوم المتحركة. أصبح بإمكاني أن أنام وقتاً أكثر، وألا أستيقظ إلا في آخر لحظة. يصل أحدنا عادة بعد نصف ساعة مدعياً أن المنبه تعطّل، يكفي أن ينكش شعره ويفتح أزرار ملابسه ويلهث من شدة الجري في السلالم. فراس يفعل ذلك وتنطلي الحيلة على المعلمة في كل مرة.

نفتتح اليوم بحصة المطالعة. فاجأتنا كاميليا منذ الحصة الأولى بطريقتها في القراءة. صوتها قوي لدرجة أننا لم نفهم كيف يخرج منها. نستمع لها بنشوة كل صباح. في الاستراحة، جاءت عندي وسألتني عن صحة أختي. أخبرتها أن العملية الجراحية نجحت، فابتسمت حتى ظنّ الأولاد وهم ينظرون إلينا من بعيد أن بيننا قصة غرامية. ثم سألتني لماذا أنا ووليد لم نعد أصدقاء. فهززت كتفي قائلاً إن لكل منا طريقه. فقالت مستغربة: "كنتما صديقين، ما فهمتش؟". لم يكن لدي ما أجيبها به. لقد توقف عن الذهاب إلى المسجد وعن حمل المصحف في جيبه، كأنه حفظ كل شيء... بعد ذلك استغل أول الفرصة وجاء يقول لي إن كاميليا تقربت مني فقط لأنها تظن أننا ما زلنا أصدقاء، ولأنه لا يهتم بها. لم أصدقه طبعاً. لم يكن وليد يهتم بأي بنت، لأن لديه شطرنجاً داخل رأسه.

وصل الفيديو أخيراً يوم الجمعة. كان يجب أن أعثر عليه لأن أبي خبأه. انتعش عقلي وأنا أبحث في كل مكان حتى وجدت العلبتين: واحدة لنا والأخرى لخالتي ماريا، فقد أحضرا لها واحداً أيضاً. أخرجته من العلبة وقلبي يخفق؛ إنه الفيديو أخيراً في بيتنا. كان عليّ أن أرجع إلى المدرسة، قضيت الزوال كله سعيداً بفكرة العودة ومشاهدة فيلم. لما خرجنا أخيراً، لم أبق للعب مع الأولاد، كما نفعل ليلة الجمعة، بل أسرعت إلى المنزل، وحشوت شريط الرسوم المتحركة داخل تلك الآلة السحرية.

أطفأت الضوء، وضغطت على زر "بلاي". ظل مشعاً في ظلام الغرفة بينما العداد الزمني يعد ثوانيَ ودقائق الفيلم كأنها دقائق السعادة التي أحس بها. كان فيلم الرسوم المتحركة صادماً للغاية رغم أنني أحببته، وأغرقني في بحيرة من الدموع؛ طفل مع أخته الصغيرة يحاولان العيش خلال زمن الحرب بعدما فقدا أبويهما. تختفي المواد الغذائية ويصبح الناس أشراراً، ويواجه الولد مع أخته مجاعة تنتهي بموتهما. أشعلت الضوء، استنشقت الهواء، وتذكرت أنني لا أعيش في حرب، بل في منزل يطل على البحر.

في اليوم التالي، ذهبت إلى منزل خالتي ماريا. وركبت لها أسلاك الفيديو مع التلفزيون. تفرجنا على "مدرسة المشاغبين" الذي استلفته من زميلتها في العمل، وضحكنا طوال العشية. وفي ليلة السبت، شاهدت نصف ساعة من فيلم "القيامة الآن" ولم يعجبني لأنني لم أفهمه. وجربت "ويسترن سباغيتي" الذي يقول أبي إنه أحسن فيلم كاوبوي. قرأت عنوانه بالفرنسية: "الطيب والوغد والحثالة"، وظللت طوال الفرجة أفكر من هو الطيب ومن هو الوغد والحثالة. لم تكن ثمة ريشة هندي أحمر واحدة طوال الفيلم.

شكلت هذه الأفلام ثورة بصرية بالنسبة إلي. وأصبحت رصيدي في شبكة المبادلات للأسابيع الموالية. حذرني أبي من مبادلتها، لكن الأمر أعجبه عندما أعطيت "القيامة الآن" لدونكيشو وأخذت منه فيلماً بالأبيض والأسود لشارلو. شهق أبي فرحاً: "الأزمنة الحديثة لتشارلي تشابلن".

في المدرسة، مر أول اختبار بسلام. تصدّر فراس الرتبة الأولى في كل المواد رغم أنه يمرح طوال الوقت. كانت نقطته سيئة في الفرنسية فقط لأنه لم يدرسها في الكويت. وقد فكروا في إلحاقه بحصص الفرنسية مع القسم الرابع. لكن المدير فضل أن نعطيه فرصة أخرى.

التحق تلميذ أخير بالقسم السادس، لقبناه بكعبول لأنه مغفل. إنه يشبه القرد، يداه طويلتان وظهره مقوس، ورجلاه في وضعية هرولة دائمة. أخفق في الحصول على الشهادة الابتدائية وكرّر السنة. تصر المعلمتان على أنه لا وجود لتلاميذ كسالى؛ هناك فقط تلاميذ ضعفاء يحتاجون المساعدة. لم يكن ذلك ينطلي علينا. قبلته الإدارة لأنهم بحاجة إلى المزيد من الفلوس، فأصبح

القسم الصغير يضم أربعة رؤوس. لم يكن أحد يصدق أن كعبول سينجح في الامتحان النهائي، لذلك ضاعفوا له الحصص وجعلوه يدرس معنا أيضاً. أما الفرنسية، فكان يدرسها مع أطفال القسم الرابع. إنه يُضحكنا بصوته الخشن. يبدو كأنه محبوس بجسمه العملاق في عالمنا الطفولي رغم أنه يحمل كل علامات البلوغ التي سنقرأ عنها في النشاط العلمي. كنا نسمح له باللعب معنا مقابل أن يرينا عضوه في المراحيض.

أقضي الأسبوع في البحث عن أولاد أتبادل معهم. أحياناً يُحضر أبي فيلماً أو فيلمين، فيتحول الويكإند إلى مهرجان سينمائي. توسعت شبكة علاقاتي، واكتشفت بسرعة أنني يجب أن أنتقل من الأولاد الذين أعرفهم إلى آخرين. وقد بادلت أحد أولاد الحومة الخامسة، نلقبه بقط البكتيريا، فيلم "القيامة الآن" مقابل فيلم "مواجهة الموت" الذي كان مرعباً جداً، يُجمِّع لقطات يموت فيها الناس حول العالم.

وفي يوم الإثنين، قال قط البكتيريا إنه لم يتفرج بعد، لذلك أعطاني فيلماً جديداً، فأعجبتني الصفقة. بعد ذلك أصبح يُحضر إلي فيلماً جديداً كل أسبوع، كلها كوميدية بليدة، لم تعد تضحكني لأن كل ما أصبحت أريده هو استرجاع "القيامة الآن". ظل يتهرب مني، حتى أخبرني الأولاد أنه لا يتوقف عن مبادلة أفلام الآخرين بعضها ببعض مثل سمسار. يأخذ الجيدة ويعطي السيئة، وظل يتحايل علي ويقنعني في كل مرة بأخذ فيلم جديد. حتى انتبه أبي وأمسكني ذات ليلة، بعد أن اختفت الأفلام الثلاثة، وقال لي: "أريدها أن تحضر كلها الآن".

خرجت في الليل. استرجعت الفيلمين الأولين بسهولة، وعرفت أن المشكلة في الثالث. فذهبت إلى الحومة الخامسة وبحثت عن سليم الذي كان يدرس في القسم السادس وحكيت له ما حدث. لم يرَ أين هي المشكلة، فذهب معي إلى بيت قط البكتيريا ودق الجرس. فتح لنا الباب فهدده بإخبار أمه، أسرع بإحضار الشريط ثم أقفل الباب. شكرت سليم وعدت سعيداً بعد أن خلصني من تلك الورطة، وقد أصبحنا أصدقاء منذ ذلك الحين. صعدت سلالم العمارة وأنا أنظر إلى غلاف الفيلم، وأشمه منتعشاً برائحة البلاستيك العميقة.

بعد الاختبار الثاني، قالت المعلمة نادية إن فراس تحسن وإنه سيلحق ببقية القسم إذا واصل جهوده. أما نحن، فأخذنا نتدهور مع تعقد الدروس، وتحولت الفرنسية إلى تجربة كابوسية. ثم خطر للمعلمة نادية فكرة جهنمية، فدعت كل القسم لجمع أدواته والوقوف أمام السبورة. وقفنا محملين بمحافظنا لا ندري ما يدور في رأسها، وأخذت تعيّن لنا أماكن جديدة للجلوس. اكتشفنا تدريجياً أنها تختار لنا أمكنة وفق النقطة التي حصلنا عليها. وهكذا أجلستنا من الرتبة الأولى إلى الأخيرة.

وجدت نفسي أجلس قرب بيتشو الذي لم يكن من أولاد الإقامة. أصبحنا منقسمين إلى خندقين: مجتهدين وكسالى، ولم يعد هناك حيز للمتوسطين. أخبرتنا المعلمة أننا سنعيد توزيع الأماكن بعد كل مراقبة، فكرت يومذاك أنني أصبحت في الخندق نفسه مع كعبول.

كبرت صداقة وليد وفراس، وانضم إليهما تلميذان من خندق المجتهدين، وأصبحوا يجتمعون آخر الأسبوع في بيت واحد منهم للمراجعة. أعرف أنهم يمرحون بدلاً من أن يراجعوا. انتظم بقية الأولاد في مجموعات لم أجد طريقي إلى واحدة منها. لم أجد سوى بيتشو ليكون صديقي. كان ضعيفاً ونحيفاً لدرجة أننا كنا نقول عنه إنه لن يتغلب على دجاجة. لكنه يتحوّل في الملعب إلى كائن خارق، يناور بالكرة كما يريد، ويهرب بها من بين عشرات الأرجل. في أول يوم جلست جنبه، قال لي بكل جدية: "عندي سر سأخبرك به... إنني أحب كاميليا". أضحكني ذلك كثيراً، لأنه لم يكن بعد قد فهم أن الجميع يحبونها، ليس في هذه المدرسة فقط، بل في كل مكان. منذ ذلك الوقت، ركزت على المنافسة معه لأنه غريم سهل.

أصبح الفيديو يشكل مصدر دفء لي. وكان يجب أن أخفي ما يجري في المدرسة، حتى لا تطاولني عقوبة عدم استعماله. في بداية كل حصة، تنزع المعلمة نادية حذاءها العالي، وترتدي نعلاً منزلياً، فتصبح صغيرة جداً. تدعونا لإخراج سبوراتنا وتصريف أفعال في الماضي والحاضر والمستقبل. نكتب بالطباشير ونرفع لوحاتنا. بعد ذلك تكتب لنا أفعالاً جديدة في السبورة لنحفظها

في اليوم الموالي. بعد أيام، تكاثرت الأفعال حتى أصبحنا نقامر بالأجوبة على السبورات، وفجأة أوقفت الحصة.

كانت غاضبة جداً. لم تكن لدي أدنى فكرة هل جوابي صحيح أم خطأ. أوقفت أكثر من نصف القسم في ركن من الحجرة الدراسية، ودعت فراس للانسحاب من بيننا. ثم خرجت من القسم، ولم نعرف إلى أين ذهبت وظلت كاميليا تنظر إلينا بحزن وشفقة. توقف العالم للحظات قبل أن تعود ومعها السي سمير، مدير المدرسة. بقي صامتاً وهو ينظر إلينا من وراء نظاراته الطبية كأننا كائنات مليئة بالجراثيم. منعتنا المعلمة من مسح سبوراتنا وظللنا نحملها كأنها دليل على جرائم اقترفناها.

قال السي سمير بكل واقعية: "الحل الوحيد هو إنزالهم إلى القسم الرابع".

هاجمني مشهد النزول ككرة نارية عملاقة. نسيت نفسي حتى وصلت الهاوية. كنت واقفاً بين بيتشو وكعبول، وقد أيقنت في تلك اللحظة أنني أصبحت كسلاناً.

# 13

## الحلم

أصبحت عالقاً في خندق الكسالى، وكان عليّ أن أنقذ نفسي بأي وسيلة. ظلوا يهددونا بالإنزال إلى القسم الرابع أسابيع عدة ونحن نبذل ما في وسعنا للخروج من دائرة الخطر. في النهاية، أصبح الجميع يحفظون تصريف الأفعال الفرنسية، كل الأفعال، أتوماتيكياً.

كنت متوسطاً في جميع المواد. ورغم أنني أحب النشاط العلمي، لم يكن ذلك يغير شيئاً من نقطتي في الاختبار؛ كانت تمارين الرياضيات تشبه القرعة في كل مرة. عالم الأرقام ينفرني باستثناء المسائل التي تثير فضولي دون أن أتوصل إلى حلها. لجأت إلى أبي ليساعدني في حل مسألة قلّبت التفكير فيها في كل الاتجاهات. وجدته يكتب في الصالون جالساً على هيدورة فوق الأرض جنب منفضة سجائر، في جو من الدخان والأنغام الموسيقية. أخذ مني كتاب الرياضيات وخفّض صوت المسجّلة. قرأ معي المسألة وهو يدوّن المعطيات في ورقة بيضاء. عندما أنهينا القراءة كنت لا أزال في حيرة من أمري. دعاني للتفكير قليلاً فعرفت أنه عثر على الحل ولا يريد أن يدلني، لأتخلص من الواجب وأعود إلى شؤوني.

تمعنت في معطيات المسألة، كان بعضها موجوداً للتضليل فقط، فأقصيته ولم أحتفظ سوى بالمعطيات التي بدت لي ضرورية. ربطت فيما بينها بنوع من الحدس. شجعني أبي على الاستمرار، فظهرت النتيجة من تلقاء نفسها. لم أكن متيقناً، فلم يؤكد لي هل هي صحيحة، بل علمني طريقة للتفكير بالمقلوب للتحقق منها. أعجبتني الطريقة، وأردت أن أنسحب، لكنه أجبرني على حل مسائل إضافية. لم أفرح بذلك أول الأمر. قرأت نص المسألة الموالية على مضض، وجدت نفسي أستخرج المعطيات وألغي كل ما هو غير صالح، وعندما

وصلت إلى السؤال، ربطت بين المعلومات وخرجت بنتيجة، فكرت بالمقلوب وتيقنت من أنها صحيحة.

فرحت من جديد، وانتقلت إلى المسألة التي بعدها. وبعد ساعة وجدت نفسي قد حللت خمس مسائل. لم يكن هناك غيرها في ذلك الدرس، لأن باقي التمارين عمليات حسابية فقط. منذ ذلك اليوم تحولت إلى ولد يحب المسائل. حتى عندما يعجز كل القسم عن حلها، أرفع إصبعي. وحده وليد يرفع إصبعه أيضاً. تتركه المعلمة وتدعوني للسبورة لأنني التلميذ الكسلان وليس هو. كان لوليد طريقته المختلفة في الوصول إلى النتائج، التي تفاجئ المعلمة نادية، حتى تختلط عليها الأمور قبل التأكد من صحتها. فتقول لنا إنه يخترع نظريات جديدة في الرياضيات. كانت صداقتنا القديمة تعود في تلك اللحظات فقط، في المسائل المستعصية، لما يستسلم التلاميذ، ويبدو أن الأمر يؤلمهم داخل رؤوسهم. تمتلئ عيونهم بنظرات كلها بلاهة، كأنهم لا يفهمون اللغة التي نتحدثها. أحس بنشوة وأنا أحدس نتيجة كل مسألة. وأتخيل أنني مقبل على أن أصبح مخترعاً كبيراً كالذين قرأت عنهم في الموسوعة. ثمة نظريات كبرى مخبأة داخل رأسي أيضاً، عليّ أن أعثر عليها. شعور في غاية اللذة، ليس كالجلوس ومراجعة الدروس والتحضير للمراقبة المستمرة. أعرف أن مخترعين كثيرين كانوا سيئين في المدرسة أو غادروها مبكراً. أنا مثلهم. سأكون مخترعاً عبقرياً، وسأصنع اختراعات خارقة.

لم تكن مادة النشاط العلمي تتجاوز ساعة واحدة في الأسبوع. وكان كتابها أقل إغراء من موسوعة وليد التي كنت أرجع إليها باستمرار لأكمل معلوماتي. ألقيها في وجه الأستاذ اليعقوبي الذي لم يكن يعرف من أين آتي بكل المعلومات عن كل أولئك المخترعين. يسخر مني في كل مرة: "يجب أن تخترع لنا شيئاً أنت أيضاً". كان تلميذه المفضل هو كعبول الذي كان متفوقاً في المادة بصورة محيرة، يحب المعدات ويحسن استعمالها كأنه سبّاك أو ميكانيكي.

عرفت أن حلمي سيتحقق عندما درسنا ظاهرة الكهرومغناطيسية. كانت فقرة هامشية من درس الكهرباء، فبحثت في الموسوعة لأعرف عنها أكثر.

سحرتني إمكانية تحويل قطعة حديد عادية إلى مغناطيس. قرأت أن قدماء اليونان كانوا يسمونه حجر الفلاسفة، وتيقنت أنني سأجد ضالتي في ذلك الحجر. وجدت نفسي كالمخترعين الذين ينظرون بفضول إلى الأشياء العادية ويستخرجون الحلول من تفاصيل الحياة اليومية، فلمعت في رأسي فكرة خلق طاقة جديدة انطلاقاً من مجال التنافر بين مغناطيسين.

بدأت أجمع المغناطيسات لإجراء التجارب الأولى، فأصبحت جيوبي ممتلئة طوال الوقت بمختلف أشكال المغنطيسات المتكتلة. وضّحتُ لبيتشو أنني سأخترع محركاً يشتغل بالطاقة الكهرومغناطيسية. سيكون في وسع السيارات أن تستغني عن استعمال البنزين وتلويث البيئة وسنوقف ثقب الأوزون عن التوسع. فأخبرني أن مخترعاً نجح في صنع محرك سيارات يشتغل بالماء، اغتاله رجال الأعمال الأمريكان ودمروا كل المستندات التي تمكّن من الاستفادة من اكتشافاته. كان بيتشو يختلق طوال الوقت حكايات من هذا القبيل، مليئة بالمؤامرات والجرائم الغامضة، لكنني فكرت حينذاك أنه يقول كلاماً مفيداً، لذلك يجب أن أعثر على وسيلة لحماية تصاميم اختراعي وحفظها في مكان آمن.

سخر مني بقية الأولاد، فبرهنت لهم بعجلات سحبتها من سيارة صغيرة ومغناطيسين وبعض الأسلاك أن الأمر ممكن. إذا ما ظلّا على مسافة معينة، يمكن استعمال التجاذب أو التنافر المغناطيسي لتحريك العجلات. كان ذلك الشيء الصغير يتحرك فعلاً لبضع سنتيمترات قبل أن يتفكك وينهار، لأنني لم أجد بعد وسيلة لليّ الأسلاك وإحكام القبضة على المغناطيسين. أخبرهم أنني سأجري تجارب عدة لأدرس هذه الظاهرة، قبل أن أصنع سيارة صغيرة وأتمكن من التحكم فيها، سيكون ذلك هو الموديل التجريبي الأول. أقول لهم أيضاً إن طريقي ستكون مليئة بالمحاولات الفاشلة مثل إديسون. يندهشون. ثم يتخلون عن لعب الكرة وتتحرك داخلهم الرغبة في أن يصبحوا مخترعين أيضاً.

في الأيام الموالية، أخذوا يأتونني برسومات لمحركات سيارات تشتغل بتقنيات أخرى. صارت لكل منا فكرته، واستولت علينا حمى الاختراعات. اقترح

أحدنا أن نخترع أسلحة نقاتل بها بقية الحومات. كانت كلها أسلحة بدائية، مثل تحويل مصيدة فئران إلى منجنيق جيب، صرنا نخوض بها الحروب في سبيل كاميليا دون حتى أن تعلم. وقد ظل وليد بعيداً عن كل هذا، ينظر إلينا كأننا أطفال صغار يعبثون ويتقافزون في كل الاتجاهات. كان يقضي معظم وقته مع فراس مدعياً أنه يتعلم منه الإنكليزية. ظل متعالياً، ينظر إلينا كجيش من الكسالى يتنكرون بلباس مخترعين عباقرة.

لعل ذلك صحيح إلى حد ما، لكنني كنت متيقناً أنني مختلف عن بقية الأولاد. كنت في طريقي إلى اختراع شيء مهم وتحقيق إنجاز عظيم. أقضي وقتي في تجميع الأسلاك والقطع المعدنية واستخلاص المحركات الكهربائية من المعدات القديمة، وأخطط لاختراعات أخرى أرسم تصاميمها في دفتر خاص أسميته دفتر الاختراعات، حتى أصبح لي ثلاثة مشاريع إضافية سأتفرغ لها بمجرد الانتهاء من "المشروع الكهرومغناطيسي". كان أبي يشجعني ويعدني بأن يأخذني لتسجيل براءة الاختراع عندما يصير جاهزاً.

في تلك الفترة، زارنا مُخرج من القناة الصغيرة، كان يلبس معطفاً طويلاً مثل تحرٍّ خاصّ، يرافقه قزم يدّعي أن اسمه ميكو. فرحنا بزيارتهما، وأخبرنا أنهم يُعدّون برنامجاً عن أحلام الأطفال، سيصورون فيه التلاميذ من كل المدارس. سألتنا المعلمة ميلودة بعد رحيله هل لدينا أحلام، فاكتشفت أن الأولاد والبنات في القسم ليس لديهم أي أحلام على الإطلاق، إذ ظلوا في حيرة من أمرهم. كنت الوحيد الذي رفع إصبعه وأخبرتها أنني أريد أن أصبح مخترعاً، فلمع ضوء غامض في عينيها: "هذا حلم مزيان". يجب أن تعثروا أيضاً على أحلام من هذا النوع. لم يجرؤ أحد الكسالى الذين يدعون أنهم مخترعون أيضاً أن يرفع إصبعه. فازدادت حيرتهم وأخذوا ينظرون إليّ بغرابة شديدة، كأنني خرقت قاعدة لم يخرقها أحد من قبل.

أعطتهم المعلمة مهلة أسبوع للعثور على حلم صالح للتلفزيون. حاولوا الاستعانة بآبائهم وإخوتهم الكبار، لكنهم كانوا بلا أحلام أيضاً. لما عاد المخرج، انتقت له المعلمة تلاميذ من خندق المجتهدين. لكنه استمع لي بعد أن أنصت إليهم، فاحتفظ بي ولم يدرِ ما سيصنعه بهم.

خرجت في عز الدرس وذهبت للتصوير في ساحة الصغار. وقفت أمام الكاميرا وخلفي جدران مليئة بالرسومات. إنه ديكور جيد، قلت لنفسي. اشتعل مصباح الكاميرا الأحمر وأعطاني المخرج الإشارة بيده. أخذت نفساً عميقاً ثم بدأت أتكلم على حلمي بأن أصبح مخترعاً كبيراً. كنت أتكلم وحدي مع الكاميرا بينما لا يبدي المصور ومهندس الصوت أي تجاوب أو انفعال، فشعرت فجأة أنني مجنون وتلعثمت، وأخذت أقول جملاً بلا أي معنى. تدخّل المخرج قائلاً إنهم سيقطعون ذلك في المونتاج، وطلب مني أن أواصل كلامي. استأنفت كأنني مخدّر قبل أن أعود إلى القسم ويسألني الجميع ماذا حدث ومتى سيبث البرنامج. لم أكن أعرف؛ عليّ أن أترقب القناة الصغيرة صباح كل أحد. وقد ابتسمت لي كاميليا لحظتئذ ورأيت الدهشة في عينيها، فشعرت أنني أصبحت مُهماً، وصدّقوا جميعاً أنني أصبحت مخترعاً بالفعل.

اقترح الأستاذ عبقرينو مساعدتي، فاحتطت منه أول الأمر، لكنني ذهبت مع ذلك لأستفيد من أدوات الورشة، وساعدني في صناعة الهيكل الخارجي للسيارة من الخشب. وقد جئت بأربع عجلات من عندي بعدما سحبتهما من سيارة كهربائية. نجح في تثبيتهما في الهيكل الخشبي، الذي قضينا زوال يوم الأربعاء في صناعته. شعرت خلالها أنني سأحقق هدفي وسأصبح مخترعاً يحصد الجوائز، وأن كاميليا ستكون إلى جانبي وسنخوض رحلات حول العالم. كان الهيكل بشعاً، لكنه يفي بالغرض. عدت إلى الحومة فتجمع حولي الأولاد، قلت لهم بافتخار إنه الموديل التجريبي الأول، فدُهشوا من تقدم وتيرة الأشغال.

بعد ذلك عاد المخرج مع فريق التصوير مرات عدة لأن مدرستنا كانت حديثة البناء وجميلة. كانت الإدارة سعيدة بذلك لأنه إشهار جيد. ونحن كنا سعيدين أيضاً لأن ذلك يعفينا من الدرس، ولأن أجواء التصوير مدهشة.

نظموا لنا زيارة إلى المتحف الوطني الذي كان مليئاً بأدوات الإنسان البدائي، إنسان الهرهورة، كما كان يقول أبي عندما كنا نستكشف مغاراته في البحر، أنا ووليد. تظاهرنا بطرح الأسئلة على باحثة أركيولوجية ارتدت وزرة بيضاء خصيصاً من أجل البرنامج، وتظاهرت هي بالإجابة. ثم استخدمونا في

فيديو كليب لمغنية مشهورة، استعملوا فيه الساحة الصغيرة المليئة بالرسومات. أحضروا مسجلة وأبواقاً كبيرة وأطلقوا الأغنية وتركونا نجري في كل الاتجاهات بينما تتظاهر بالغناء. وفي مرة أخرى، جاءت طالبة في كلية طب الأسنان وسجلت معنا حلقة لتوعية الأطفال. دام ذلك الزوال بأكمله، فكانوا يشعلون أضواءً قوية كالشمس بينما تتساقط الأمطار في الخارج. أخبرنا القزم ميكو أنه كان يكره تنظيف أسنانه عندما كان طفلاً، ولذلك هو اليوم بلا أسنان.

في كل مرة، يبثون ما تم تصويره بعد أسبوعين، فيراه أطفال العائلة المنتشرة في كل المدن ولا يفهمون كيف أصبحت أظهر في التلفزيون. ومرة ظنوا أننا انتهينا من الامتحانات، لأنهم رأوني منهمكاً في الإجابة عن أسئلة الاختبار، وكانت تلك مجرد تمثيلية أجريناها من أجل روبورتاج عن امتحانات نهاية الدورة.

ظللت أنتظر أن يبثوا فقرة أحلام الصغار لكنها لم تظهر أبداً. قال لنا المخرج إن الأطفال أساؤوا فهمها، وأخذوا يحكون عن الأحلام التي يرونها في نومهم. أما الذين فهموا المطلوب، فكانوا يحلمون جميعاً بأن يصبحوا لاعبي كرة مثل مارادونا. لذلك لم يبثوها، في انتظار العثور على أحلام جديرة بالتلفزيون.

كان يجب أن أعود إلى اختراعاتي. قررت أن أحسم أمري ذات سبت. خصصت كل الصباح والزوال في تجريب المحرك بعد أن جمعت كمية كبيرة من الأسلاك والأشياء الكهربائية في كرتونة عملاقة. أخرجت كل شيء وفرشته في الأرض لأنجح في ربط العناصر مثلما أفعل في مسائل الرياضيات، وتحولت غرفتي إلى ورشة مخترع حقيقية. بعد ساعات، شعرت بالإنهاك الذهني فنزلت للعب لما سمعت أصوات أصدقائي أسفل العمارة. دخل هواء جديد إلى دماغي فشعرت أن طاقتي تجددت وأنني مستعد لمواصلة العمل.

عندما عدت إلى غرفتي كانت نظيفة تماماً ولا وجود لكرتونتي العملاقة. اكتشفت أن الخادمة ألقتها في الزبالة بطلب من أمي. كل الأسلاك، والمحركات المستخرجة من المعدات الكهربائية، والمغناطيسات

والكهرومغناطيسات، كلها ذهبت إلى المزبلة. انفجرت من الحنق، وأطلقت صرخات غاضبة، لكن الأوان كان قد فات. شعرت بالغليان وأنا أبكي على مستقبلي العلمي طوال ساعات. ضاع كل شيء ولم يتركوا لي في النهاية سوى الهيكل الخشبي للسيارة ودفتر الاختراعات، فوق التلفزيون.

# 14

## تصفيقات

أجرينا امتحانات الدورة الأولى، وجاء المدير السي سمير ليحدثنا عن ظاهرة البطالة. قال لنا إنها التسعينيات وإن البلاد عرفت سنوات من الجفاف وإن الظروف ستتحسن بمشيئة الله عندما سنكبر، لذلك يجب أن لا نيأس. لم نفهم لماذا يقول لنا كل ذلك. ظل يكرر أننا يجب ندرس للحصول على وظيفة في الدولة. ثم عاد مخرج القناة الصغيرة وأخبرنا أنهم يبحثون عن مذيعين جدد لتقديم نشرة الأخبار. فاختارت له المعلمة ميلودة مجموعة من التلاميذ الأنيقين، وبالطبع، كان من بينهم فراس ووليد وكاميليا. أنصت المخرج إلى طريقتهم في القراءة، وفي النهاية، اختار كاميليا، ثم حثّنا على الحضور لتشجيعها في أول تصوير لها.

أجرينا التصحيحات وجاءت نقطي متوسطة في معظم المواد فتوقعت أن أحصل على سبعة كمعدل. وهو المعدل المقبول من وجهة نظر أبي وأمي. غرقت المعلمة ميلودة في تجميع نقطنا وقسمتها، ولم نعد ندرس شيئاً في القسم. ظلت تفعل ما في وسعها للتحقق من نتيجة كل واحد. امتد ذلك ثلاثة أيام، وفي كل مرة تسأل أحدنا هل يريد أن يعرف معدله في الحال أو يفضل انتظار لحظة استلام النتيجة. فكان الجميع يوافقون، بمن في ذلك الكسالى، فيسمع كل القسم على كم حصل كل واحد. كانت النتائج جيدة على نحو مشجع. كل مرة يسمع أحدهم معدله، يقفز من الفرح وسط تصفيقات التلاميذ، وقد حصل كل من وليد وفراس وكاميليا على ثمانية. لهذا، عندما نطقت المعلمة اسمي وسألتني هل أريد أن أعرف، وافقتها فوراً. أخذت نفساً عميقاً وأنا متفائل بعد تلاحق سلسلة من المعدلات الجيدة.

نطقت المعلمة بنبرة محايدة: 61.6.

كان الرقم صاعقة حقيقية جعلت العالم يتوقف داخل رأسي. كان ذلك شبيهاً بانهيار مهوّل لا يتوقف؛ إنني في المؤخرة بكل تأكيد! حصل بيتشو على 28.6، نتيجة سيئة أيضاً، لكنه لم يعبأ للكارثة، لأن أباه يملك محلاً لبيع مواد البناء؛ سيشتغل معه عندما يكبر، وأمه ربة بيت ماهرة تطبخ لهم الشهيوات.

تلقيت تلك النقطة المهينة كضربة قاضية. وكان علي أن أوقّع النتيجة من طرف وليّ أمري. كتمت السر داخلي. في البيت، بقيت أفكر طوال الوقت في الكيفية التي يمكنني بها أن أخبر أمي كي أحصل على توقيعها. يوم الجمعة، نظمنا حفل رأس السنة وسلّمونا النتائج. أفرغنا القسم من الطاولات وزيّناه بالبالونات والأوراق الملونة. حصل فراس على الرتبة الأولى ورقص بسعادة على أنغام "ديدي" للشاب خالد، بينما شعرت بالخجل من نظرة المعلمة نادية وهي تمد إلي النتيجة الصفراء. طويتها جيداً وخبأتها في جيبي.

أعطاني أبي ورقة نقدية من فئة عشرة دراهم لشراء المونادا والحلوى. لكنني لم أفعل، لأن ما أحضره الآخرون كان كافياً وأكثر. كانت ورقة الدراهم العشرة جديدة وذات رائحة منعشة. حتى أن بنات القسم تجمعن حولي عندما أخرجتها لأُريها لبيتشو، وصاحت كاميليا من بينهن: "زيكو زيكو، أعطيها ليا". وجدت نفسي أمدّها إليها دون تفكير، وقبل أن أفهم ما فعلته أخذت تتقافز من الفرحة في الجانب الآخر من القسم.

في البداية، فرحت وأنا أراها تبتعد لتريها للبنات الأخريات، كأنني أقدمت على فعل شجاع. انضممت إلى مجموعة الأولاد الذين لم يتابعوا المشهد، وتدريجياً بدأت أشعر بالقلق ثم بالندم لأنني لن أحصل على عشرة دراهم أخرى قبل زمن، خصوصاً بعد أن يعرف أبي النتيجة. وبعد حين عادت كاميليا وأرجعتها إلي معتذرة. بدا كأنها تداولت الأمر مع البنات الأخريات فنصحنها بذلك.

انتهت الحفلة، وعدنا إلى منازلنا. كان يجب أن أتدبر أمر الآلة الحاسبة. لدينا واحدة صغيرة يضعها أبي في الفيترينا مع الديكورات التي يحضرها من أسفاره. أُخرجها دون أن ينتبه إلي أحد. أُقفل علي في الحمام وأعيد حساب النتيجة مرات عدة، لم يكن هناك أي خطأ. ظل ذلك المعدل اللعين يعود في

كل مرة على شاشتها الإلكترونية. بقي أمامي أن أزوّر توقيع أمي. توقيع أبي بسيط جداً، من شدة رشاقته لا ينجح أبداً. فكرت أن أحوّل ستة إلى ثمانية. لكن ذلك سيعرضني لأخطار أكبر. لم يكن لدي خيار، كنت في مركبة تنطلق بسرعة خارقة نحو الحائط، لم يعد أمامي سوى الاستسلام لفكرة الارتطام.

يوم السبت حاولت اللعب في الصباح، أعطيت لنفسي مهلة جديدة، تظاهرت أنني ولد مطيع، وفي المساء، لم يكن أبي موجوداً في المنزل، فقفزت في الهواء.

قدمت النتيجة إلى أمي بينما كانت منهمكة في تغيير حفاظات أختي. رأيتها تدخل في صمت عظيم وهي تقرأ تفاصيلها. فكرت أثناء ذلك أنني قد تحررت على الأقل من الخطوة الأولى التي ظلت تنغص عليّ حياتي في الأيام الأخيرة. طرحت عليّ سؤالاً واحداً: "شحال جاب وليد؟". لم تعجبها الإجابة على الإطلاق.

بدأت تعلّق على النقطة التي حصلت عليها في كل مادة، ثم رسمت لي خطة للتطور في الدورة الثانية. أخبرت أبي أن عليه مساعدتي في الفرنسية، فوافقها على مضض،ولم يشأ إلقاء نظرة على النتيجة.

انتهى الكابوس، ويوم الأحد ذهبت مع بيتشو في سيارة أبيه إلى القناة الصغيرة. كان شكله مضحكاً، دهن شعره بالجِل وارتدى بدلة زرقاء وربطة عنق مزيفة، كأنه ذاهب إلى عيد ميلاد. وصلنا زنقة البريهي قبل الساعة التاسعة. جمعونا مع الأطفال الآخرين في مدخل بناية القناة الأولى، ثم أدخلونا بعدما عبرنا الحواجز. أحسست أنني أدخل عالماً سحرياً يشبه المطار، بأضواء ناصعة وواجهات زجاجية. كان قلبي يخفق من شدة الدهشة، هناك أبواب كثيرة وكولوارات لولبية، لذلك علينا أن نبقى ممسكين ببعضنا بعضاً حتى لا نتيه. وصلنا أخيراً الاستوديو الذي يشبه مسرحاً كبيراً مليئاً بالكراسي الحمراء، وتركونا نجلس أينما نريد.

جلسنا في مواجهة بلاطو التصوير. فيه ديكور لبرنامج مسابقات، وفي ركن بعيد توجد منصة ستقدم منها كاميليا الأخبار. وخلفنا غرفة بواجهة زجاجية تشبه برج المراقبة، مليئة بالشاشات والمعدات الإلكترونية. في إحدى تلك

الشاشات، رأيت كاميليا تجلس وسط خلفية مليئة بالورود، وعندما نظرت أمامي رأيتها تجلس في المنصة وخلفها حائط أزرق. أدهشني أن يغيّر التقني الخلفيات. لم نكن نرى المخرج في الظلام، لكننا نسمع صوته وتصلنا رائحة سجائره وهو يعطي تعليماته للكل.

أخذت كاميليا تقرأ في الشاشة المكتوبة أمامها ببراعة شديدة، لم تكن تخطئ أبداً. دُهش التقنيون لأنهم لم يحتاجوا إعادة التصوير رغم أنها أول مرة تفعل فيها ذلك. كان يبدو أنها وُلدت لتصبح مذيعة.

ثم صوّروا برنامج المسابقات الذي كان ينشطه ولد مغرور لا يشعر بأدنى ارتباك أمام الكاميرات. وقبل ذلك رأيت شخصاً يشبه مدرسّاً، بلحية وشعر كثيفين وكرش كبيرة، جاء باكراً وجلس قرب المخرج ليكتب أسئلة المسابقة الثقافية في بطاقات ملونة، وقد أخذ منه ذلك نحو ثلاثين دقيقة، كتب فيها السؤال تلو الآخر: ما هي عاصمة ألبانيا؟ ما الاسم الذي نطلقه على ابن الزرافة؟ ما هي الكواكب الموجودة بين الأرض والشمس؟ من هو مخترع التلفزيون؟

ثم أعطوها للولد المغرور. أخذ كلا الفريقين مكانه. ابتدأت المسابقة وفهمت منذ التصفيقات الأولى أن الجمهور منقسم إلى خندقين، كلٌّ يشجع فريق مدرسته. وحدنا، أنا وبيتشو، جئنا لتشجيع كاميليا، ولم تكن هي تعلم حتى بوجودنا. توالت الأسئلة على المتسابقين، وكانت كل أجوبتهم غير صحيحة.

أوقف المخرج التصوير وأعطاهم الإجابات الصحيحة قبل الاستئناف. في كل مرة، يتظاهر الأطفال بالتشاور فيما بينهم قبل الإجابة، ثم يتظاهرون بالقلق من رد فعل المقدم المغرور. ويتقافز القزم ميكو الذي تحوّل إلى بهلوان بالمناسبة، وأخذت النقط في العداد الإلكتروني ترتفع بينما يصفق الجمهور ببلاهة. شعرت بالخذلان وأنا أرى ذلك، كنت أعتقد أن أطفال المسابقات أذكياء فعلاً، ويختارونهم لأنهم خارقون.

انتهى التصوير، وخرجنا للغداء. اشترينا سندويشات داخلها سمك معلب بصلصة الطماطم وموناداً. كان ذلك سبباً كافياً لنكون أكثر من سعيدين، أنا وبيتشو الذي لم يتوقف عن الضحك. بعد أن اشترى الجميع غداءه، حشرونا

في قاعة صغيرة لنأكل. جلسنا على كراسيَّ خشبيةٍ متزاحمين، ولم يكن هناك من الأكسجين ما يكفي للجميع.

رأيت كاميليا بعيدة عنا. أحضروا إليها غداءها. ثم مرّ جنبنا الولد المغرور متصرفاً كنجم مشهور. نظر أيضاً إلى كاميليا وفهمنا أنه يعدّ نفسه لمعاكستها، فقررنا، أنا وبيتشو، أن نقطع عليه الطريق.

بدأ يحتك بالأولاد ليستعرض قوته أمامها. فاستغللت الفرصة للانقضاض عليه. وما إن تماسكنا بملابسنا، حتى شعرت بقوة تسحبني إلى الخلف. نظرت ورائي فرأيت رجلاً عملاقاً بلحية وحقيبة مكدسة بالأوراق، عرفت فوراً أنه المدرّس الذي كان يكتب أسئلة المسابقة. سألني بمرح: "تريد أن تتعارك؟". كانت له كرش كبيرة وظهر القزم من خلفه بعد أن تخلص من المكياج وملابس البهلوان. نفخت صدري بثقة في النفس. عندذاك أمسك رأسي وضربه مع كرشه فحلقتُ في الهواء وسقطت وسط الأولاد الآخرين الذين أخذوا يقهقهون بصوت واحد. تطوّع أولاد آخرون لمهاجمته فكان يرطم رؤوسهم بكرشه ويتقافزون إلى الوراء ضاحكين واحداً بعد الآخر.

عدت إلى المنزل وأنا أشعر بنشوة من حقق إنجازاً. أحسست أن علاقتي بكاميليا آخذة في التطور، قبل أن أخرج في المساء لجلب أغراض من البقال. كان الجو يبعث على البؤس لأنها كانت ستمطر ولم يكن هناك أحد من أصدقائي. وفجأة وجدت نفسي محاصراً من أولاد الحومة الخامسة، لم أدرِ من أين خرجوا، وأخذوا يتكاثرون بسرعة مذهلة، حتى فقدت الأمل في مواجهتهم كبروسلي أو جاكي شان. ظهر من بينهم الروبيو الذي كان قد أصبح صديقي تقريباً. وعرفت في الحال أن خبر الدراهم العشرة قد وصله، بل انتشر في كل الحومات. اعتبر الروبيو أنني عاكست أخته، وأن الوقت قد حان كي أدفع الثمن.

حاولت أن أشرح له أنني لم أفعل شيئاً، وفكرت في ذلك الحين أن ما فعلته كان حماقة كبرى. أعدت المشهد في رأسي مثل جهاز فيديو. في كل مرة كانت تطلب مني فيها الدراهم العشرة، أعطيها إياها بلا تردد. لكنها هي من يطلبها. حاولت الدفاع عن نفسي مستعملاً تلك الحجة، وكان الأولاد الآخرون

يضحكون بطريقة شريرة مثل الرسوم المتحركة، كأنهم لا يسمعون ما أقول. أخبروني أنهم سينزعون سروالي ويتركونني في المطر. حاولت أن أظل متماسكاً متخيلاً أن ذلك أبسط ما يمكن أن يحدث. في تلك اللحظة، اقترب الروبيو مني، وأمسك رأسي وقال: "هذي المرة الأخيرة. خاصك تعتبرها بحال اختك". فحركت رأسي موافقاً. ثم واصل: "إذا أزعجها أحدهم، فستأتي لتخبرني". ثم أخذ المطر يتساقط بغزارة، فتركوني قائلين إنني لن أكون محظوظاً في المرة المقبلة.

# 15

## المعجزة

بعد أيام سافرت مع أمي إلى أصيلة. حسام ابن خالتي الكسلان حصل على نتيجة أسوأ مني. لكن فؤاد، ابن خالتي الآخر، كان مهووساً بالسؤال عن النتائج، فظل يلاحق أمي: "خالتي، شحال جاب زيكو بالفاصلة؟". لم يصدق عندما عرف أنني حصلت على ستة. قهقه عالياً فشعرت بالإهانة بعد أن حصل هو على ثمانية. حاولت أمي إقناعه أن الدراسة تصبح أصعب عند الصعود إلى الأقسام الكبرى، وأنه لا يمكن المقارنة بيننا، لكن الحيلة لم تنطل عليه.

صرت أنصاع كلياً عندما يأتي وقت إنجاز التمارين. أنهيتها كلها قبل أن ألتحق ببيت عمتي زكية. هناك لم يكن المعدل مشكلة. فقد كانوا يعدّون "ستة" نقطة جيدة لأنها فوق المعدل، وأن لوحة الشرف شيء مُشرف، في حين كنت تشعر معها أنك تفقد شرفك كلياً.

ظللت أفكر في ما سأفعله بالدراهم العشرة التي حافظت عليها منذ الحفلة المدرسية. كلما عثرت على فكرة، أستبعدها لسخفها، مفضلاً الحفاظ عليها مزيداً من الوقت. أريتها لبنتي عمتي، آية وإحسان، ودُهشتا لكونها ورقة نقدية جديدة ورائحتها منعشة. طويتها مرات عدة حتى أصبحت مربعاً صغيراً، وحشوتها في الجيب العلوي لسروالي، وبقيت خلال اللعب أدس إصبعي داخله للتحقق من وجودها كل مرة.

في الصباح الموالي بعد الإفطار، صعدوا جميعاً للصلاة في الصالون العلوي، بمن في ذلك آية التي كانت تصغرني. بقيت وحدي في غرفة المعيشة. شعرت أنني في مأزق حقيقي، وتذكرت أنني وعدت الله أن أواظب على الصلاة إن أنقذ حياة أختي، وقد نجت في النهاية لكنني أخلفت الوعد. اقتربت من التلفزيون وأمسكت الشريط الذي تركه عمي عبد السلام فوق جهاز الفيديو. قرأت عنوانه: "الطفل المعجزة". شعرت بالفضول. من يكون هذا الطفل؟ وما

المعجزة التي يفعلها؟ لم أقدر على تخيل شيء أكثر من طفل يطير في السماء.

عندما عاد عمي عبد السلام، أدخل الشريط في جهاز الفيديو. جلست متحيناً البداية. ألوان الصورة باهتة، صوت تلاوة **القرآن**، ملعب مليء بالجماهير وفي قلبه منصة يجلس فيها طفل لا يتجاوز الخامسة. مثل المسلم الصغير، يرتدي قميصاً طويلاً وطاقية لونهما أبيض. تنظر إليه الجماهير بجوع أعجز عن فهمه. يتكلم الطفل في الميكروفون: "اللهم أطلق سراح مساجيننا... عباسي مدني وبلحاج..."، فتردد الجماهير وراءه، تأتي جملتهم كموجة صوتية عملاقة، تحرك رعشة داخلي، بل تجعل الأثاث يرتعش في البيت.

سألت زوج عمتي عن الذي نراه، فأخبرني أن الدولة في الجزائر قبضت على الإسلاميين لأنها لا تحترم الديموقراطية، بعد أن نجحوا في الانتخابات رغماً عنها. لذلك، تجمع الشعب حول الطفل ليكون خليفة أبيه. فالحكومة لن تجرؤ على اعتقال طفل، ومهما اعتقلت، فإنها لن تقدر على سجن شعب بأكمله.

نزلت آية وإحسان جرياً لمشاهدة ما يحدث، فأعدنا المشهد من الأول، لتتضاعف الرعشة داخلي. فكرت في ذلك الطفل طوال اليوم، وظلت كلماته تتردد بصداها الجماهيري في رأسي حتى بدأت أشعر بالهذيان.

في تلك الليلة، عندما ولجت الفراش للنوم، تذكرت أول مرة سمعت فيها عن الجنة. في القسم التمهيدي، من فم طفلة غريبة الأطوار، قبل حتى أن أعرف ما هو الموت. كانت لا تنظر إلى الأسفل أبداً، فكنا نجر الكرسي بخفة عندما تهب للجلوس وينجح المقلب معها في كل مرة، تسقط على الأرض ونضحك عليها وعلى استعلائها. في المرة الوحيدة التي أجلستني المعلمة جنبها، بدأت تحكي بحماسة عن الجنة المليئة بالفواكه، فتخيلت أنها مجرد حديقة. كانت تحكي وأنا أنظر إلى الجدران خلفها مليئة برسومات الأشجار والفواكه، فخطر لي أننا موجودون في الجنة في تلك اللحظة، وأنها ليست سوى قسم من أقسام المدرسة.

ثم تذكرت موت جدي وأنا في الخامسة. لم أفهم حينذاك لماذا كانت خالاتي جالسات في الصالون بعيون حمراء منتفخة، ولماذا جاء رجال غريبون بجلاليب يتلون **القرآن**. لم أفهم إلا في اليوم الموالي، عندما ذهبنا لزيارة قبره الذي كان لا يزال من تراب. وقد أخبرني ابن خالتي الصغير أنه موجود الآن تحت الأرض. بقيت ساهماً في الأمر وأنا أرى النمل يتحرك بكل أريحية فوق كومة التراب. عند خروجنا من المقبرة، صدمني مشهد القبور الصغيرة، لا يتعدى طولها عشرات السنتيمترات. صدمني المنظر لأنها كانت كثيرة، ولأنني لم أتصور حتى ذلك الوقت أن الأطفال أيضاً يموتون.

بعد ذلك بشهور أخبرتنا المعلمة أن الإنسان عندما يموت ويدفن يأكله الدود ولا يبقى منه سوى العظام. كانت تحكي ذلك بنبرة مزاح كأنه مشهد رسوم متحركة. ثم أخبرتنا معلمة أخرى بما يحدث فعلاً. توقفت عن إلقاء الدرس، وجلست على طاولة وسط القسم. تكلمت عن ميزان الحسنات والسيئات، وأخبرتنا أن الإنسان الشرير يشعر بقبره يضيق عليه، خانقاً أنفاسه في انتظار يوم القيامة، في حين أن الإنسان الطيب يبقى منشرحاً في قبر فسيح كأنه يطل على الجنة. لم أكن حتى تلك اللحظة أعرف ما هو الله، فسألت أمي وأخبرتني أنه خلقنا جميعاً، وأنه موجود في كل مكان، يرانا رغم أننا لا نراه، حتى عندما نختبئ، وأنه يعرف كل ما يدور في رؤوسنا وقلوبنا.

ظلت الذكريات تتعاقب في رأسي بعدما تكومت تحت الغطاء. تذكرت عين الشيطان المختبئ تحت الأرض، وكيف كشف وليد الخدعة، وكيف جرني معه في لعبة الكفار والمسلمين ذات مرة في مدرستنا القديمة، عندما كان جميع الأولاد يلعبون دور المؤمنين، فلا نجد كافراً واحداً نقاتله. كان يتطوع ليكون ذلك الكافر الوحيد، يقنعني أن أنضم إليه قائلاً إنني مثل عنتر بن شداد وهو شيبوب، وأنا أقتنع لأن عنتر بن شداد ليس مسلماً وليس كافراً، ولم أكن أعرف ما الذي كان عليه بالضبط، قبل أن ينضم إلينا ولد كسلانٌ يتلذذ بتلقي الضربات. نستعمل أذرعنا كسيوف ونقاتل ببسالة، نحن الثلاثة ضد بقية القسم. كانت المعركة ممتعة لدرجة أنني تمنيت ألا تنتهي الاستراحة أبداً. ثم شعرت بالتأنيب لأنني حاربت في خندق الكفار. بقيت أتذكر ذلك كل يوم، خلال

جولة الحافلة المدرسية التي تمر جنب مقبرتين. أتذكر الموت كل صباح وأنا أرى أشعة الشمس تنعكس على القبور، وأتذكر جدي والأطفال الذين لم ينجحوا في البقاء على قيد الحياة.

نمت تلك الليلة ورأيت أحلاماً كثيرة منها أنني كنت أطير عالياً في السماء ومن تحتي الجماهير تصرخ هاتفة: "الله أكبر".

وفي الصباح، طلبت من عمي عبد السلام أن يعلمني الصلاة، فسألني مستغرباً: "ألا يعلمونكم ذلك في المدرسة؟"، فكذبت عليه. سألني مجدداً: "لا بد أنهم يحفظونكم **القرآن** على الأقل؟"، فتذكرت "يوم الواقعة" وهجمت عليّ ذكريات سيئة، قلت له: "إنهم يحفظوننا بالعصا، لذلك ننسى بمجرد الاستظهار".

فسكت كأننا أمام مشكلة يستعصي حلها، قبل أن يقترح علي خطة عمل: "يمكنك أن تبدأ بحفظ السور القصيرة..."، وترك عمتي زكية تختار لي تلك السور، وذهبت إلى مكتبه حتى أركز. كنت أنادي إحسان كلما حفظت سورة جديدة وأستظهرها عليها، وهي تتحقق من صحة كل كلمة. وقبل الغداء، كنت قد حفظتها كلها. فرحوا بي كثيراً، وشعرت أنني أقدمت على أول الخطوة للخروج من خندق الكفار الذي أدخلني إليه وليد في تلك اللعبة اللعينة.

صلينا جماعة بعدما تمرنت على كل الحركات. كانت تلك أول صلاة حقيقية لي، الرجال في المقدمة والنساء في الخلف. ركزت فيها على كل ما يجب فعله وتلاوته، بل تخيلت سيدنا إبراهيم أمام خيمته يمسك عصا وسط زوبعة رملية، ولا أدري من أين جاءت تلك الصورة، لكنني رأيتها وكان علي أن أركز من جديد وأذكّر نفسي أن هذا ليس فيلماً وأننا لسنا في السينما. وشعرت عند انتهائها بمزيج من الفرح والراحة العميقة، راحة من خفافيش الموت ويوم القيامة وسورة الواقعة وعين الشيطان وحتى النتائج المدرسية السيئة. أحسست أنني أصبحت نظيفاً من الداخل بعد أن كنت ممتلئاً بالقاذورات.

في اليوم التالي، كانت مائدة الإفطار مليئة بالمأكولات اللذيذة كالعادة، فأكلت بشراهة مستمتعاً بطعم كل طبق. صلينا جميعاً بعد ذلك، وتجدد إحساسي بالنقاء الداخلي. حشوت إصبعي في جيبي الصغير ولم أعثر على

ورقة الدراهم العشرة التي ظللت أحافظ عليها. لم أشعر بالرعب أو القلق أو أي شيء. لم أفكر حتى أنني فقدتها. استرجعت في ذهني ما فعلته ذلك الصباح. رافقت آية عند البقال لشراء أغراض للإفطار ورجعنا. عندئذ خرجت من البيت، وتبعتني آية دون أن تعرف ما اعتراني. مشيت مقتفياً الأثر الذي جئنا منه، وبعد حين رأيت الدراهم العشرة على الأرض مطوية بعناية. انحنيت عليها والتقطتها وسط دهشة آية التي قالت: "ألف فرانك أخرى". أخبرتها أنها هي نفسها ورجعنا نجري إلى البيت. أخبرت آية كل المنزل بما حدث، ودُهش عمي عبد السلام من الأمر. استغرب أن أحداً من المارة لم ينتبه إليها ويلتقطها. وظل يكرر كلمة "عجيب" في كل مرة أعيد فيها عليه تفاصيل الحكاية.

شعرت أن صلاتي هي التي جعلتني أعثر على النقود. وفكرت في الفوائد الأخرى التي يمكن أن أجنيها من المواظبة عليها. لا بد أن قوة خارقة ظلت كامنة داخلي استيقظت الآن. لقد أصبحت إنساناً جديداً، سيساعدني هذا في رفع نتائجي المدرسية، وربما في الحصول على الرتبة الأولى والفوز بقلب كاميليا، وتذكرت الآية التي حفظونا إياها في القسم: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

في تلك الليلة، نمت وأنا أشعر بالارتياح العميق، مؤمناً أن الأيام المقبلة ستكون في مصلحتي. في اليوم الموالي، بدأت حماستي تخفت من حيث لا أدري، كان اليوم الأخير في بيت عمتي قبل أن ألتحق بأمي ونعود إلى الرباط. عندما جاء موعد الصلاة، وبعدما أنهيت الوضوء شعرت بالرغبة في الحزق. قاومت أول الأمر لأنهم درسونا أن خروج الريح من مفسدات الوضوء. لكنني حزقت في النهاية، ففسد الوضوء واضطررت إلى تجديده، ثم حزقت مرة أخرى وأخرى. كنت أعود كل مرة إلى صنبور الماء قلقاً، وسألتني عمتي عما يحدث، فأخبرتها. تجهمت بجدية وأخبرتني أن الشيطان هو المسؤول!

# 16

## الجهاد الأصغر

مع عودتنا إلى البيت، تحولت الصلاة إلى مهمة صعبة. كل يوم، أعود من المدرسة، أتوضأ وأمشي في بهو المنزل والماء يتقاطر مني. أبحث عن القبلة التي لم أستطع التيقن منها أبداً، ثم أبدأ استدراك الركعات. تراكمت الركعات يوماً بعد يوم. قاومت في الأسبوع الأول. وفي الأسبوع الثاني، هزمني الشيطان. شعرت أن ديوني تتكدس، فقررت أن أعلن الإفلاس. قلت لنفسي سأتوقف مؤقتاً لكنني سأعود إلى المعركة لاحقاً.

أصبحت كاميليا تظهر في التلفزيون صباح كل أحد. عندئذ فكرت أن الروبيو سيحتاج جيشاً كاملاً لحمايتها من معاكسة كل أولاد المغرب.

واصلت الحفاظ على الدراهم العشرة إلى أن ذهبت مع أبي إلى الحمام العمومي. قبل أن ندخل، توقفنا عند محل عطارة لشراء الصابون البلدي، لمحت عنده مسبحات معلقة، فأردت شراء واحدة. استغرب أبي لكنه استسلم لأنني سأشتريها من مالي الخاص. سبعة دراهم ونصف. مسبحة بلاستيكية سوداء، فيها تسعٌ وتسعون حبة. قال العطار ذو اللحية المشعثّة: "تبارك الله، أولاد اليوم فاهمين أهمية الدين، حنا كنا ضايعين...". ابتسم له أبي مدعياً موافقته. أما أنا، فقررت تعويض الصلاة بالتسبيح، كخطوة تكتيكية.

ظللت أفكر في فشلي كل ليلة قبل النوم. خمنت أن أبي وأمي هما السبب. والدليل على ذلك أنني لا أبذل مجهوداً جباراً عندما أكون في بيت عمتي زكية، فحياتهم منظمة حول مواقيت الصلاة، وهم يحفزون بعضهم بعضاً على أدائها. أما نحن، فنعيش في فوضى متواصلة. أمي تصلي متى يحلو لها، في المناسبات أو عندما تريد أن تطلب من الله شيئاً. وأبي يعود كل ليلة أحمر اللون ورائحة الشراب تفوح منه. أعرف أنهما على خطأ، وأن الأمور ستسهل

علي إن عادا إلى الصراط المستقيم. عندئذ يمكننا أن نحلم بدخول الجنة جميعاً.

صرت أقارع أبي كل يوم، خلال وجبة الغداء، ليقلع عن شرب الخمر. لم ينجح أبداً في إقناعي، كيف يمكن أن يشرب ويكون مسلماً في الآن نفسه. كل الأفلام واضحة في هذا المجال: الكفار أشرار ومنحرفون لأنهم يسكرون، والمسلمون نظيفون ومهذبون لأنهم يواظبون على الصلاة.

بعد أسابيع، سافرت من جديد إلى أصيلة. فمنعتني أمي من المبيت عند عمتي زكية بدعوى أننا سنقضي ليلة واحدة فقط ونعود مبكراً. لم يكن يهمني ذلك، فقد كانت معي مسبحتي السوداء، وكنت لا أتوقف عن التسبيح أبداً، كأنها طريقتي الخاصة والسهلة في الصلاة. تذكّرني طوال الوقت أنني يجب أن أعثر على وسيلة للتغلب على الشيطان للعودة إلى الصلاة الحقيقية.

وفي وجبة الغداء مع جدتي، أخبرت أمي الجميع بما صرت أفعله وكيف أنغّص عليهم لحظة الطعام كل يوم. أشعرتني بالخجل، لأنهم انتقدوني جميعاً، بمن في ذلك الذين يصلون، بل حتى جدتي التي كانت تقف في صفي عادة، قالت لي إن طاعة الوالدين هي أول شرط للولد المسلم.

جاءت عمتي زكية في المساء مع بنتيها لزيارة جدتي. ولاحظت أنني صرت أملك مسبحة، فابتسمت وبقيت صامتة، ثم عادت مبكراً في اليوم التالي، ووضعت في يدي بخفة مسبحة صغيرة. كانت جميلة جداً من الفضة وفيها ثلاثٌ وثلاثون حبة فقط، في كل حبة نقوش بديعة ظللت أداعبها متلذذاً طوال رحلة العودة بالقطار.

تخليت عن المسبحة البلاستيكية وأصبحت أحمل معي الفضية في كل مكان. كانت تبدو كأنها شيء سحري يحميني من الأخطار ويعطيني قوة خارقة. أمتنع عن اللعب في المدرسة وقت الاستراحة، وعندما يأتي أحدهم ليرى ما أفعله يجدني غارقاً في تحريك الحبات المنقوشة بين أصابعي، فيصدمه منظري وقد كبرت وأصبحت زاهداً عن اللعب. أما وليد، فسخر مني بكل وقاحة قائلاً: "تبارك الله على مولانا الشيخ"، وأضحك معه الأولاد والبنات، فتجاهلتهم جميعاً لأنهم لا يعرفون.

أجرينا المراقبة المستمرة، وعادت إليّ المخاوف القديمة. طلبت من الله ألا تتدهور نقطي، فتتراجع مرتبتي وأخسر مقاعد أخرى. كنت أحس أن الجلوس قرب كعبول أو حتى وراءه صار خطراً وشيكاً؛ قطعت وعداً جديداً مع نفسي: سأصلي دون توقف هذه المرة إذا ما ارتفعت نقطي.

جاءت نتائج المراقبة المستمرة الأولى فوق المتوسطة، تنفست الصعداء، لم أربح سوى مقعدين، لأن كل التلاميذ أخذوا يعملون بجد ليحسّنوا ترتيبهم. ارتفعت نقطي بالفعل لكنني لم أنفذ وعدي، فأخذت بالتنازل في الاختبارات الموالية. عندئذ بدأت أدرّب نفسي على توقيع دفتر المراقبة المستمرة، حتى أصبحت قادراً على نسخ توقيع أمي بشكل مطابق للأصل.

منذ ذلك الحين هاجمتني المخاوف والإحساس بالذنب كل ليلة. أخبرتنا المعلمة ميلودة بضرورة نطق الشهادتين قبل النوم حتى لا نموت كافرين أثناء نومنا. أُشَهِّدُ كل ليلة مرجحاً احتمال أن أموت خلال نومي. أتساءل ماذا سيكون وضعي بعد أن انصرفت عن الصلاة، وأصبحت أزوّر توقيع أمي وأكذب على الجميع حتى لا يكتشفوا نقطي. ثم حلمت أنني سرقت دبابيس من القسم، ووضعتها داخل زجاجة الخمر التي تركها أبي في الثلاجة لأسابيع. عندما شربها أخيراً، انفجر الدم من حنجرته ومات!

منذ تلك الليلة، أصبحت أشعر أنني عالق بالمشكلات التي ترفض أن تتركني أنطلق بحرية. كنت أحس أن بطني مليء بالسلطعونات، ومن شدة التفكير في الموت، قررت الانتحار، لأن ذلك سيوقف كل شيء ويجعلني أرتاح من هذه الحياة اللعينة. أصبحت أخطط طوال اليوم لوسيلة فعالة في تحقيق ذلك، وأستجمع شجاعتي لتنفيذها في الليل بعد أن ينام الجميع.

فكرت في فتح الغاز، لكن أبي حذر من الرائحة، يتحقق منها كل ليلة، ثم أنها ستؤدي إلى قتل الجميع. وانتقلت إلى القفز من النافذة، نظرت منها طويلاً محاولاً تصور الألم الذي سيسببه الوقوع من الطابق الثالث. تخيلت تلك الرحلة الهوائية مرات عدة، في كل مرة يرتطم رأسي وتتكسر عظامي ويتشتت جسمي فوق الأرض متحولاً إلى كفتة. لم أجد الشجاعة أبداً لتنفيذ تلك الخطة.

وقد جربت أن أربط ساعدي بخيط مطاطي كل ليلة لأموت وأنا نائم، معتقداً أن ذلك يشبه تمزيق الشرايين بشفرة حادة. كانت وسيلة جيدة لتعذيب الذات على الأرجح، يتوقف الدم عن الوصول إلى الأصابع فتتنمل اليد قبل فقدان الشعور بوجودها كلياً. في كل صباح، أستيقظ حياً، وأجد أنني نزعت الخيط دون أن أعي خلال نومي.

فكرت في شرب علبة دواء كاملة، لكنني فعلتها عندما كنت صغيراً فأخذوني إلى الطبيب في الوقت المناسب وأنقذوني، وبعد ذلك غططت في نوم عميق ثلاثة أيام. ثم خطرت لي أخيراً فكرة أن أنقطع عن شرب الماء، لأننا درسنا أن الإنسان لا يقدر أن يعيش بلا ماء. امتنعت عن الشرب دون أن ينتبه إلي أحد، في المدرسة وفي مائدة الغداء، كنت أقاوم العطش منتظراً أن أموت تلقائياً. قاومت العطش طوال الوقت للتخلص من لعنة الحياة المليئة بالامتحانات.

وبعد خمسة أيام عدت من المدرسة ودخلت الحمام مباشرة، فتحت الصنبور دون تفكير وأخذت أشرب بكل تلقائية كميات هائلة من الماء، ولما شعرت بالارتواء، اكتشفت أنني نسيت تماماً مشروع الانتحار، وعوضني عنه طعم الماء الذي أصبح لذيذاً، فامتزجت متعة الارتواء بمتعة العودة إلى الحياة. أخبرني أبي لاحقاً أن الفواكه والأغذية غنية بالماء، ففهمت لماذا بقيت حياً كل تلك المدة. وشعرت أن الانتحار عملية عسيرة للغاية، وأنه من الأجدى مواجهة الحياة.

ثم جاء اليوم الذي أخبرنا فيه المدير السي سمير بتنظيم مسابقة وطنية في ترتيل **القرآن**. فرحت كثيراً ولم يحرك ذلك ساكناً في بقية التلاميذ. كنت الوحيد الذي رشح نفسه مع فراس وكعبول. حتى وليد لم يعر المسألة أدنى اهتمام، هو الذي كان يُبهر المديرة والمعلمات في مدرستنا القديمة بقدرته على الحفظ والترتيل. وتدربنا لأيام قبل أن يأتي السي سمير ليستمع لنا ويختار من سيمثل المدرسة ومعه المعلمات من بقية الأقسام.

عندما شرعت في القراءة فهمت أنني ارتكبت خطأً فادحاً. كان أدائي ضعيفاً مع أنني تدربت على نحو متواصل، ورغم أنني حاولت اختراع طريقتي الخاصة في التجويد. ظل المدير ينظر إلي كأنني أضيع وقته، ورغبت في التوقف لكنني

أجبرت نفسي على الاستمرار، وانتظرت المعلمات وبقية التلاميذ أن أكمل، حتى بدت المدة طويلة ولن تنتهي أبداً، رغم أنني اخترت مقطعاً قصيراً وسهلاً لأزيد حظوظي بالفوز.

ثم جاء دور فراس الذي وظّف لكنته الشرقية، وقد رأيت الانفراج في ملامح المدير والمعلمات وهم ينصتون إليه، كأنهم يقولون هذا أحسن بكثير. بدا كأن تمثيل المدرسة أمر محسوم، حتى بدأ السي سمير ينظر إلى ساعته مستعداً للانصراف عائداً إلى شؤونه الصغيرة. لكن كعبول قلب الموازين في اللحظة الأخيرة.

كان جيداً على نحو أذهلنا جميعاً، يصبح صوته الخشن رخيماً بمجرد بدئه ترتيل الآيات. وبدا كقارئ محترف عارف بقواعد التجويد، ليس مثلنا، فتغلب علينا من حيث لا ندري. انتصر علينا انتصاراً مبيناً لا غبار عليه، فاستحق أن يكون مرشح مدرستنا عن جدارة، وضحك منا الأولاد الآخرون، أنا وفراس، ولم يكن أمامنا سوى أن نضحك من أنفسنا أيضاً.

وجاءت امتحانات نهاية الدورة أخيراً...

عرفت أنني إن لم أصلِّ الآن، فلن أصلي أبداً. استجمعت عزيمتي وصليت يوم السبت والأحد كل الركعات دفعة واحدة، وبدا ذلك سهلاً مقارنة بكل الدروس التي يجب حفظها. شعرت بالراحة لأنني نجحت أخيراً في أداء واجباتي الدينية ونزلت للعب لما سمعت أولاد الحومة يمرحون في الأسفل. لعبت بحماسة وفي جيبي مسبحتي الفضية. كانت تعطيني قوة خارقة تجعلني أقفز وأخطف الكرة في الهواء، وحتى عندما أسقط لا أشعر بأي ألم. كانت لياقتي عالية بصورة أثارت استغراب الجميع. وفي نهاية المباراة أدخلت يدي في جيبي وأخرجت سلاحي السري، نظر الجميع إلى المسبحة بينما شعرت بالهلع وأنا أكتشف حبة من حباتها وقد تكسرت بفعل سقطاتي المتوالية.

أجريت الامتحان ويدي تحت الطاولة تحرك حبات المسبحة بكل ما أوتيت من ورع. طلبت من الله أن يساعدني وأن يدلني على الأجوبة واحداً بعد الآخر، وظللت أجيب عن الأسئلة وأسبّح في الوقت نفسه. ثم خرجت من الامتحان

متفائلاً، لكنني صدمت يوم إعلان النتائج، إذ إن معدلي ارتفع بنسبة ضئيلة، لم أحصل على أكثر من 81.6.

كان يمكن أن أقول إنني صرت قريباً جداً من سبعة. لكن الحجة لم تنطلِ على أمي، فرفضت بحزم توقيع النتيجة بعدما تحققت طويلاً من تفاصيلها وقالت إنني لم أحرز تطوراً في أي مادة باستثناء التربية الإسلامية. فلم يعد أمامي سوى أن آخذها إلى أبي الذي كان يتعامل مع هذه الأمور بهدوء.

سحبت باب الصالون الذي كان يقفله عليه ليكتب وسط جعجعة من دخان السجائر والشرائط الموسيقية. نظر إلى النتيجة الصفراء بتمعن. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها ذلك الشيء منذ زمن بعيد. خفض صوت المسجلة.

– شنو هادشي؟

غرق للحظات في تفاصيلها قبل أن يرفع رأسه منزعجاً.

– عشرة على عشرة فالتربية إسلامية؟

كانت نقطة مرتفعة فعلاً، بينما ظلت نقاط بقية المواد منخفضة ومطابقة لما حصلت عليه في الدورة الأولى. رأيت الانزعاج في ملامحه، كأن التفوق في التربية الإسلامية أسوأ من الإخفاق في جميع المواد. فانفجر غاضباً: "باغي تطلع ليا آية الله الخُمايني؟".

ورفض أن يوقع النتيجة أيضاً، وأرجعها إلي كأنها شيء متسخ. وجدت نفسي في مأزق. وبقيت عالقاً في مدخل الصالون، عاجزاً عن الخروج. لم يكن ممكناً أن أعود إلى المدرسة دون توقيعها. ولم يكن في مقدوري تزوير التوقيع بعد أن أصبحا يعلمان بوجودها.

تركني أغوص في ذلك المأزق الذي وضعت فيه نفسي للحظات طويلة، قبل أن يناديني ويأخذ مني النتيجة من جديد. عرفت أنه سيوقعها لكنه وضع شرطاً قبل أن يفعل.

– من اليوم، مابقيش نشوفك كتصلي، وغادي تجمع عليا داك التسبيح، وتديها فقرايتك اللي غتنفعك...

لم أجد خياراً آخر غير القبول. وقّعها أخيراً كأنها شيك بمليون دولار. أخذتها وذهبت إلى غرفتي بعد أن فقدت الحق في الصلاة والتسبيح... شعرت بمزيج من الغضب والغبن. قلت لنفسي: كيف يجرؤ؟ من أين له بذلك الحق؟

في تلك الليلة، تيقنت أن أبي كافر حقيقي.

# 17

## الخطة

كان أبي كسلاناً أيضاً. أُغرم بدراجته لعام كامل، حتى أصبح خبيراً بأمورها الميكانيكية، وظل يوفر النقود ليصبغها بلون جديد كل مرة. استولت على كل حواسه، وعندما جاءت الامتحانات أخفق فيها وكرّر السنة. أخبرني بذلك مرات عدة، وفي كل مرة، يعيد التفاصيل نفسها: في السنة الموالية، وضع خطة...

عند نهاية الأسبوع، يجمع أدواته ويذهب إلى البحر. يمشي في الكورنيش وهو يطالع الدروس واحداً بعد الآخر. يفعل ذلك كأنها فسحة. وفي طريق العودة يتصفحها على مهل فيكتشف أنها تغلغلت في ذاكرته. هكذا توقفت الدروس عن التراكم. ولما جاءت الامتحانات، كان يكتفي بإلقاء نظرة عليها في جولته الشاطئية، فتنتعش ذاكرته مع رائحة البحر.

تبدو خطة سهلة، لكنها لم تنجح معي أبداً. البحر أمام إقامتنا في غاية الخطورة، مليء بالعصابات التي تخطف الأطفال لبيع أعضائهم في السوق السوداء، فضلاً عن أولاد البراريك والسكارى الذين يطلعون منه طوال الوقت. يجب أن أفكر في العثور على حل. يجب أن أجتهد حتى أسترجع حقي في الصلاة. يجب أن أخرج من عنق الزجاجة بأي وسيلة.

جاء فصل الربيع ومعه موسم دود القز. أشتري بضع دودات صغيرات، أبحث طوال الوقت عن ورق التوت برفقة بيتشو. نطعمها حتى تصير كبيرة لبيعها بدرهمين أو ثلاثة. لكننا لا نصبر أبداً، فنبيعها لما تصبح بدرهم واحد على الأكثر، ونشعر أننا أصبحنا تجاراً محنكين.

بعد وقت، تكبر كلها، أحتفظ بثلاثة وأبيع الباقي. أضعها في علبة أحذية حيث أتأملها لساعات وهي تنسج "الكوكون" الأبيض أو الأصفر، مثل كرة تنس بيضوية. تغلق الدودة على نفسها داخل الشرنقة ولا يبقى أمامنا سوى الانتظار. ينتهي البيع والشراء ورحلة البحث عن أوراق التوت. أعود إلى

المدرسة وأنا عازم ألّا تمر الأمور كما في السابق. أتحقق من العلبة الكرتونية كل يوم؛ لا ألحظ أي تغيير. السماء صافية والجو ربيعي يبعث على البهجة والانطلاق. أتساءل كيف يمكن أن أتحوّل إلى تلميذ جديد.

أتحرر من تأنيب الضمير الذي ظل يخنقني طوال الشهور الماضية. توقفت الركعات عن التكدس بعد أن صرت ممنوعاً من الصلاة، ولأننا لم نجرِ بعد أي امتحان لأحمل ثقل نتائجه. يجب الآن أن أحصل على النقطة التي أريد، إنها الدورة الثالثة والأخيرة، الدورة التي أحب. لكن ما هي النقطة التي أريد؟

من شدة عمليات الجمع والقسمة للتحقق من معدلاتي السابقة، تحولت إلى خبير في حساب النتائج. أمسك دفتر الاختراعات المخبأ في رف قصيّ من رفوف المكتبة. أذهب إلى الصفحة الأخيرة وأجلس في المكتب كأنني على أهبة التخطيط لاختراع جديد. أضع أمامي نتيجتي الأخيرة. أسطّر سلسة جداول. أستعمل قلم الرصاص لتغيير نقطتي في كل مادة حتى أصل المعدل المطلوب. أمحو النقطة وأكتب من جديد. أعيد الحساب. أحاول أن أبقى واقعياً ما أمكن. أعدّ النقط اللازمة للوصول إلى ثمانية. أضيف نقطتين في العربية، ثلاثاً في الفرنسية، نقطة ونصف في النشاط العلمي، أربعة في الاجتماعيات. أجمع وأقسم حتى أحصل على ثمانية ونصف. أرفع سقف التوقعات للاقتراب من تسعة. سيكون ذلك رائعاً. كم سيكون رائعاً لو حصلت على تسعة! أشعر بالنشوة وأنا أحلم برد فعل كاميليا وهي ترى أنني استحوذت على الرتبة الأولى. أتخيل ابتسامتها وهي تحرضني على المزيد من الانتصارات، أعيد المشهد في رأسي حتى تنتشر دوخة لذيذة في كل جسمي.

أقفل دفتر الاختراعات. هذه المرة لن أنتظر لحظة الامتحان. أخرج للعب في ساحة الحومة. لا أثير شكوك أحد، مثل دودة قز أحضّر لتحوّل عميق.

في علبة الأحذية، تبدأ الدودة الأولى بتمزيق شرنقتها أخيراً. تخرج ببطء بعد أن تحولت إلى فراشة. أنتبه إلى ذلك في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة. لما أعود في الظهر، أجدها وقد نجحت في التحرر كلياً، بينما دشنت الفراشة الثانية معركتها للخروج هي الأخرى. في المساء، أعثر على الشرنقتين فارغتين والفراشتين منهمكتين في التبييض. لا أثر للدودة الثالثة رغم أن

شرنقتها مثقوبة وخاوية. هل نجحت في الطيران من النافذة إلى العالم الفسيح؟ أتابع عملية التبييض بدهشة علمية، مئات الحبيبات الزرقاء والصفراء تلتصق بسطح العلبة الكرتونية. أصمم على حفظها للسنة المقبلة رغم أنني أعرف أنها ستتلف وتُرمى مثل الاختراعات مع الأزبال. يحدث هذا كل عام، ليس معي فقط، بل مع كل الأولاد، فندخل جميعاً دورة عبثية جديدة من البيع والشراء.

التحقت بالمدرسة معلمة جديدة اسمها سامية. ليست معلمة تماماً، بل متدربة تجلس في آخر الصفوف. مثلنا، تنقل في دفترها ما تكتبه المعلمة ميلودة على السبورة. منذ الأيام الأولى سألتني عن أبي، عندما سمعت المعلمة تناديني باسمي العائلي. أخبرتني أنها درست عنده، وأنها كانت تحلم أن تصبح صحافية. لكن البطالة انتشرت، فجاءت لتجرب حظها في المدرسة.

أخذت بطن المعلمة نادية تنتفخ دون أن نعرف هل ذلك بفعل الأكل أو شيء آخر. وأخبرت بقية المعلمات أنها حبلى، لكنها انتظرت قبل أن تفضي لنا بالحقيقة كأنها سر من أسرار الطبيعة. ابتهجنا كثيراً، خصوصاً بنات قسمنا. سألتها كاميليا بشوق هل تنتظر بنتاً أو ولداً، فأخبرتنا أنها لم تصل بعد إلى الشهر الخامس. منذ ذلك الحين، توقفت عن تغيير أماكننا بناء على النقط التي نُحصّلها، لأن ذلك متعب وغير مجدٍ، فقد بقي الجميع محافظين على رتبهم. هكذا تخلصت من كابوس آخر ظل يلاحقني في الشهور الأخيرة.

وبعد أسابيع من حياة سامية كتلميذة في صفوفنا، أعطتها المعلمة ميلودة فرصتها لتلقي درسها الأول علينا. كانت صغيرة الحجم مثل المعلمة نادية، لكنها ألطف وأجمل منها. ظلت تفعل ما في وسعها لتجعلنا نشارك ونجيب عن أسئلتها. كان خطها في السبورة بديعاً كأنها ولدت لتصبح معلمة. في نهاية الدرس، خرجنا لنلعب، وبقيت هي مع ميلودة لتعطيها النصائح.

ابتدأت امتحانات المراقبة المستمرة. وعدني أبي أن نشتري حاسوباً إن حققت هدفي في الحصول على ثمانية. أصرّت أمي على أن أحفظ ما يجب حفظه عن ظهر قلب. قالت: ”فعلت ذلك في التربية الإسلامية، يجب أن تفعله الآن في بقية المواد...“. قاومت ما في وسعي، مردداً كببغاء أن فهم الدروس

أهم من حفظها، ذلك ما كانت تقوله لنا المعلمات. لكنها أصرّت على رأيها، ومنعتني من الخروج للعب ما لم أستظهر عليها كل كلمة مكتوبة في الدفتر.

تحولت غرفتي إلى سجن حقيقي، لا يسمح بأكثر من أربع أو خمس خطوات. أُجبرت على الحفظ بصوت مرتفع، ورغم أنني أقفلت الباب، كانت أمي تسمعني أردد الدرس بشكل ميكانيكي، وعندما أسهو يأتيني صوتها مطالباً بالمواصلة، فأواصل. مشيت في الغرفة صارخاً الدرس جملة جملة، ومن حين إلى آخر تصلني أصوات أصدقائي يلعبون فألقي عليهم نظرة من النافذة. ضغطت على نفسي في البداية، وشعرت بالدوار حتى نسيت كل شيء يحيط بي، وحدها كلمات الدرس ظلت تتلاطم في رأسي. عندئذ نجحت في تذكر كل كلمة، تذكرت شكلها ورنتها دون حاجة إلى أي فهم. فذهبت للاستظهار على أمي، وكان كل حرف مطابقاً للأصل. سمحت لي بالخروج، فنزلت أجري في سلالم العمارة ممتلئاً بالفرح والفخر لأن ذلك الدرس أصبح محفوظاً داخلي. أيقظتني بعد ذلك في الصباح الباكر، لأن الدماغ يكون خاوياً فتعود تلك الكلمات بسرعة، وصار في مقدوري حفظ دروس أخرى.

توقفت عن الخروج مع بيتشو، وصادقت سليم الذي كان أكبر مني. كان يعدّ نفسه لاجتياز الامتحان الموحد نهاية السنة، للحصول على الشهادة الابتدائية وولوج عالم الكبار. كان يقول إن المجاعة موجودة في الصومال لأن أميركا تشعل فتيل الحرب لتسرق منهم اليورانيوم، وإن الجزائر أحسن منا لأن لديهم جمهورية إسلامية تقوم على الديموقراطية، لذلك أصبح عندهم رئيس مغربي هو بوضياف، سيساعدنا على حل مشكلة الصحراء. لكنني لم أفهم كيف تكون ديموقراطية إسلامية وتلقي الجميع في السجن بعد الفوز في الانتخابات، فلا تترك سوى طفل صغير يخلف أباه، ولا كيف يمكن لشخص مغربي أن يحكم الجزائر. فكان يجيبني ببساطة لأن لدينا ملكاً، ومن يريد أن يصبح رئيساً، فعليه أن يجرب حظه في بلد آخر.

لم تتغير نقطي كثيراً باستثناء مواد الحفظ التي ارتفعت بصورة صاروخية. عندئذ شعرت بالصدمة والشماتة، لأنني صدقت المعلمات كل ذلك الوقت لما كن يقلن إن الفهم أهم من الحفظ. استنتجت أن ذلك ما ظل يفعله المجتهدون

طوال الوقت. تذكرت مسابقات التلفزيون التي ظللت لسنوات أعتقد أنهم يختارون الأطفال الخارقين للمشاركة فيها، قبل أن أكتشف أنهم عاديون وأن المخرج يملي عليهم كل الأجوبة.

قررت منذ ذلك الحين أن أحفظ دون مقاومة. أصبحت تلك قواعد اللعبة الجديدة. كلما عدت إلى البيت، أبدأ الحفظ كمن يمرح، أتذكر إيقاع كل جملة وكل فقرة، أستمتع باسترجاع إيقاعات الدروس السابقة بعد الانتهاء من كل درس جديد. أتلذذ بالخطوات الخمس داخل غرفتي. لم يكن ذلك يأخذ أكثر من نصف ساعة، وكان النهار قد أصبح طويلاً فيبقى لي متسع من الوقت للنزول إلى الساحة. لعبت مثلما لم ألعب من قبل، أصبحت حراً طليقاً، بلا تأنيب ضمير وبلا خوف من المجهول والامتحانات المقبلة.

خلال هذه المدة، لم يتوقف بطن المعلمة نادية عن الانتفاخ، وأخذ الحليب يشرشر من ثدييها، فكانت تكتب لنا نصوصاً طويلة ننقلها من على السبورة وتجلس في مؤخرة القسم. تمنعنا من الاستدارة، لكننا نسترق النظر واحداً بعد الآخر، فنراها تمسك ثديها الأبيض وكوباً كبيراً تقطر داخله الحليب، كان يبدو أن حليبها لا يتوقف أبداً.

ذات صباح أحد، بينما كنا نلعب في ساحة الحومة، أطلت أمي من النافذة وأخبرتني أنني سأظهر في التلفزيون. فصعدنا نجري إلى منازلنا، وكانت القناة الصغيرة قد أعلنت في الإشهار برنامجها: "أحلام صغيرة". جلست أنتظر بشوق كبير. وعندما انطلق البرنامج أخيراً، دامت الفقرة التي أظهر فيها دقائق قليلة جعلتني أسافر في الزمن. تذكرت أنني كنت أريد أن أصبح مخترعاً عبقرياً، وأنني أخفقت في تحقيق ذلك الحلم، فغرقت في الصلاة والتسبيح، وفكرت أنني أصبحت الآن ولداً آخر دون أن ينتبه إلى ذلك أحد.

أجرينا الامتحانات الأخيرة وانتهى العام الدراسي. سافر وليد دون أن يأخذ نتيجته، ولم تُنظم مسرحية في القسم لإعلان نتيجة كل واحد. ذهبت إلى الإدراة ذات صباح صيفي. كانت المدرسة خالية لا يوجد فيها سوى السكرتيرة وعاملات النظافة. أعطيتها شيكاً موقعاً من أبي لمستحقات الشهر الأخير،

فأخرجت من الدرج ملفاً يضم نتائج قسمنا، وأخذنا نبحث عن اسمي، فرأيت بصورة خاطفة نتائج الآخرين، وأخيراً عثرت على نتيجتي.

لم أحصل على ثمانية، فشعرت بغصة مؤلمة. لكنني حصلت على سبعة ونصف. في الطريق إلى المنزل، حاولت التفكير هل ذلك نصر أو هزيمة. شعرت بإحباط من نوع آخر. عمري الآن عشر سنوات، وأنا متأكد أن المعلمات هنّ من أمسكن بي حتى لا أحصل على النقطة التي أستحق، كان يجب أن أبقى في الخندق الذي اخترنه لي!

لم أفرح باستثناء لحظة إخبار أمي وأبي. شعرت عندئذ بالفخر وبأنني أصبحت إنساناً مكتملاً. ثم غمرتني الطمأنينة لأنني فهمت قواعد اللعبة أخيراً.

بعد أيام قليلة من ظهور النتائج، خلال نشرة أخبار الظهر، توقفنا عن الأكل فجأة، ورأينا الرئيس الجزائري بوضياف يقول في خطبة تلفزيونية: "تلك الشعوب بماذا سبقتنا؟ لقد سبقتنا بالعلم وحده...". ويبدو أن أحدهم لم يوافقه الرأي، فأطلق عليه الرصاص. لم أفهم في ذلك الوقت من قتله ولماذا، وكيف يمكن للعلم أن يؤدي إلى قتل رئيس للجمهورية.

# 18

## النصر

جاء الصيف فدخلت أمي مدرسة السكرتيرات. قررنا ذلك وفقاً لخطة عائلية محكمة. عندما انتهت السنة الدراسية، أخبرتنا على الغداء أنها أكملت بحثها. لم أصدق أول الأمر، لأنني لم أكن أتذكر متى بدأته. بل إن كل ذكرياتي كنت أراها فيها وهي تخربش في أوراقها الملونة. كنت أحسب أنه عمل سيستمر إلى الأبد. لكنها انتهت أخيراً، ومع تلك النهاية ظهرت مشكلة جديدة.

يجب رقن البحث على الآلة الكاتبة. فكرنا في الأمر ملياً؛ كلفة رقن الصفحة عالية إضافة إلى خط أمي وتشتت عملها في مئات الصفحات التي لا يفهمها أحد غيرها. قال أبي: "عندنا واحدة في الحزب. بعد شهر، سيذهب الجميع في عطلة ويمكننا الاستحواذ عليها". خلال هذه المدة أيضاً، ستتعلم أمي الرقن بسرعة البرق.

كل يوم، تعود من المدرسة، تضع أوراقها على المكتب. أعاينها: سبع، ثمانٍ، أحياناً عشرٌ. في كل صفحة، ترقن كلمة واحدة أو جملة، تكررها إلى ما لا نهاية. مثل تمرين طفولي لتعلم الكتابة. أسألها: "تعلمتي؟"، تجيبني: "ايه تعلمت"، ثم أسألها: "تقدمتي؟"، فتجيبني: "ايه تقدمت"...

بعد شهر، افترضنا أنها تحولت إلى سكرتيرة خطيرة. جاء وقت السرقة. رافقنا أبو وليد بسيارته. كان يجب أن أكتم السر عن أصدقائي. انتظرنا نزول الليل قبل الذهاب إلى مقر الحزب: شقة في عمارة قديمة ومظلمة. أخرج أبي المفاتيح. نظرت حولنا. ليس هناك من يراقبنا. سألت أبي: ماذا لو أمسكونا؟ فأخبرني أنها سرقة مؤقتة. سنعيدها قبل الدخول المدرسي. لن ينتبه أحد.

كان الحزب مليئاً بالأشياء الميتة: مكاتب، كراسيٌّ متراكمة فوق بعضها بعضاً، خزانات، كتب قديمة، منشورات. مكان صامت وموحش. عثرنا على الآلة، إنها كبيرة وثقيلة. كانت بحاجة إلى غطاء نلفها فيه. بحث أبي في رفوف

الخزانات. لم تكن داخل الحزب صورة للملك، بل لشخص عجوز بلحية وشعر كثيفين، فكرت أنه يشبه الغول أو الشخصيات التي نرسمها عندما يُطلب منا في حصة التربية الفنية: "أُرسم كافر". كلما كانت اللحية كثيفة ومشعثة وقسمات الوجه بشعة، نجح التمرين وفرحت المعلمة. "أُرسم مسلماً"، مهمة أصعب وأقل تسلية، ليس سهلاً رسم شخص وسيم ينبعث منه نور الإيمان. سخر مني أبو وليد وأنا أبحلق في الصورة: "عجبك ماركس؟".

عثر أبي على الغطاء البلاستيكي. لفّ الآلة داخله وحملناها خارجين في الليل الدامس. صوت المفاتيح في قفل الباب، نزول السلالم، ظلام. وصول السيارة. لم يضعاها في الكوفر، بل إلى جانبي في الخلف وتكلفت حمايتها طوال الرحلة.

وضعناها في الصالون. جاءت أمي لتجرّبها. قالت إنها مختلفة عن الآلات التي تمرنت عليها. فقلنا لها: "جربيها أولاً!". جلست، وبدأت ترقن: "أكل الولد التفاحة"، هذا ما كتبته بإصبعين بعدما بحثت عن الحروف طويلاً.

أصبحت الآلة الكاتبة جزءاً من عائلتنا. كل يوم تستيقظ أمي مبكراً وترقن إلى غاية منتصف النهار. أبي يجلس أمامها بعد الغروب ويضرب عليها حتى ساعة متأخرة من الليل. في الزوال، تبقى وحيدة في الصالون. أحشو داخلها ورقة. أدوّر بكرتها حتى تصل بداية الصفحة وأكتب الشيء الوحيد الذي يخطر على بالي: كاميليا... تنعشني رؤية اسمها مطبوعاً في ورقة بيضاء. أشطبه مستعملاً علامة الضرب، حتى لا يكتشف أمري أحد. ثم أكتبه من جديد وأشطبه. طاق طاق طاق... في نهاية كل سطر، ترن. أرجعها بحركة من يدي وأبدأ من جديد.

كيفما كان الوقت، كان بيتنا ممتلئاً بصوتها الشبيه بركض خيول ميكانيكية. في ذلك الصيف، أُغرمنا جميعاً بها. وكان يجب أن نتخلى عنها قبل مجيء الخريف.

انتظرت بداية السنة بصبر فارغ. تسجّل تلاميذ جدد كثيرون، فاشترت المدرسة حافلة برتقالية لنقلهم. امتلأت الأقسام الموجودة في الطابق الأول والثاني، وأصبح لنا قسمان وحدنا في الطابق الثالث. صرنا ننزل من السلالم

الخلفية ونخرج من بوابة صغيرة حتى لا نختلط بالآخرين. الكل يعاملوننا كأننا سنجتاز مباراة حاسمة يجب الاستعداد لها طوال السنة.

اختفى التلاميذ الثلاثة من المدرسة، وانضم إلينا كعبول. ألتقي مع سليم من حين إلى آخر، فيحكي لي عن الدراسة في الإعدادية: كيف أن لهم أساتذة كثيرين، وجدولاً زمنياً مشتتاً، والرياضة مادة قائمة الذات تحصل فيها على نقطة أيضاً، وتسجيل الغياب، والقفز فوق السور عند إغلاق البوابة. ومعارك الأولاد الذين يؤجلون نزاعاتهم متوعدين: "نتلاقاو برا..."، والجميع متعطشون للفرجة التي تتحول من صراع بين ولدين إلى معركة بين مجموعات متضامنة، وفضوليون يتظاهرون بفض النزاع وفك الأيادي المتشابكة، وتكبر الإثارة إذا ما أشهروا الأسلحة البيضاء. كل ذلك ينتمي إلى عالم آخر، عالم الكبار الحقيقي.

عندما ابتدأت الدروس، لم تكن المعلمة نادية قد عادت بعد. كلما سألنا عنها، يجيبنا الجميع أنها ستعود بعد أيام. مر الأسبوع الأول، تطوّعت سامية المتدربة لتدريسنا الرياضيات. أعجبني ذلك، لأنها مترددة وغير واثقة من نفسها، لدرجة تشعرني أننا لا ندرس، بل موجودين في مكان ما بين اللعب والدرس. ومرت الأسابيع دون أن تعود نادية، حتى أصبح السؤال عنها يثير انزعاج الإدارة. عندئذ أخبرتنا سامية بنبرة المكاشفة أنها "تقدر ترجع، وتقدر ما ترجعش..."؛ تذكرتُ أمي التي توقفت عن الذهاب إلى شغلها سنة كاملة بعد ولادة أختي.

ثم أحضروا معلمة أخرى لنا. أخبرونا أنها مؤقتة، وأن ذلك سيدوم شهرين على الأكثر. كانت غريبة الأطوار، ولا تشبه أي معلمة صادفناها في حياتنا. لم تكن تنطق كلمة واحدة بالعربية، لذلك لم تدرسنا الرياضيات التي تقتضي أن تُدرِّسها معلمة الفرنسية، لكن بالعربية. لم تصادق المعلمات الأخريات، بل ظلت تنظر إليهن بريبة. سمح ذلك لسامية بالحفاظ على حصتها وظللت أشعر أن الرياضيات ساحة للعب. كل يوم قبل العاشرة، تأتي المعلمة الجديدة التي لم يكن أحد منا يعرف اسمها. تدخل القسم على أطراف أصابعها بينما حصة الرياضيات مستمرة، ونحن منهمكون في إنجاز التمارين، تنظر بتركيز إلى السبورة كأنها تحاول أن تفك لغزاً، ثم تنزع معطفها وتعلقه على النافذة. ننظر

إلى مؤخرتها الكبيرة بشكل غريب مقارنة ببقية جسمها، قبل أن تخفيها داخل وزرتها البيضاء.

تتبادل المعلمتان الأدوار خلال الاستراحة، وعندما نعود، يكون العالم قد أصبح فرنسياً. لم تكن لطيفة تماماً؛ إنها جدية طوال الوقت، تعاملنا باحترام شديد، ما يجعلنا نشك حقاً أنها مغربية، فلا أحد يحترم الأطفال في هذا البلد. يكبر السؤال كل يوم، إنها زماكرية من دون شك، يقول بيتشو... فرنسية من أصل مغربي. وبسرعة، صرنا نجرب أن نلقي بكلمات عربية في ظهرها، فلا تستدير، بل تواصل درسها كأن شيئاً لم يكن. نجرب أن نشتمها. تتعاقب الشتائم وتبقى محافظة على اتزانها وطمأنينتها.

لم ينتبه أحد إلى خروجي من عنق الزجاجة. أحبتني المعلمة سامية منذ أول مسألة أحلها، ولم تكن معلمة الفرنسية الجديدة قادرة على معرفة المجتهدين من الكسالى. كنا متساوين في عينها وكانت تعطي لجميع التلاميذ فرصتهم في التفوق. أعددت نفسي منذ اليوم الأول. فتحت دفتر الاختراعات وسطرت جدولاً يضم مجموعة خانات. في كل خانة مادة، أمامها بقلم الرصاص النقطة التي أتوقع الحصول عليها. جمعت النقط وقسمتها بالآلة الحاسبة كبقال، فجاء المعدل متوسطاً. محوت النقط، وأخذت أفكر في النقط اللازمة. جهزت نتيجتي المثالية وعرفت كم أحتاج في كل مادة، ثم حشوت الدفتر في ركن آمن من المكتبة.

انتظرت المراقبات المستمرة بشوق، بعد أن أصبحت مهووساً بالنقط أكثر من الدراسة أو النجاح، أو اللعب أو حتى الحلم بكاميليا. كل نقطة تأتي مشحونة بإحساس معين، إذا ارتفعت، أحس بنشوة قوية، وإذا انخفضت، يستحوذ علي الخزي والعار.

عرفت أن فرصتي قد جاءت عندما تغيّبت المعلمة ميلودة أيضاً، ليوم، ثم ليومين، ثم لأسبوع، قبل أن تعود لتخبرنا أن زوجة أخيها، أم عائشة، دخلت في غيبوبة وأنها مجبرة على الاعتناء بها وبه وبعائشة الصغيرة. استغلت سامية الفرصة وأخذت تدرس لنا الرياضيات في الصباح والعربية في الزوال. كانت تقول مزهوة إنها درست في الشعبة العربية قبل أن تتوجه إلى الصحافة.

عندما استيقظت أم عائشة بعد أربعين يوماً، عادت المعلمة ميلودة متغيرة. لبست حجاباً يغطي شعرها القصير. تخلت عن العطور النسائية وعوّضتها بالمسك وماء الزهر الذي صرنا نشمه عندما تنحني لتصحح أوراقنا. وقد أخبرتنا أن المطر لم يسقط منذ سنوات لأن الله يعاقبنا على ذنوبنا الكثيرة، ثم شرح لنا المدير أن المغرب بلاد فلاحية وأننا سنموت من الجوع إذا لم تمطر في الأيام المقبلة. وأعلن التلفزيون صلاة الاستسقاء التي يجب إقامتها في كل المساجد لأن المسألة أصبحت خطيرة. وأخبرونا أن الناس يجب أن يخرجوا حفاة في كل مكان متضرعين إلى الله حتى تنجح العملية.

وفي يوم الجمعة، مع الساعة الحادية عشرة، دعتنا المعلمة ميلودة لجمع أدواتنا، والاحتفاظ بكتاب المطالعة فقط الذي كان يوجد "دعاء الاستسقاء" في صفحاته الأخيرة. ربّعنا أيدينا وبدأنا نقرؤه بصوت واحد ونحن نتخيل أن الناس في كل البلد يفعلون الشيء نفسه. وبعد أسبوع واحد، أخذت السماء تمطر واضعة حداً لسنوات من الجفاف، ففرحنا فرحاً كبيراً، لأن الله استجاب لدعائنا ولأننا سننجو من المجاعة. وفي الاستراحة، سمعت وليد يقول ساخراً: "سبحان الله، يقولون للسماء أن تمطر فتمطر..."، كنت متيقناً أنه سمع ذلك من عند أبيه.

لم أكن سيئاً في العربية، فلم تلفت نقطي المرتفعة انتباه المعلمة ميلودة، بخلاف المعلمة نادية التي عادت آخر الدورة وألقت نظرة على جدول نقطنا. نظرت إلي مصدومة وهي تكتشف أنني حصلت على تسعة في الرياضيات. قلت لها في سري ذلك من حسن حظك فقط. كنت على وشك الحصول على عشرة بعد أن جررت المعلمة المتدربة إلى جهتي. ولم يعد في وسع المعلمة القديمة أن تمنعني من الوصول إلى هدفي. لم يكن أحدٌ من التلاميذ يعرف ما يحدث، حتى أنهم ظنوا أنها تنظر إليّ بتلك الطريقة لأنني حصلت على نقطة سيئة.

أخبرونا أن المدرسة ستنظم رحلة إلى مدينة وليلي الأثرية، وزرهون حيث يوجد ضريح المولى إدريس، ومدينة فاس العريقة، بعد أن نحصل على النتائج.

صرت أحمل معي حاسبتي الصغيرة أينما ذهبت، أجمع وأقسم بها كل نقطي، لدرجة أنني عرفت قبل المعلمات أنني سأتجاوز سقف الثمانية مهما حدث. جلست المعلمة ميلودة في مكتبها، تعد النقط وتسأل كل واحد منا هل يريد معرفة معدله. وعندما جاء دوري سألتني فوافقت، وعندذاك نطقت الرقم السحري: 24.8.

شعرت بالاكتمال أخيراً. ظن صديقي بيتشو أن ثمة خطأ. ولم يفهم كثيرون ماذا حدث، تصوروا أنها مصادفة عبقرية أعطتهم الأمل أن تحدث معهم أيضاً. وظلوا ينظرون إليّ كخطأ سوف يصحّح في أي لحظة، بينما أعددت نفسي لمزيد من التصاعد.

تراجعت نقطة كاميليا. كان الأولاد يقولون إن أخاها الأكبر هرب من البيت، وإن أباها سيطلق أمها، وأشياء من هذا القبيل. أنّبتها المعلمة ميلودة قائلة إن شغلها في التلفزيون يؤثر في دراستها، وإن مستقبلها سيضيع لأن الامتحان الموحّد صعب جداً. عندها احمرّ وجهها احمراراً شديداً، كما حدث لها "يوم الواقعة"، شعرت أنني يجب أن أنقذها بعد أن أصبحتُ في خندق المجتهدين. كان ذلك يعطيني إحساساً بالقوة، حتى وأنا أمشي في الشارع. وتدريجياً نسيت كيف كنت كسلاناً، وتعوّدت خندقي الجديد.

بعد أيام، قطع طريقي الروبيو برفقة أفراد عصابته. فتشوا جيوبي للبحث عن شيء يسطون عليه. لم يكن هناك سوى النتيجة الصفراء أحملها طوال الوقت مطوية بعناية. تظاهرت بالانزعاج عندما فتحها الروبيو، ففكروا أنهم سيسخرون مني بقراءة نقطي السيئة. لكنهم صُدِموا، وأخذت وجوههم ملامح ممثل يقرأ رسالة تحمل خبراً سيئاً في مسلسل مصري. لم يجرؤوا على سرقتها أو إتلافها، فأعادها إلي الروبيو قائلاً لرفيقه: "خليه يمشي، إنه قرّاي".كانت "قرّاي" كلمة مفعمة بالقوة والهيبة، خصوصاً بالطريقة التي ينطقها الأولاد الأشرار.

# 19

## الرحلة

جاء موعد تحقيق الأمنية الكبرى. ذهبت مع أبي عند بائع الحواسيب، كان منزله متغلغلاً في أحد الأحياء الشعبية. أدخلنا الصالون وذهب إلى المطبخ لتحضير القهوة، ثم عاد بالحاسوب الذي سنشتريه، أخذ قلبي يضرب من شدة الفرح. كان مكعب الشكل، يحمل رسماً لتفاحة بألوان قوس قزح. ضغط على الزر الخلفي، فاشتعلت الشاشة. وظهر رسم لحاسوب صغير مبتسماً: "مرحباً بكم في نظام ماكنتوش العربي".

أخبرنا أنه لا يزال بحاجة ليعبئه بالبرامج. جلس أمامنا، وأخرج علبة مليئة بالأقراص المربعة، أخذ يدس كل واحد منها ثم يخرجه. دامت هذه العملية طويلاً، وكان ينظر قلقاً إلى ساعته في كل مرة. فسأله أبي هل لديه التزام مع أحد. أجابه أن لديه التزاماً مع الله. فوجئت أولاً، ثم فهمت عندما ذهب إلى الصلاة. بقينا وحدنا وأخذ الوقت يتناقص ببطء شديد. عاد إلينا بعد أن انتهت العملية. فحملنا الحاسوب وخرجنا، وكان الليل قد انتشر في الخارج.

وصلنا إلى البيت. وجدنا أمي بانتظارنا، أفسحنا له مكاناً فوق المكتب. بدت المكتبة كأنها أصبحت بروح جديدة. عندما أضاءت شاشته، نظرنا إليه بفرح كأنه فرد من العائلة.

قضيت كل الأسبوع وأنا أستكشف برامجه. وسمحت لي العطلة أن أبقى كل ليلة إلى وقت متأخر. لم أشبع أبداً من اللعب به، حتى استغنيت كلياً عن النزول إلى الساحة والمرح مع عصابة القردة. كانت أمي ستسافر يوم الجمعة إلى أصيلة برفقة أختي وخالي. سألتني هل أريد المجيء معهم، لكنني فضلت البقاء مع "الماكنتوش" والذهاب إلى الرحلة مع أصدقائي. حملت معها الحقائب، وسلمت على خالي الذي اشترى سيارة جديدة. سألوني للمرة الأخيرة هل أريد السفر معهم، وبدا لي أن الأوان قد فات حتى لو غيرت رأيي.

استيقظت في اليوم التالي قبل السادسة. فعلت ما في وسعي لإخراج أبي من الفراش. مشينا في العتمة والتقينا في الطريق أصدقائي القادمين مع آبائهم أيضاً. عندما وصلنا، وقف أبي مع أبي وليد يتابعان مشهد فرحنا الطفولي. كان السي سمير يدخن بشراهة، ويتضاعف الدخان الخارج من فمه وأنفه بسبب البرد. قال أبي ساخراً: "هذا هو المدير الإخواني، يدخن منذ صلاة الفجر".

جاءت الحافلة وشرعوا يُطلعون إليها الأطفال الصغار، ثم جاء دورنا فأخذنا المواقع الإستراتيجية في المؤخرة. وقف السي سمير جنب السائق يقرأ لائحة أسمائنا بصوت مرتفع، ونحن نجيب: "حاضر". مازح كل واحد منا: "فايق ولى ناعس؟"، بينما يسخن السائق محرك الحافلة. أُغلقت الأبواب، وأخذت الحافلة ترجع إلى الوراء ونحن في أوج الفرح. نظرنا من النوافذ إلى آبائنا الواقفين في الظلام، لوّحنا لهم كأننا في باخرة ستسافر إلى العالم الجديد، وأخذت تبتعد أكثر فأكثر حتى غاصت بنا في الظلام. كنا نشعر بالدفء والنعاس، بينما ينتشر ضوء الصباح تدريجياً.

وصلنا وليلي قبل العاشرة، المدينة الرومانية التي لم نفهم ما تفعله في قلب الخلاء. مشينا في بقاياها الحجرية المترامية محاولين تخيل كيف كانت قبل قرون. جاء مرشد سياحي، وطلبت منا المعلمات أن ندوّن المعلومات التي سيقولها. لم يجب عن أي من تساؤلاتنا، بل ظل يستظهر ما حفظه عن ظهر قلب دون الالتفات إلى كوننا أطفالاً.

لم نجد متنفساً إلا عندما وقفنا أمام غرفة نوم القائد الروماني بجدرانها المنهارة والعشب المزهر داخل شقوق الحجر، وعلى أرضها رسم فسيفسائي كبير للقائد عرياناً بعضوه الذكري الصغير، مع امرأتين، يستعدون للإقدام على فعل غير لطيف. أضحكنا أن يكون عضو كعبول أكبر من عضو القائد الروماني، وانتشرت المزحة بين الأولاد دون أن تحزر المعلمات منبع ضحكاتنا.

أخذونا بعدها إلى مدينة زرهون، حيث يوجد ضريح إدريس الأول الذي حكم ابنه المغرب وهو في سننا. يوجد في مدخل المقام عمود خشبي طويل يجبر الزوار على الانحناء رغماً عنهم للدخول. الجميع فخورون بذلك الاختراع. تناولنا

الغداء في مكان قريب. تجمعنا في مجموعات صغيرة، وقايضنا بعضنا بعضاً بمأكولاتنا المحفوظة داخل علب بلاستيكية. دخلنا بعد ذلك الضريح، نزعنا أحذيتنا وتفرقنا للقيلولة فوق السجادات الحمراء. كان النوم مستحيلاً مع كل الطاقة المتأججة داخلنا. وزّع علينا كعبول مصاحف عدة، فتظاهرنا بقراءتها، وكنت ألقي نظرة على القبر الكبير والناس الذين يأتون للتمسح به. أخبرتنا المعلمة ميلودة أنهم يطلبون أن تتحقق أمنياتهم، وأن في وسعنا أن نطلب ما نريده أيضاً. خجلت أن أفعل ذلك، وعندما أمعنت التفكير، اكتشفت أنني نجحت في تحقيق كل ما أتمناه. وطبعاً لم أحقق أمنيتي الأخيرة بالفوز بكاميليا، لكنني خجلت أن أطلب ذلك من ضريح.

فوجئت عندما رأيت وليد يجلس على مقربة من القبر الكبير ويضع رأسه تحت غطائه ويدخل في حالة من الورع. كان لديه ما يطلبه، حاولت ما في وسعي أن أحزر ما هو. عند انتهائه، أعلنت المعلمات أن الوقت قد حان لمواصلة الرحلة. أخذونا إلى شوارع المدينة القديمة في فاس، حيث يزدحم الناس ويمر طوال الوقت بائع يجر حماراً. ذهبنا إلى القرويين، أقدم جامعة في العالم، قبل أن ينصب علينا باعة الحلوى ونصرف كل نقودنا. بقيت أتخيل كم سيكون رائعاً لو تهت وكاميليا في ذلك الزحام! كنت أنجح في آخر لحظة في قيادتها نحو الحافلة.

كان طريق العودة في الليل طويلاً، وكنت سعيداً لا أشعر بأدنى تعب. شغّل السائق فيلماً مصرياً في جهاز الفيديو. نظرت من النافذة إلى الظلام العميق، فرأيت انعكاس الفيلم على الزجاج، وعم الهرج لأنه فيلم غرامي كوميدي. كان فراس يصرخ "بوسة" والآخرون يضحكون. نزل بيتشو من كرسيه بجانبي، وذهب ليجري جولة في الظلام، ثم عاد يهمس في أذني ما كان يتهامسه الجميع. قال إن وليد وكاميليا "يتبوسان"، وأنها أهدته كاسكيطة حمراء اشترتها بأجرتها في القناة الصغيرة. صدمني الخبر. لا بد أنها إشاعة، أو أن بيتشو فهم خطأ كلاماً متعلقاً بالفيلم.

وصلنا المدرسة أخيراً، لم يكن أبي في انتظاري، ولم تكن أمي قد عادت بعد من أصيلة.

في اليوم التالي، نظرت من النافذة فرأيت وليد يلعب بدراجته مرتدياً كاسكيطة حمراء. هاجمني الوجع ثم تأجج الغضب داخلي، لم أخرج لأسأله من أين حصل عليها. لماذا فعلت كاميليا ذلك؟ لم أكن متأكداً أنها تنال أجرة عن شغلها في التلفزيون. وليد لم يرتدِ أي قبعة منذ قطع أولاد البراريك طريقه، الجميع يعرفون ذلك. ظل السؤال يتردد في رأسي: لماذا فعلت كاميليا ذلك؟

مرّ الوقت بطيئاً، وفي وقت الغذاء نزلت لشراء الخبز. توجهت إلى بقال الحومة الخامسة متمنياً اللقاء بها مع أنني لم أعد أعرف ما يجب أن أشعر به نحوها. كنت أحس أنها خانتني، وأنني كنت سأكون سعيداً لو أنني مكانه. لماذا اختارته هو وليس أنا؟ هاجمتني الغيرة الشديدة. كنت أعرف أنه لا يحبها. أرى ذلك في كل تصرفاته. إنه لا يرتعش عندما تكون مع البنات الأخريات في الاستراحة وتلتفت مبتسمة إليه. لا ينظر إلى الشمس الزوالية المتشابكة مع خصلات شعرها بينما الجميع ينقلون درساً مملاً على السبورة. هذه الأشياء يمكن أن أراها بسهولة. أما هي، فكنت أراها تنظر إليه كما أنظرُ إليها.

اشتريت الخبز ولم تكن هناك، كاميليا، عند البقال، ولا أي شيء. وفي طريق عودتي، سمعت صوتاً يصيح بي: "ماذا تفعل هنا أيها القرّاي؟".

التفتت لأرى الروبيو قادماً نحوي فعرفت أنه يمزح كعادته. حاول أن يقتطع قضمة من الخبز، لكنني أبعدته في الوقت المناسب. أبقيته بعيداً، وحافظت على حذري حتى أعرف ما يريد.

– شريتو كمبيوتر؟

رأيت في ذلك فرصة حقيقية هي ما كنت أبحث عنه عندما جئت إلى بقال حومتهم. أجبته: "ما سميتوش كمبيوتر". فتح فمه، وكبرت عيناه مثل الرسوم المتحركة: "كيفاش؟"، فقلت: "سميتو ماكنتوش. يمكنني أن أريه لك إذا أردت". ابتسم الروبيو: "إمتى؟"، فأجبت: "بعد الغداء، في الثالثة...".

ثم مشيت عائداً إلى المنزل وأنا أقول لنفسي كم سيكون رائعاً لو أن كاميليا جاءت معه. ذلك مستبعد جداً، بل مستحيل. بعد الغداء، في الثانية والنصف، رن الانترفون، فعرفت أنه عجز عن الانتظار إلى حين الثالثة.

– زيكو، هل تغذيت؟

– يالله اطلع.

صعد الروبيو الطوابق الثلاثة برمشة عين. رن جرس الباب، فتحت له وأدخلته المكتبة. أصبح خجولاً غير واثق من نفسه. سألني هل المنزل خاوٍ. فأخبرته أن أمي مسافرة مع أختي، وأن أبي ينام في الغرفة المجاورة. قلت ذلك وأنا أشعل الماكنتوش، متصرفاً بأسلوب روتيني، بينما لمع الضوء في عينيه وهو يرى الشاشة الصغيرة ترحب بنا. ذهبت إلى المطبخ لإحضار كرسي إضافي، وجلس هو مستعداً للمغامرة. قلت لنفسي يجب أن أعثر على وسيلة تجعله يقترح أن تأتي معه كاميليا في المرة المقبلة من تلقاء نفسه. يجب أن أفكر...

ابتدأ اللعب، وأخذت أعرض عليه اللعبة تلو الأخرى. علّمته كيف يحرك الماوس التي هي الفأرة، بالإنكليزية. أضحكه اسمها بغتة. تغلبت عليه في كل لعبة لأنني تمرنت طوال الأسبوع. وظل يبدو كأنه شخص مختلف بعد أن تخلى عن مزاحه الشرير وأصبح ولداً مؤدباً. كان الوقت يمر بسرعة وأنا أركز في الكيفية التي تجعله يحضر كاميليا إلى البيت دون أن يتسبب ذلك في أزمة ديبلوماسية. سأدفع أمي لتحضير الكسكس وأدعوهما، كما دعتني أمهما خلال سفر أبوي إلى فرنسا. بدت الفكرة جيدة أول الأمر، لكنني تخليت عنها، لأن أمي لن تضيع وقتها في تحضير الكسكس لأطفال.

استيقظ أبي من قيلولته، جاء يسألنا هل نريد أن نأكل. كان الليل على وشك النزول والروبيو لم يشبع بعد من اللعب. فكرت أن أمي ستعود من السفر، وأن علي أن أتخلص منه حتى أواصل اللعب وحدي. قلت له: "ستعود أمي، وهي لا تحب أن أجيء بأولاد إلى المنزل دون استئذانها...". تفهم الروبيو الأمر مباشرة. نهض من الكرسي متأهباً للهرب بخفة. نزلت معه وكان الليل في بدايته. لم نعرف كيف مر الوقت، كأننا سافرنا في كبسولة الزمن، مشينا من الحومة الأولى إلى الخامسة، وقال لي كأننا صرنا نفهم في أمور الحواسيب: "الماكنتوش ماركة جيدة".

وافقته مبتسماً وأنا مستمتع بهواء الليل المنعش. ثم قلت له: "لدي شيء أريد أن أقوله لك".

– شنو هو؟

– هناك أشياء تقع مع أختك!

تغيرت ملامحه، كأنه تذكر فجأة أن له أختاً. استغللت الفرصة لمواصلة كلامي.

– وليد...

اكتست وجهه خطوط في غاية القسوة. وشعرت أنه رهين كلياً بما سأقول.

– مالو وليد، قل...

– يفعلان أشياء في العمارة!

احمر وجهه:

– أشياء مثل ماذا؟

عندئذ أخذ صوتي نبرة تليق بخبر مهم:

– أشياء مثل الحب.

لم يعد الروبيو قادراً على قول أي شيء، وربما كانت تعبر رأسه أفكار عدة. فواصلت بعد أن أصبحت، أنا الآخر، طفلاً شريراً: "أعطته كاسكيطة حمراء. اسأل أولاد القسم إن لم تصدقني؟".

أحكمت الفخ عليه بعد أن دخلت القبعة في الموضوع. استرجع الروبيو قدرته على الكلام بعد أن نسي فرحه بـ"الماكنتوش"، وأصبح مركزاً على شيء واحد.

– إلى هادشي بصح، سأنزع لأمه السروال...

وشعرت أن كل الأشواط التي ربحها وليد مع كاميليا سيخسرها دفعة واحدة. ثم افترقنا بعدما أفسدت عليه أول لقاء مع التكنولوجيا الرقمية. تلاشت الضغينة داخلي. ولما عدت إلى المنزل، بدأت أعدّ أدواتي لأن المدرسة ستنطلق غداً. كنت أتخيل المفاجأة التي تنتظر الكابتن وليد وقبعته الحمراء. جلست لألعب بـ"الماكنتوش" مجدداً، لكن شعوراً مختلفاً بدأ يتسلل إلي. ماذا لو انتقم من كاميليا أيضاً؟

تأخرت أمي في العودة. لم تكن هناك وسيلة للاتصال بها مباشرة، فطهونا، أنا وأبي، عشاءنا، وتحققتُ مجدداً من أدواتي، وتواصل مرور الوقت دون أن تأتي أمي. اتصلنا بمنزل جدتي وعرفنا أنهم سافروا مبكراً. وفي الحادية عشرة

ليلاً، رنّ هاتف المنزل فأجاب أبي، عرفنا أن سيارة خالي انقلبت وأنهم أخذوهم إلى قسم المستعجلات.

# 20

## الشوكولاتة

أخذنا أبو وليد إلى المستشفى في منتصف الليل. دخلنا البناية ولم نجد أحداً يدلنا. مشينا في ممر لولبي، قبل أن نصل قاعة انتظار مظلمة وخالية. عندما تعودتْ عيناي العتمة رأيت خيال أمي تحمل أختي، تهدهدها وتمشي بها حافية جيئة وذهاباً. اطمأننا إليهما. أخبرتنا أن زوجة خالي في حالة سيئة وأنها ستبيت في المستشفى. لم يكن في وسعنا رؤيتها أو رؤية خالي، كان يجب أن نعود إلى البيت حتى ينام الجميع.

في سيارة أبي وليد، حكت لنا أمي ما حدث. انحرفت شاحنة عن طريقها وأخذت تتجه صوبهم. أدار خالي المقود بحركة مفاجئة فقد بعدها السيطرة على السيارة. انحرفت هي الأخرى قبل أن تنقلب في الهواء. حضنت أمي أختي بقوة. زوجة خالي التي كانت تجلس في المقدمة دون حزام سلامة حلقت بعنف مخترقة الزجاج.

عندما استقرت السيارة فوق الأرض، خرج خالي بحثاً عن زوجته التي سقطت عشرات الأمتار بعيداً في حقل للنباتات الشوكية. ظل يصرخ بهستيرية، بينما أمي تتفقد أختي التي نجت بأعجوبة. عندما أرادت الخروج وجدت حذاءها عالقاً تحت الكرسي، ولم تنجح في استخراجه.

ظلت السيارة تغوص بنا في الليل الهادئ بينما تغط أختي في نوم عميق كأن شيئاً لم يحدث. ختمت أمي قصتها: "حفظك الله لأنك لم تأتِ معنا..."، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رفضتُ فيها مرافقتهم إلى أصيلة.

عندما دخلت فراشي تلك الليلة، تخيلت ماذا كان سيحدث لو أنني سافرت معهم. كنت سأجلس في المقدمة بلا حزام سلامة أيضاً، وكنت من سيطير في الهواء ويسقط في الحقل الشوكي. ربما سأكون ميتاً أو في غيبوبة في هذه

الأثناء. لا بد أن هذا تحذير لي لأنني انقطعت عن الصلاة، أو لأنني وشيت بوليد. قررت ألّا أعود إلى أصيلة أبداً، وأن أتجنب كل الأخطار.

خلال الأيام التالية، استقر خالي وزوجته عند خالتي ماريا. ذهبنا لرؤيتهم كل مساء، انهمكت خالتي في استخراج الشوكات التي ظلوا يكتشفونها كل يوم، وردّد الجميع أنني نجوت بأعجوبة لأنني لم أسافر معهم. أخذت زوجة خالي تتعافى، ثم رحلا في نهاية الأسبوع، وكان يجب أن تنتظر بضعة شهور لتلتئم جراحها وتعود كما كانت.

ابتدأت الدورة الثانية. وليد يرتدي الكاسكيطة الحمراء في زوال الأربعاء ويومي السبت والأحد، لم يكن مسموحاً لنا أن نلبس قبعات في المدرسة. وقد عرف أن ثمة شيئاً غير طيب ينتظره، لأن أولاد الحومة الخامسة نصبوا له فخاً وحاصروه كما فعلوا معي. لكنه أفلت منهم في الوقت المناسب. توقف بعد ذلك عن لبسها وصار يأخذ كل احتياطاته.

أخبرني أبي أن صديقاً له سيزورنا يوم السبت ليعلّمنا استعمال برنامج الناشر المكتبي. طلب مني أن أكون موجوداً حتى أتعلم منه وأعلمهم بعد ذلك. جاء الزائر بعد الغداء. كان شعره أبيض رغم أنه يبدو أصغر من أبي. نزع حذاءه عندما رأى السجادة رغم أن أبي دعاه للاحتفاظ به. دخل للجلوس وكان جوربه مثقوباً. ظللت أنظر إلى الثقب طوال الوقت بينما هو يتحدث في السياسة وكيفية استعمال "الماكنتوش". أحضر أبي القهوة، وشرعا في التدخين. كانا يقولان كلمات مثل اللوائح السوداء والديموقراطية والانتخابات.

جلست جنبه أمام الشاشة وأخذ يريني ما يجب فعله. من حين إلى آخر، ينظر إلى رفوف المكتبة ويتحدثان عن الكتب الموجودة فيها. شعرت أنه قرأ كتباً أكثر من أبي لأنه ظل ينصت إليه بتركيز ويسأله عندما ينتهي من الكلام. قال إنه يكتب مباشرة على "الماكنتوش" منذ خروجه من السجن، متخلياً كلياً عن الكتابة بيده. قفزت كلمة سجن إلى أذني، فبدأت أتفحص هذا الزائر الغريب. لا يبدو لصاً أو مجرماً. استنتجت أنه قضى سنوات طويلة حتى قرأ كتباً كثيرة ولم تبقَ في رأسه شعرة سوداء واحدة.

تكاثرت الأسئلة في رأسي وأنا أتابع حديثهما، قال إنه عاد من رحلة في الجزائر حيث التقى صديقاً يكتب القصص، ينام في بيت مختلف كل ليلة لأنهم وضعوا أسماء الكتاب والفنانين في لوائح سوداء. وهو لا يلتفت إذا سمع اسمه في الشارع لأن القاتل ينادي ليتأكد قبل أن يطلق الرصاص. تذكرت الرئيس بوضياف، وفي تلك اللحظة، سألتهما: لماذا لا يصوّت الناس عندنا أيضاً على الإسلاميين؟

فضحكا وقالا بصوت واحد: "لأننا خبراء في تزوير الانتخابات...".

ثم حاول أبي أن يلطف الجو: "المغرب الجديد يفرج عن المعتقلين ويقبض على الكوميسير". واكتفى الزائر بقول إنه "رمز فساد المخزن". لم أكن أعرف معنى المخزن، كلّ ما كنت أعرفه أن القرويين عندما يتجمعون في المسلسلات المغربية يقولون بالبلاهة نفسها: "اللي قالها المخزن هي اللي تكون"، ثم أضاف الزائر ناثراً سحابة كثيفة من الدخان: "إنهم يلهون الناس بفضيحة إعلامية... وبقية الكوميسيرات من سيقبض عليهم؟".

بعد ذلك لم أعد أفهم عمّ يتحدثان. أخذ يحكي عن الرفاق الذين خانوه. كان يردد: "إنهم ستالينيون بشعون. تصوّر أن يحرموك قطعة شكلاطة...".

عندما ذهب الزائر، سألت أبي لماذا دخل السجن. ورأى أنني فهمت، فلم يحاول تغيير الموضوع. أخبرني أنه سُجن بسبب آرائه، ولم أفهم ما معنى ذلك بالضبط، فسألته هل شتم الحسن الثاني؟

ظل صامتاً بعض الوقت كأنه يفكر فيما يجب أن يقول.

– في هذا البلد، إذا أردت البقاء حراً، عليك أن تغلق فمك وتبتعد عن السياسة...

لكنني لم أفهم. فحكى لي أن صديقه كان يوزع المناشير عندما كان تلميذاً في الثانوية، ويعقد الاجتماعات السرية لتنظيم الإضرابات. عندئذ تخيلت أنه بطل حقيقي، لأنني رأيت ذلك في الأفلام. سألته هل كان يفعل مثله، ففكر قليلاً ثم بدأ يضحك. أخبرني أنه كان ينتمي إلى مجموعة متمردة أيضاً. قضوا ليلة كاملة في كتابة شعارات معارضة بالفحم على الجدران. وعندما عاد إلى البيت عجز عن النوم خوفاً مما ينتظره في الغد عندما تستيقظ المدينة. كان

متيقناً أن البوليس سيجد طريقه إليه عبر "مقدّم الحومة"، لكن المطر أخذ يتساقط مع الفجر. تساقط بغزارة ماحياً ليلة كاملة من العمل الثوري.

أضحكتني القصة رغم أنني لم أفهم ما هي المعارضة، وقد كانت الكلمة غامضة ومتداولة في بيتنا. فشرح لي أنها مجموعة منقسمة إلى ثلاثة أجزاء: جزء في السجن، وجزء في المنفى، وجزء يشارك في الحياة السياسية لكنه يرفض دخول الحكومة، وهي الفئة التي ننتمي إليها. أعجبتني كلمة "معارضة" وأعجبني أن ننتمي إليها. يمكننا أن نعارض أي شيء وكل شيء. لكن القضية خطيرة في النهاية، لأنها تؤدي إلى السجن إن لم تنجح في الهرب إلى الخارج.

فسألته: "لماذا لا نبتعد عن السياسة؟".

– لأننا كنا فقراء أيضاً، ولأن هناك أموراً لا يجب السكوت عليها...

ثم استدرك قائلاً إن كل السجناء يخرجون الآن، وإن ذلك سيجعلنا نعيش في بلد أفضل.

عندئذ سألته: "هل الجزائريون شيوعيون؟".

فضحك قبل أن يجيبني أنهم كانوا اشتراكيين. لكن الاشتراكية انتهت بسبب الألمانيين الذين هدموا جدار برلين. الآن يريدون أن يرجعوا إلى الإسلام لأن زلزالاً قوياً دمر آلاف المنازل، ولم تهتم الدولة بإنقاد الشعب، وحدهم الإخوانيون ساعدوا الناس. لذلك صوّتوا لهم في الانتخابات.

وسألت أبي ما هي الشيوعية؟

فقال لي إنها عندما لا يكون هناك لا فقراء ولا أغنياء. وشعرت أنها فكرة مجنونة، لأنني كنت أتمنى أن أكون غنياً وتصبح عندي فلوس كثيرة، فسألته ماذا في وسع الناس أن يصبحوا إن لم يكن هناك فقراء وأغنياء. أخبرني أن الجميع يأكلون ويشربون ويذهبون إلى المدرسة، وأن المستشفيات والأدوية بالمجان. لكنها فشلت لأن الدولة تخفي عن الشعب ما يجري في الخارج وتمنعهم من السفر إلى أميركا، وينتظر الإنسان سنوات طويلة ليحصل على شقة أو ثلاجة، ولأن الناس يفضلون شرب الكوكاكولا على أن يكونوا بصحة جيدة.

قلت له: "إنهم يقولون إن أبا وليد شيوعي".

فضحك وسألني: ”من يقول ذلك؟“.

أجبته: ”التلاميذ في مدرستي القديمة“.

فقال: ”وماذا يعرفون عن الشيوعية؟“.

فسألته مباشرة: ”هل عائلة وليد شيوعيون؟“.

فضحك قائلاً: ”على العكس إنهم فوضويون، نحن هم الشيوعيون“.

شعرت بالهلع وأنا أفكر في أبي الشيوعي وأمي الشيوعية. كنت أعرف أنها جريمة من نوع ما، وتذكرت فيلم ”احنا بتوع الأتوبيس“ الذي لم يكن يشبه أي فيلم مصري شاهدته من قبل، رغم أن عادل إمام يلعب بطولته. وتوقعت أن يأتي البوليس في أي لحظة للقبض علينا وإلقائنا في السجن. صدمني ما سمعته فأراد أن يستدرك: ”لسنا شيوعيين تماماً، بل يساريين، لكن الناس لا يفرقون. بالنسبة إليهم نحن مثل بعضنا“.

جاءت أمي تقول له: ”لا تملا رأسه بالتخريبق. خليه يديها فقرايتو“.

لكنني كنت قد أصبحت تلميذاً مجتهداً، فقال لها: ”إنه يريد أن يفهم“.

وفي تلك اللحظة، قالت أمي: ”يجب إذن أن تقول له كل الحقيقة“.

لم أفهم على أي حقيقة تتكلم، بينما تظاهر بأنه لم يسمعها.

خلال العشاء، دار حوار بينهما من جديد، دون أن أنجح في فهم أي شيء. قالت أمي: ”ضيع شبابه في الحبس، لو أنه أغلق فمه، ما قبضوا عليه“.

وأجاب أبي: ”في ذلك الوقت كان يُقبض على الناس سواء فتحوا فمهم أو أغلقوه...“.

لكنها أجابته: ”لو كان رجلاً، لخرج مثل الآخرين“.

ولم يجد أبي ما يقوله سوى: ”إنه مسكين“.

ثم أضاف وهو ينظر إلى الأكل: ”لكل ظروفه“.

وقالت أمي منهية الموضوع: ”الملك رجل يحترم أعداءه شرط أن يكونوا رجالاً أيضاً“.

ونظرت إلى أبي بعد أن عجزت عن فهم الحكاية، فشرح لي أن صديقه كتب رسالة لطلب العفو، تراجع فيها عن أفكاره وتبرأ من رفاقه. وواصلت أمي كأن الأمر يتعلق بنكتة: ”عندما جاء العفو، أفرجوا عنهم وبقي هو كالمغفل“.

صدمتني الحكاية؛ لم أعد أعرف من الطيب ومن الشرير.

بعد العشاء، جاء أبي إلى غرفتي، وأخبرني أنه ليس هناك طيب أو شرير. كل ما هناك أنه تخاصم مع رفاقه الذين كانوا يعاملونه بقسوة، حتى كرههم وقرر أن ينفصل عنهم. وعندئذ تذكرت الشوكلاتة فجأة، فسألته ما حكايتها. فقال لي: "قيمة الشوكولاتة عالية في السجن، مثل السجائر".

كنت أعرف من الأفلام أن السجناء يستعملون السجائر بدلاً من الفلوس. لكنني لم أرَ أي شيء بخصوص الشوكلاتة. فأخبرني أن المعتقلين كانت تصلهم الأطعمة من أهلهم. وأنهم كانوا يقتسمونها وفق المنهجية الاشتراكية حتى يستفيد أولئك الذين لم تكن لديهم زيارات. ولا أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظة الأطعمة التي نأخذها معنا إلى المدرسة في رمضان، أو خلال الرحلات المدرسية، وكيف ننهمك في مقايضتها أيضاً.

وقد كانت الشوكولاتة تدخل في هذا النطاق، فيحصل كل معتقل على حصته منها. عندئذ لم أصبر على تفاصيل الحكاية: "لماذا حرموه منها؟".

كان حرمان الشوكولاتة عقوبة شديدة. عندما دخلوا السجن، شكل المعتقلون نظاماً خاصاً مثل دولة صغيرة لها قوانينها. من لا يحترمها، يعرض نفسه للعقاب. يتوقف الآخرون عن الكلام معه لمدة طويلة تدوم شهوراً وأحياناً سنوات، حتى يجن جنونه ويكاد ينسى السبب الذي دخل من أجله السجن، ويحرمونه الكتب المشتركة والشوكولاتة.

فسألته: "لماذا تخاصم معهم؟".

فأجاب: "يقولون إنه وشى بهم".

– هل فعل ذلك؟

– ماعرفتش. المخزن قادر على كل شيء.

في تلك الليلة، قبل النوم، رأيت الزائر الخائن ورفاقه الأشرار، وظلت الحكاية تتلاطم في رأسي. لا أدري لماذا تذكرت لعبة الكنز في تلك اللحظة بالضبط، عندما قال دونكيشو لكاليميرو: "الكنز الحقيقي هو أن تغلق فمك".

# 21

## الكوميسير

بعد أيام أخذ الجميع يتحدثون عن الكوميسير، بمن في ذلك الأطفال الأكبر منا الذين أصبحوا يتجمعون في حلقات، ويبعدوننا لأننا صغار لا نفهم. بعضهم يلقبونه بالحاج ثابت. تساءلت: ماذا فعل الحاج، أو الكوميسير، بالضبط، حتى يتحدث عنه الجميع بكل ذلك الشغف.

لا بد أنه هو الذي اعتقل السياسين وعذبهم ليعترفوا بالحقيقة. ولعله هو من سجن صديق أبي، وأجبره على الوشاية برفاقه، قبل أن يخبرهم حتى ينتقموا منه. فكرت في كل ذلك لكنني لم أقله لأحد، لأنني صرت أعرف متى يجب أن أفتح فمي ومتى يجب أن أغلقه، إلى أن جاء شهر رمضان وأصبح الحديث عن الكوميسير أكثر من الحديث عن البرامج التلفزيونية، لدرجة أن كل شخصين واقفين كانا سيتكلمان عليه بالضرورة، مثلما كان الجميع يتحدثون عن صدّام فيما قبل. لكنهم هذه المرة لم يكونوا منشرحين بانتصاراته العسكرية على أميركا، بل ظلوا يوشوشون ويتغامزون حتى لا نسمعهم.

الجميع يخفون عنا الحقيقة. حتى أفراد العائلة يستعملون الفرنسية كي لا نفهم. نشرت الصحف صوره كل يوم، وأصبحت تباع بسرعة البرق، فكان أبي يدفع ثمنها مسبقاً، ويكلفني إحضارها ما إن تأتي، والبقال يخبئها ولا يبيعها سوى لزبائنه الأوفياء. في الطريق إلى البيت، كنت أنظر إلى الصور وأقرأ العناوين: "محاكمة الكوميسير ثابت"، و"لحظة انهيار الوحش المغتصب". لا أفهم لماذا يدعونه بالوحش، فقد كان يبدو إنساناً طبيعياً بلا أنياب أو قرون. أما كلمة مغتصب، فلم أكن أعرف ماذا تعني.

أبحلق في الصورة الفوتوغرافية محاولاً فك اللغز، كان يلبس معطفاً طويلاً ونظارات سوداء، يحني رأسه ليواري وجهه، لكنهم يصورونه محاطاً بعشرات من رجال الشرطة. كان الناس يقولون إنهم خدّروه في المحكمة حتى لا يقول

كل الحقيقة ويدلي بأسماء المسؤولين الكبار المتورطين معه. الجميع كانوا يرددون أنها شبكة كبرى تغتصب بنات الشعب.

ذات ليلة، جاء الروبيو ومعه أولاد من كل الحومات، تطوّع ليشرح لنا القضية بأدق تفاصيلها. تشكلت حلقة بشرية كبرى في قلب حومتنا، وكان جميع الأولاد في حالة غليان. ابتدأ كلامه ونحن في أوج التشويق: "هادشي تيوقع في بلدنا، حتى انتم الصغار خاصكم تعرفوا".

لم يكن مظهر الروبيو شريراً. ذلك بالضبط ما يشكل سحر شره. كان مؤدباً أمام الكبار، فاحشاً مع الصغار. يفضل لقب الحاج على الكوميسير، مثل جميع المغاربة، لأنه يضفي هالة في غاية التناقض مع ما فعله. "هل تعرفون ماذا حصل أدراري؟ هل تعرفون ما الذي فعله الحاج ثابت؟".

لقد أدخل آلاف النساء إلى شقته. كان يضع كاميرات الفيديو داخل حمام نساء في الدار البيضاء. كلما أعجبه جسد امرأة، يستدرجها بالحيلة أو تحت تهديد مسدس. نساء من كل الأعمار والألوان والأشكال. في كل مرة يقفل غرفة النوم بالمفتاح، يفرد سجادته ويصلي، تنظر إليه المرأة مرعوبة وهو يؤدي ركعاته بخشوع، ثم يطوي السجادة قبل أن يكوّكها لساعات طويلة.

صرخ أحد الأولاد مقاطعاً الروبيو: "قضيبه يبقى منتصباً لثلاث ساعات، ويستعمله لتعذيبهن". وتدخل ولد آخر: "إنه يصور كل ذلك بكاميرا فيديو ليصنع أفلام بورنو، ويبتزهن بتلك الأفلام حتى لا يقدمن شكايات ضده. في كل شريط، يكتب اسم المرأة وتاريخ اغتصابها، ويرتبها في خزانته مثل محترف".

ظلت الوجوه تبحلق ببلاهة عاجزة عن فهم ما تسمعه.

ولكي يسترجع زمام الأمور، قال الروبيو خافضاً صوته فجأة: "إن سيدنا أمر أن يضعوا له كاميرا في المحكمة حتى يتابع تفاصيل المحاكمة من القصر، لأنه كان حريصاً على متابعة هذا المسلسل المشوّق. ثم أدلى خطبة لإقناع الشعب أن الكوميسير حالة استثنائية لا تمت بصلة إلى بقية البوليس".

لكن البوليس كان شريراً في ذلك الوقت، وهم الذين تستروا عليه كل تلك المدة، ولا يُستبعد أن يفعل آخرون أشياء أقبح وأبشع فتتم حمايتهم أيضاً، ذلك ما كان يؤمن به الجميع.

في ذلك اليوم، حكموا على الحاج بالإعدام، وكان آخر شخص يطبق فيه الحكم. تحولت أفلامه إلى أسطورة يدّعي الكل أنها منتشرة في السوق السوداء، وأنه رأى واحداً منها يبتدئ بالنشيد الوطني ونرى فيه الكوميسير واقفاً في تحية عسكرية وخلفه صورة الملك، كان ذلك وحده يثير فزعاً شديداً.

كانت حكاية مريعة: المخزن، البورنو، المسؤولون الكبار، الفيديو، النشيد الوطني، المسدس، حمام النساء، النساء، أربعة آلاف امرأة من كل البلاد، أمهات وأخوات، بنات وزراء ورجال أعمال. عندما وصل إليهن، لسعه الضوء.

عندما انتهى الروبيو، انفض الجميع وعادوا من حيث جاؤوا. لم يبقَ في حومتنا سوى عصابة القردة، ولم يكن هناك أثر لوليد. أدركت في الحال أنهم نصبوا له فخاً وقبضوا عليه في خضم الليل والازدحام. قلت للأولاد يجب أن نبحث عنه. نظر دونكيشو إلى ساعته وقال: "إنها الحادية عشرة، يجب أن نطلع لبيوتنا. لا بد أنه رحل دون أن يحيينا، مثل عادته". وذهبوا كلهم، فبقيت وحدي في الساحة.

لا أدري كيف واتتني الشجاعة للبحث عنه، كنت أحس أنني منفلت تماماً من القيود التي تمسكني عادة. مشيت في الظلام نحو الحومة الخامسة. وجدتها خالية. أين ذهب كل الأولاد الأشرار؟ بحثت عنهم في جنبات الحومة وأنا حذر من أن يكتشفوني. ثم لمعت فجأة فكرة زنزانة الأزبال في رأسي. بدأت أجري مبتعداً ومحتاطاً من أن ينتبه إلي أحدهم.

وصلت الزنزانة، واختبأت وراء السيارات. هناك جمع غفير من الأولاد يحيطون بالبناية الصغيرة. إنه عدد كبير جعلني أستبعد أن يكونوا تحركوا كلهم للانتقام من وليد. ثم رأيت الروبيو يتزعمهم، فغيرت مكاني، مقترباً أكثر، حتى رأيتهم يمسكون وليد، ويدخلونه الزنزانة ويقفلون عليه مع الأزبال. بدأ قلبي يخفق بقوة لأنني عرفت أنني السبب في كل ذلك. ماذا في وسعي أن أفعل الآن، هل أخبر أبويه؟ سأخبر أبويه؛ إنه الحل الوحيد.

لم أكن أسمع ما يقولونه، لكن قهقهاتهم الشريرة كانت تصلني رغم المسافة البعيدة. نظرت إلى ساعتي، أصبح الوقت متأخراً جداً، سيخلق لي

ذلك متاعب في البيت. في كل الأحوال، لم يعد في وسعي الرجوع وتركه في هذه الورطة، لا يمكن أن أفعل ذلك.

أقفلوا عليه الشبكة الحديدية، ثم رجعوا إلى الوراء. وبعد لحظات رحلوا وتركوه وحده مع الميكروبات والرائحة النتنة. لمعت في رأسي فكرة أخرى وأنا أراهم يبتعدون. سأنقذه. سأتسلل بين السيارات وأفرج عنه. انتظرت ما يكفي من الوقت حتى ابتعدوا جميعاً. وتقدمت محتاطاً، أنظر حولي هل ثمة من بقي لحراسته. وصلت الزنزانة. كان وليد يقف داخلها مستسلماً. قلته له بحماس: "جئت لإنقاذك". فلم يبدِ أي فرح، كأن الإفراج عنه أو سجنه أمران متساويان.

بدأت فتح الباب، وعندما أشرعته تماماً، اكتشفت أنهم حلقوا نصف رأسه، فصحت فيه: "وليد ماذا فعلوا لك؟". لم يجبني، كنت قادراً على التخمين من الفاعل. إنه الروبيو الذي يتباهى دائماً بموس الحلاقة في جيب قميصه.

صرخت فيه: "هيا اهرب... اهرب!".

لكنه لم ينظر إلي على الإطلاق، كأنه فقد حاسة السمع. لم أعرف لماذا يتصرف بتلك الطريقة، حتى سمعت القهقهات الشريرة تأتي من ورائي. فهمت قبل حتى أن أستدير. عاد الأولاد بعد أن نصبوا لي فخاً. لسعتني فكرة مغادرتهم السريعة من المكان، بدلاً من أن يستمتعوا بالتفرج عليه. إنني غبي فعلاً.

عندما استدرت، وجدت أنهم يحيطونني من جميع الجهات. امتدت إلي عشرات الأيادي، أمسكوني جميعاً ورفعوني في الهواء بعد أن صرت خفيفاً. ألقوني في الداخل أيضاً. حاولت الخروج في الحين لكنهم أقفلوا، حاولت حبس الباب برجلي ثم بظهري لكنهم كانوا أقوى. كنت في ورطة حقيقية، بل أكثر من ورطة. اقترب الروبيو من الشبكة الحديدية ونظر إلي للحظات قبل أن يسألني، كان الولد الوحيد الذي لا يضحك: "واش أنت معنا ولّى معه؟".

لم أعرف بماذا أجيب. كنت سأقول إنني لست مع أحد لكن ذلك بلا معنى. عرفت أنهم يريدون أن يتسلوا فقط بإجاباتي، فبقيت ساكتاً.

– هل تعرف لماذا قبضنا عليك أيضاً؟

فارتفعت أصوات الأولاد: "لأنك خائن وجبان".
– جاء الوقت لنعلمك الرجولة.
وقال أولاد آخرون لوليد: "انظر من جاء لإنقاذك، صاحبك الوشاي".
وأضاف الروبيو: "لديكما مشكل الآن، يجب أن تحلّاه معاً".
وقهقهوا جميعاً مثل القراصنة قبل أن يرحلوا.

# 22

## الزنزانة

المكان مقزز. أحاول الابتعاد عن الرائحة مستنشقاً هواء الخارج. أُدخل أصابعي في الشبكة الحديدية، أرجّها بكل ما أوتيت من قوة عساني أنجح في تخليص نفسي من هذه الورطة. لكن الباب يبقى عنيداً.

أنظر إلى وليد وهو يبحث عن شيء ما في الأزبال، غير مكترث لمحاولاتي السخيفة. يعثر على كرتونة يمزقها بعناية قبل أن يضعها في الركن الآخر من الزنزانة ويجلس فوقها. منظره مقرف برأسه نصف المحلوق، إنه لا يعرف ذلك طبعاً. أحاول مناداة المارة. أصرخ ملء حنجرتي. ليس هناك أحد. أنظر عبر الشبكة الحديدية إلى الشارع المضاء بشكل خافت. أفكر في أولاد الحومة الخامسة وأولاد كل الحومات الذين ساهموا في هذه المؤامرة القذرة. إنهم قردة، كلهم، ونحن كذلك. نحن مسجونان في هذا القفص مثل القردة!

أنظر إلى البراميل البلاستيكية الطافحة بالأزبال. أتوجس من وجود ثعبان أو فئران في الظلام. الرائحة مقززة على نحو لا يوصف، والأشياء المتعفنة تفوح بروائحها الكريهة. هذا أسوأ كابوس أراه في حياتي. لماذا لا أستيقظ الآن؟ يجب أن أستيقظ بأي وسيلة. لكنني أتيقن أن ما أعيشه حقيقي بدليل أن دقائقه تتمدد دون أن يتطور الحلم. إننا عالقان في هذا الفخ!

عندما بدأت أيأس من فكرة الخروج، أخذ وليد يضحك في الظلام، لم أكن أرى سوى نصف وجهه يلطخه ضوء شاحب.

– هذا جزاء الخائن!

كان على حق. لكنني فقدت صوابي وأنا أسمعه. أغتنم فرصة جلوسه وأركله صارخاً: "اسكت".

ينهض بسرعة ويدفعني إلى الوراء، أكاد أسقط فوق البراميل. أمسك أول شيء أجده قرب يدي وألقيه عليه، كيس بلاستيكي ممتلئ بسائل ما. يطير

الكيس في اتجاهه مترنحاً في الهواء، لكنه يتجنبه بمهارة. يرتطم الكيس بالحائط خلفه، ثم يسقط على الأرض دون أن يتمزق. أشعر لوهلة أننا في طور تجريب لعبة ممتعة.

يقفز وليد نحو البراميل، أتوقع أن يستل كيساً يلقيه اتجاهي أيضاً، لكنه يفعل أكثر من ذلك. يجر البراميل بقوة ويدفّق محتوياتها، برميلاً بعد الآخر، حتى تغرق الزنزانة في الأزبال كلياً. أحاول الابتعاد ما أمكن، تقع قدمي فوق الكيس الذي ألقيته عليه أولاً، أشعر به يتمزق تحت حذائي، ويتسرب سائله حتى أحس أنني سأنزلق. أحافظ على توازني وأعثر على الطاقة اللازمة للقفز اتجاهه.

نتماسك بإحكام، أحاول دفعه ويحاول دفعي، نعلق في بعضنا بعضاً كوعلين عنيدين. يرجع خطوتين إلى الوراء قبل أن يبدأ دفعي في الاتجاه المعاكس، أرجع إلى الوراء حتى يرتطم ظهري بالشبكة. أحاول أن أتخلص منه بإسقاطه مستعملاً رجلي، لكنه يقاوم ويستعمل رجله لإسقاطي، نتماسك بقوة أكبر حتى نصبح كائناً واحداً يسقط في قلب القاذورات.

نلهث معاً في الظلام، تختلط أنفاسنا برائحة المأكولات المتعفنة. أشعر أنني غارق في تلك الأشياء وهي تلطخني في سروالي وقميصي، في ظهري وعلى طول ذراعي. يا للقذارة! تبحث يداي عن سطح الأرض أو أي شيء صلب أستند عليه للنهوض. أراه يركل الأزبال برجله للنهوض أيضاً. لو كان هناك فئران أو ثعابين، فهذه فرصتها للانقضاض علينا. أقف بصعوبة وأمسك الشباك الحديدي حتى لا أسقط من جديد. أسترجع أنفاسي بينما يقف هو في الطرف الآخر من الزنزانة. ثم أحس أن قوتنا بدأت تخور.

يقرفص كل منا في قلب القذارة، ونبقى هكذا دونما كلمة!

صار يعرف أنني وشيت به. قلت لنفسي معه حق، كل ما يحدث بسببي لأنني لست سوى "وشّاي". وشعرت بالقرف من نفسي، لدرجة أنني لم أعد أهتم بالأزبال، تمنيت ألّا أخرج من هذه الزنزانة القذرة أبداً. وأخذ السؤال يتردد في رأسي: لماذا فعلت ما فعلت؟

كل ذلك للفوز بحب كاميليا؟ سألت نفسي من أين جاء كل ذلك الحب؟ حلمت بها طوال الوقت، ولم تشعر هي بي قط. وفكرت أنني من أحبها أولاً،

وأنه سرقها مني. تقافزت إلى ذهني أحلامي المتكررة بها، ومحاولاتي التقدم كل مرة. حاولت أن أصبح مخترعاً عبقرياً لإدهاشها، ثم ولداً متديناً لكسب احترامها. وعندما فشلت الخطتان لم يبقَ أمامي سوى أن أجتهد مثله. ولما أصبحت مجتهداً أخيراً، اختارته ولم تأبه لي. حتى تغوّطه في ملابسه لم ينفرها. ما هذه البنت المجنونة؟

ظللت أقلّب تلك الذكريات داخل رأسي حتى عدت إلى "يوم الواقعة". في ذلك اليوم، لم أنقذها من بطش المعلمة داميّة. وبدلاً من ذلك أخذت أحلم بانقلاب الحافلة كل يوم لإنقاذها من الغرق في البحر.

عندما كنت بلا أبوين، ذهبت إلى بيتها، ولعبت معها. شعرت حينذاك أن لتلك التجربة القاسية فوائدها. وللحظة ملأ رأسي رنين ضحكاتها عندما كان يلطمنا أخوها بالوسادة في الظلام. حتى ابتسمت رغماً عني، ونسيت أنني محبوس في هذه الزنزانة المقرفة. كانت تلك لحظة سعيدة جداً، ربما تكون أجمل لحظة في حياتي.

في المدرسة الجديدة، جاءت تسألني عن صحة أختي ومآل صداقتي مع وليد. نفخت صدري كديك، اعتبرت أنني الأهم لأنها كانت معي لطرح الأسئلة وليس هو. لكنني كنت مخطئاً. كنت مخطئاً، منذ أول لحظة، عندما التفتت إلينا ونحن عائدين في الحافلة بعد ذلك اليوم الرهيب. كل شيء حُسم "يوم الواقعة". في ذلك اليوم خسرتها.

اندفعت بشجاعة للدفاع عنها في القناة الصغيرة دون حتى أن تعلم بوجودي. وخفت عندما حاصرتني عصابة الروبيو فاستعملتها كذريعة، بكل خسة، للإفلات من عقابهم. عندما خسرت كل الأوراق في النهاية، تحولت إلى "وشّاي". هكذا، بكل حقارة. ليس هناك في العالم أسوأ من "وشّاي". أعرف ذلك من المسلسلات المغربية عن مقاومة الفرنسيس، وحتى المسلسلات المصرية، عندما كانوا يقاومون الإنكليز. أسوأ شيء هو أن تشي برفاقك. كنت جباناً على الدوام، في كل الفرص التي أتيحت لي. وكان هو شجاعاً. من أين يأتي بكل تلك الشجاعة؟ إنه يصمد في كل مرة. يوم إهانته أمام كل المدرسة، وليلة

تعذيبه خلال لعبة الكنز. حتى عندما كان يتغوط في ملابسه لم يكن ذلك يقلقه، ولم يكن يأبه لقرف الآخرين. من أين له تلك القوة؟

ظل السؤال يتردد في رأسي، وعزمت ألّا أطرحه عليه. ثم طفا الجواب على سطح ذهني من تلقاء نفسه. لقد أصبح قوياً بعدما أمسكه أولاد البراريك وأغلقوا عليه في الزنزانة. هذه الزنزانة التي نوجد فيها الآن. قضى فيها نصف ليلة، ثم خرج منها بطلاً دون أن ينتبه أحد إلى ذلك.

كان رأس وليد يعمل كلعبة شطرنج. أما رأسي، فكان داخله جهاز فيديو، وكانت حياتي فيلماً لا يتوقف. باغتتني في تلك اللحظة فكرة أن الفيلم قد يتوقف، وأن وجودي في هذه الزنزانة يؤذن باقتراب تلك النهاية. لا بد أنهم سيبثون نشرة الأخبار الأخيرة بعد قليل، لتشويق المشاهدين، قبل السماح لهم بمعرفة تتمة الحكاية. بذلت ما في وسعي للتفكير في نهاية مناسبة، فعثرت على واحدة سعيدة، أتزوج فيها وكاميليا، بينما يهاجر وليد مع أبويه إلى كندا. سيحقق حلمه ويتركني أحقق حلمي. إنه لا يحبها حتى. أبهجني ذلك وتخيلت أنها نهاية سعيدة لكل الشخصيات.

وبعد حين جاءت القطط...

حاولت الدخول عندما رأت كل تلك الأزبال الشهية، لكن الشباك لم يكن يسمح بذلك، كان وجودها مؤنساً. صرت قادراً على التمييز بين روائح الأشياء: قشور طماطم، بن القهوة المبلل، بقايا سردين، ولم تعد تقرفني تقريباً.

عندئذ سمعته يقول: "سوف تأتي شاحنة الأزبال بعد قليل".

وبقينا ساكتين في الظلام، ننتظر.

ثم سمعنا صوت العساس: "ماذا تفعلون هنا يا أولاد؟".

وانفتح الباب!

خرجنا نجري غير مكترثين لصراخه في ظهورنا.

ركضت بكل قوتي نحو البيت. كان باب العمارة مقفلاً، فضغطت على زر الانترفون مرات عدة. وجدت أبي وأمي مستيقظين. أمي غاضبة وأبي يريد أن يعرف: "فين كنتي؟ ما هذه الرائحة؟".

– أقفلوا عليّ في زنزانة الأزبال.

– من أقفل عليك؟
– ما عرفتش.
– كيفاش لا تعرف؟
– أولاد أشرار.
أجبراني على أخذ حمام، ثم تركاني أنام.
في الصباح، لم أذهب إلى المدرسة. وسألتني أمي من جديد وقت الإفطار فلزمت الصمت. عندئذ أخبرتني أن أبي اتصل بأبي وليد، وأنهما سوف يبلغان البوليس.
ذهبت إلى المدرسة في الزوال. سمحوا لوليد بارتداء قبعة بعد أن أخذه أبوه لحلق رأسه كلياً حتى أصبح أصلع. انتشر الخبر وعرف الجميع ما حدث لنا. لم أكلمه ولم يكلمني. تجنبنا النظر إلى بعضنا بعضاً. عندما أوقفتنا المعلمة ميلودة أمام كل القسم لنحكي ما حدث، بقينا صامتين. وعندما سألتنا عن هوية الأولاد الأشرار، رفضنا الاعتراف. كان وليد ينكر أولاً، ثم أفعل مثله لما يأتي دوري. أنظر إلى رد فعل كاميليا وبقية القسم، فأرى عيونهم كبيرة من شدة الدهشة والفضول.
في اليوم الموالي، جاء مفتش البوليس برفقة أبوينا. أخرجونا من القسم وذهبنا إلى الساحة. استجوبنا البوليسي الذي لم يكن فيه شيء يدل على أنه كذلك. طمأننا لنقول الحقيقة، ثم أخذ كل واحد منّا على حدة وسأله بحضور أبيه. كررت ما قلته من قبل: "ما عرفتش... أولاد أشرار". فطلب مني أن أروي له تفاصيل ما حدث قبل الدخول إلى الزنزانة. عندئذ فكرت أنه بوليسي حقيقي، يريد أن يقارن بين أقوالنا كما في الأفلام. فحكيت له اختفاء وليد وذهابي للبحث عنه. ومحاولتي الإفراج عنه وسقوطي في الفخ. ادعيت أنني غير قادر على تذكر وجوههم لأنهم كانوا كثيرين، ولأن الظلام كان شديداً، ولأنهم غرباء، ثم خطرت لي فكرة لامعة فقلت له إنهم أولاد البراريك. ومرّت عليه الكذبة.
ظلّ ينظر إلي صامتاً بعدما انتهيت، ثم ذهب ليسأل وليد. وعندما انتهى رحل من المدرسة ولم نره بعد ذلك اليوم.

عدوان متضامنان، هذا ما أصبحناه. لم نتبادل النظرات حتى تلك اللحظة. لم أجبن أمامه، قاومت مثله وأكثر. الجميع حاولوا الضغط علينا لكننا صمدنا.

في نهاية الأسبوع، جاءت جرافة، ودمرت الزنزانة. أصبح السكان يتركون أزبالهم في الهواء الطلق، ولم يبقَ منها سوى بقعة زليج أحمر على الأرض.

# الخروج من "الكوكون"

حصلت على معدل جيد في الدورة الثانية. شعرت معه أن الرياح قد صارت تدفع في الاتجاه الذي أريد، لم يعد هناك شيء ينغص حياتي. اكتشفت أمراً غريباً عندما عدت إلى البيت وقت الغداء. عثرت على دودة قز في الأرض تحت مكتبي، رفيعة جداً ولا يتعدى طولها سنتميتراً واحداً. نظرت إليها وهي تتلوى، ثم مددت إصبعي والتقطتها. لم أرَ من قبل دودة قز صغيرة مثلها. وضعتها داخل علبة كبريت ثقبتها كي تتمكن من التنفس، ثم دسستها في جيب وزرتي وعدت إلى المدرسة.

أحضر كعبول دودة أيضاً، لكنها أكبر. كانت لديه ورقة توت وافق أن يبيعها لي بنصف درهم. نظر الجميع إلى دودتي، ولم يكن أحد قد رأى دودة بذلك الحجم من قبل. سألوني أين وجدتها. قلت في غرفتي، وإنني لا أعرف كيف وصلت إليها. حيرني الأمر وظللت أفكر فيه خلال ساعات الدرس. كنت من حين إلى آخر أسترق النظر إليها داخل العلبة الصغيرة فأراها تأكل وتتلوى ببطء كثعبان يرقص برشاقة، محدثة ثقوباً بديعة في ورقة التوت الخضراء.

عندما عدت إلى البيت، وجدت دوداً أُخرى على الأرض تحت المكتب. وقفت أنظر حولي محاولاً فهم ما يحدث. فتحت درج المكتب. بدأت أخرج الكتب والأوراق، ثم عثرت على كمية كبيرة من الدود متكتلة ومتعلقة بالأوراق وأغلفة الكتب. تذكرت كيف اختفت إحدى الفراشات السنة الماضية. لا بد أنها تسللت داخل الدرج وأخذت تبيض هناك.

أفرغت محتويات الدرج، وأحضرت كرتونة صغيرة. وضعت كل الدود داخلها. بحثت جيداً حتى لا تبقى أي واحدة وتموت. امتلأت العلبة بكتلة كبيرة من دود

القز. أعطيتها ورقة التوت التي اشتريتها من كعبول، تجمعت عليها وتمسكت بأطرافها، ثم أكلتها بسرعة.

نزلت لشراء المزيد من أوراق التوت. سألت سليم من الحومة الخامسة. فأخبرني أن قط البكتيريا هو من يبيعها. ولم أجد بدّاً من الذهاب عنده. وجدته يلعب قرب إحدى العمارات، سألته مباشرة: "كتبيع التوت؟".

أخبرته أنني سأحتاج أكثر من ورقة، بل إنني بحاجة كيس ممتلئ بها. نظر إليّ بفضول وسألني: "كم عندك من دودة؟".

لم أكن أعرف بالتحديد فقلت له: "بزاف".

وفهم بسرعة أنني أملك ثروة حقيقية. تظاهرت أنني حافظت عليها منذ السنة الماضية لأتاجر فيها هذه السنة. فصدّق وقال: "غنعطيك التوت فابور، وانت اعطيني عشر دودات".

لم يكن لدي شيء أخسره، كله ربح في ربح. لذلك وافقت على عرضه وعدت إلى المنزل سعيداً. أعطيت الدود الورقة الأولى، ووضعت البقية في الثلاجة. بدا لي عددها هائلاً. ولما رن الجرس، فتحت الباب وأعطيت لقط البكتيريا حفنة كبيرة دون حتى أن أعدّها. نظر إليّ ببلاهة وأمسكها كأنه سينفجر من الفرح.

– شكراً خاي زيكو.

واتفقنا أن يأتيني بكل ما سأحتاجه من ورق التوت، ثم نزل السلالم وهو يقفزها ثلاثة ثلاثة.

في الأيام التالية، تطوّر البزنس. علم أبناء حومتي فجاؤوا عندي جميعاً، بعت لهم بأثمان رخيصة، وأعطيتهم دوداً مجانياً. نشروا الخبر في كل الحومات، وصار جميع الأولاد يدقون بابي، ويتبعونني في الزنقة. فجمعت ثروة صغيرة في غضون ثلاثة أسابيع.

كان الامتحان الموحّد على الأبواب، وبدأت الأيام تتناقص في اتجاه تلك اللحظة الكبيرة. ظل وليد يرتدي الكاسكيطة الحمراء بعد أن أصبح حليق الرأس، وكان الأولاد يدعونه لنزعها، فيفعل. يضحك الجميع على صلعته ويصيحون: "إيكوسان"، فيشاركهم الضحك من نفسه.

تعاقب ظهور دم الحيض عند تلميذات القسم. كنا متأكدين من خمس منهن على الأقل. ألبستهن المعلمات معاطف طويلة وفرحت بهن لأنهن أصبحن نساء، ورافقهن الحارس كل مرة إلى منازلهن لتغيير ثيابهن.

صرنا ننظر إلى مؤخرات النساء وهي ترفرف في الشوارع كالرايات، محركة داخلنا شهوة صاعقة. وأخذ الأولاد يدّعون أنهم جربوا الجنس مع الخادمات في بيوتهم، وتحدث الجميع عن منزل سري في الإقامة مليء بالعاهرات. بقينا نحلم بذلك المنزل دون أن نعثر عليه أبداً.

وجاء درس النشاط العلمي "التناسل عند الإنسان". ذلك الدرس الذي سمعنا عنه منذ مدرستنا القديمة. كنا نعرف أن تلاميذ القسم السادس يدرسون الجنس قبل ولوج عالم الكبار. ثبّت الأستاذ اليعقوبي رسماً بيانياً في السبورة، وأصرت المعلمة ميلودة على البقاء بحجابها ورائحة المسك المنبعثة من جسمها. ظلت قلقة ومتوترة، كأن عبقرينو سينزلق في أي لحظة ويقول شيئاً غير لائق، أو أن أحدنا سيضحك فجأة، غير مقدّر خطورة الوضع. ثم كشف لنا الأمر بكل صراحة: "هذا حيوان منوي، انظروا إليه، يدخل المهبل ويستقر هنا، هذا رحم وهذه بويضة". فهمنا أن ذلك الشيء الميكروسكوبي يتحول إلى إنسان في غضون تسعة أشهر. "هذا كل ما في الأمر، شكراً على المتابعة". كانت حصة ميكانيكية ومحبطة للغاية. لكن الدرس الحقيقي سنتلقاه بعد ذلك، عندما سينجح دونكيشو في العثور على مخبأ أشرطة البورنو في بيته، ليتحقق المشروع الشيطاني أخيراً.

دعانا إلى المنزل، فلبينا الدعوة كلنا باستثناء وليد. الشريط لأبويه. انتهزنا فرصة غيابهما لمشاهدته. نحن عصابة القردة، بحضور كاليميرو الصغير الذي كان في بيتهم على كل حال. كان على أهبة مشاهدة الفيلم الذي يراه أبوه وأمه خفية عنه. ظل الأدرينالين يسري في عروقنا، لأنهما كانا سيعودان في أي لحظة، لذلك كان يجب نبقى مستعدين.

سحبنا ستائر الغرفة وأدخل دونكيشو الشريط في جهاز الفيديو. جلسنا في الظلام مستعدين لمشاهدة الحقيقة التي ظل الكبار يخفونها عنا. ابتدأ الفيلم، الصورة شاحبة، ذلك الشحوب الذي تنفرد به أفلام الفيديو. يتحدث الممثلون

بالإيطالية. لا يزعجنا ذلك، فليس هناك ما يستحق الفهم. رجلان نحيلان بشعر كثيف، وامرأة شقراء بعيون زرقاء وجلد برونزي من شدة التشمس. إنهم يثرثرون في غرفة النوم، يحاول الرجلان إقناعها بأمر ما في جو من المزاح الغامض، وهي تتمنع كما ينبغي. وفجأة، يشرعان في تقبيلها وملامستها، تحاول المقاومة رغم أن ذلك يعجبها، من الواضح أن ذلك يعجبها. يعمّ الصمت في الغرفة، وحدها عيوننا تلمع في الظلام، ونحن متعطشون لما سيأتي.

يواصل الثلاثة مزاحهم بالإيطالية التي بدت لنا اللغة الأكثر إثارة في العالم. ينزعان ملابسها قطعة قطعة. تتصلب أعضاؤنا داخل سراويلنا. يخلصانها من قميصها، فتنبثق عريانة بثدييها الرائعين. كان جمالهما صاعقاً. يمص أحدهما حلمتها بينما يجر الآخر سروالها. أشعر بقضيبي سينفجر، أفتح سروالي، يفعل الآخرون مثلي. تطل دوداتنا في الظلام، يضيئها نور الشاشة، تخرج منتصبة يخدّرها منظر الأنثى الرائعة. الصدر المبهج والمؤخرة الشهية والفرج المعشوشب. يدهشني أن يكون الشعر أسود وكثيفاً بين فخذيها رغم أنها شقراء.

يُخرج أحد الرجلين ثعبانه ويقدمه إليها. تمصه بنهم كأنه حلوى لذيذة، بينما يغطس الآخر رأسه بين فخذيها. لا نفهم ماذا يفعل، فيشرح لنا دونكيشو أن لديها شفتين في ثقبها يلحسهما الرجل، فتشعر بلذة قصوى. إنهم الآن مجتمعون فوق بعضهم بعضاً، في وضعية وحشية يصعب وصفها. ستة أرجل، وستة أيادٍ، وثديان، وقضيبان، وفرج واحد. الجميع مستغرق في شغل جدي. كنا نشهر دود قز مقارنة بثعباني الكوبرا المنبعثين من جسدي الرجلين النحيلين.

يضاجعها الرجلان في الوقت نفسه. نحدق بشهوة في تلك الأنثى وهي تتأوه عرقانة على حافة الإغماء. كانت تلك الوضعية المستحيلة هي الوضعية الجنسية الأولى التي سنراها في حياتنا، لتنطبع عميقاً في ذاكرتنا إلى الأبد. يقذف الثعبانان رغوتهما فوق جسدها. لم يكن لدينا ما نقذفه. كنا نصوّب بنادق بلا ذخيرة. تمنيننا بحرقة لو كان في وسعنا أن نقذف تلك اللافا البيضاء التي أخذت الشقراء تلعقها كأنها لذيذة.

أرجع دونكيشو الشريط إلى بدايته حتى لا يكتشف الأبوان أمرنا، أخرجه وأعاده إلى مخبئه. فتحنا الستائر فهجم علينا ضوء النهار، بعد أن كنا غارقين في كهف عميق. في تلك اللحظة، شعرنا أننا لم نعد أطفالاً. خرجنا من شرنقتنا إلى عالم خشن وعدواني. لم يعد يمكننا العودة إلى الوراء بعد أن صارت تلك الصور جزءاً منا.

خرجنا إلى الهواء الطلق مندهشين لكون الحياة ما زالت هي الحياة. لكن شيئاً ما داخلنا تحوّل إلى غير رجعة، أصبحت تهاجمنا مئات الرغبات، ممزوجة بتأوهات الإيطالية الشقراء. تجربة عنيفة أدخلتنا في الموضوع بلا مقدمات.

تمنيت أن أصبح كبيراً طوال عمري، والآن بعد أن أصبحت كذلك، أرى رفاقي يلعبون بكل مرح وأنا حائر بين دور الولد العاقل والطفل الذي كنته. أصبحت الولد الضخم الذي يهجم عليه تلاميذ القسم من كل الجهات، بينما يمسكهم من محافظ ظهورهم، ويلوح بهم الواحد بعد الآخر، كما لو كان "كين كونغ"، وهم يتطايرون في الهواء ضاحكين. خشن صوتي، وصرت أشعر بالألم في حلمة صدري. وبدا كأن مكاني لم يعد في مدرسة للأطفال الصغار.

انتهينا من امتحانات المراقبة المستمرة التي لم تعد تقلق أحداً منا، وبدأت الاستعدادات للامتحان الكبير. ولم يعد الوقت يكفينا، فطلبت منا المعلمة ميلودة أن نأتي يوم السبت للمراجعة. كنا نحب الذهاب إلى المدرسة في ذلك اليوم لأنها تكون خاوية، وعندما نخرج للاستراحة، نلعب أكثر من المعتاد لأنه ليس هناك جرس. وفي القسم، ننكبّ على تمارين القواعد التي جاءت بها المعلمة، التمرين تلو التمرين، كأنها رياضيات.

صرنا نشعر أننا فريق واحد، قوي لا يُنهك، وأخذت الأخطاء تتناقص حتى اختفت، فأصبحنا نتمنى أن نجد تمارين أصعب. نخرج في منتصف النهار ونحن ممتلئون بشعور من أنجز شيئاً مهماً. نتدفق في ساحة الحومة الخامسة، نلعب فيها الكرة إلى غاية الحادية والنصف ظهراً، فلا يجرؤ أحدهم على الاقتراب منا لأن عددنا كبير، ويحمي وليد المرمى من كل الكرات واقفاً بكبرياء، وهو يلبس كاسكيطته الحمراء في منطقة عدوة؛ كان يبدو كأنه كسب المعركة ضد الجميع.

جاء الأسبوع الأخير، ومرت أيامه حتى وصلنا آخر يوم تبقّى لنا في المدرسة الابتدائية. لم يعد لديهم ما يدرسوننا إياه، تعلمنا كل شيء. بدت كأنها نهاية حياتنا القديمة. وقال لنا الجميع: ارتاحوا خلال اليومين المقبلين استعداداً للامتحان الكبير. كان الجو صيفياً، فارتدت المعلمة سامية قميصاً برتقالياً، وكان يمكن أن نرى بوضوح أنها بلا سوتيانات، لأن حلمتيها كانتا منتصبتين اتجاهنا. هيّجنا ذلك المنظر بجنون، بينما كانت تتحرك في بهجة وأريحية، منتعشة بالهواء المتسرب داخل ملابسها الخفيفة. تخرج وتدخل من القسم، وتدور بينها وبين عبقرينو محادثات بعيدة، ويضحكان لبعضهما بعضاً. قررنا آنذاك أن ما وقع وقع بينهما.

# 24

## اليوم الأخير

يجب الاستيقاظ الآن. هذا ما أسمعه داخل رأسي وأنا نائمٌ. أعي بوضوح ما ينتظرني عندما سأفتح عينيّ. إنه اليوم الذي أتطلع إليه منذ شهور، بل منذ سنوات. اليوم الذي سأنتقل فيه إلى العالم الآخر، عالم الكبار، تاركاً خلفي عالم الطفولة. أفتح عينيّ. السادسة والربع. يمكنني أن أستأنف نومي لكن الحيوية ترج كل جسدي. أقفز من الفراش. أنظر من النافذة. السماء زرقاء وصافية. أفتح الشباك. يلفحني الهواء المنعش. أذهب إلى الحمام. أسمع أمي وهي تخرج من غرفة النوم، أسمعها وهي تتحرك داخل المطبخ. تفرح بي وتشجعني. أتناول فطوري مع حبات زبيب تجعل العقل يتفتح بصورة سحرية.

أنزل، أمشي، يلوّح لي العساس بيده. أنتظر جنب الطريق. يأتي وليد مع أبيه في السيارة، نتبادل التحية أمامه. ثم ينطلق بنا.

يسألنا بمرح: "مستعدين؟".

في الطريق، أتذكر الأيام الأخيرة، الاستعدادات والاقتراب من نقطة الصفر. أنا موجود الآن في تلك النقطة بالذات. تتلاحق مشاهد المدينة في الصباح الباكر. أشعر بالقدرة على التركيز ترتفع داخل رأسي بعد أن تلاشى كل شيء داخله، فأصبح متفرغاً كلياً للامتحان. ومع ذلك يجب انتظار الوصول إلى القسم، والحصول على الأوراق، والتحقق من الأسئلة قبل الانطلاق.

ننزل من السيارة ونمشي نحو المدرسة الإعدادية. نبحث عن أرقامنا ونصعد السلالم. وقبل أن نصل قاعة الامتحان، يقول لي وليد: "لقد صمدت جيداً هذه المرة، كنت رجلاً". أعرف أنه يتحدث عما عشناه في الزنزانة، وكيف قاومنا ضغوط الجميع للوشاية. إنه بمنزلة اعتراف يشعرني بالسعادة لأنني أصبحت ولداً قوياً. قبل أن نفترق يتمنى كلانا للآخر حظاً سعيداً في الامتحان.

جالس في مكاني، أضع بطاقة التلميذ في أقصى الطاولة على اليمين، تحت عدد من أربعة أرقام. إنه رقمي. لأنهم سيخفون اسمي عن الأساتذة الذين سيصححون.

تفرقنا على إعداديات حكومية، وطلبت منا المعلمات لأول مرة أن نساعد بعضنا بعضاً لينجح الجميع، خصوصاً كعبول الذي يجري الامتحان للمرة الثالثة والأخيرة. كان يبدو رغم بلاهته مستعداً لركوب البحار. وكان معنا تلاميذ من مدارس أخرى.

كانت كاميليا من بين الممتحنين أيضاً. من حسن حظنا أننا نجلس في صف واحد، لأن الطاولات متباعدة فيما بينها. انتظرنا أن يحضروا الأسئلة، ولما جاءت، وزّعوها علينا وانهمكنا في العمل. كنت مركزاً لدرجة أنني لم أشعر بالوقت وهو يمر، يشبه ذلك الغوص في ألعاب فيديو، حيث تصبح كل ثانية فرصة لاقتناص النقط.

عندما خرجنا للاستراحة، التقيت أولاداً من مدرستي القديمة، تذكرنا اسم كل واحد منّا، وبدا كأننا تعارفنا في حياة أخرى. لم تنظر إليّ كاميليا طوال الامتحان، وفي الاستراحة، بقيت بعيدة عني. وقفتُ قرب وليد الذي جاء بلا كاسكيطة بعد أن نما شعره. شعرت أننا أصبحنا أصدقاء من جديد.

بعد الغذاء في منازلنا، عدنا لاجتياز بقية الامتحانات، وقد أنهى معظمنا الإجابة مبكراً، وقررنا البقاء لمساعدة كعبول. فراس يدعي أنه لا يفهم أحد الأسئلة، فتنشغل معه الأستاذة. نستغل الفرصة لمساعدة كعبول، يفاجئنا بعناده مدعياً أنه قادر على الاعتماد على نفسه والإجابة عن كل الأسئلة.

ثم يصل الوقت إلى نهايته، فيجمعون الأوراق، ونخرج راكضين في السلالم بعد أن انتهى يوم كان يبدو أنه لن يأتي أبداً. الضوء البرتقالي يغلف كل المدينة، والهواء منعش وذو رائحة طيبة. يشعرني ذلك أن عالماً كاملاً يلامس نهايته في هذه الأثناء، مفسحاً المجال لعالم آخر سيفتح لنا ذراعيه عما قريب.

ظللت أراقب كاميليا، وقررت الاقتراب منها لأسألها كيف أجرت الامتحان. أستجمع قواي وأسحب نفساً عميقاً، أخطو نحوها مبتسماً، لكنها تتجاهلني.

عندما أسألها، تجيبني على مضض ثم تنظر بعيداً، تتصرف كأنها لا تعرفني. أشعر بالصدمة.

حسبت أنها ستشكرني على الصمود لإنقاذ أخيها من السجن، لكنها لم تأبه لذلك. ابتعدت عني ملتحقة بصديقاتها، وعندذاك استرجعت ابتسامتها، وتقاسمت فرحها معهن. بقيت أنظر إليها منزعجاً بعد أن التحق بمجموعتها أولاد من قسمنا ولم تتوقف عن الضحك معهم. حتى كعبول كانت تضحك معه.

ما الذي حدث؟ لماذا تتصرف معي بتلك الطريقة؟

لا بد أنها عرفت أنني وشيت بوليد، وأن كل ما وقع كان بسببي. وهي تعاقبني رغم أنني لم أعد الذي كنته. تجنبت النظر إليّ منذ البداية دون أن أنتبه إلى ذلك. تجاهلتني طوال الامتحان.

عدنا بسيارة أبي وليد. ظل يمازحنا ويسألنا هل أجبنا جيداً وهل سننجح. كنت أشعر أن الامتحان ترك داخلي خواء كبيراً، وأتساءل ماذا سأفعل عندما نصل، وماذا سأفعل غداً وبعد غد وخلال كل العطلة الصيفية. كنت أشعر أنني مكسور بسبب كاميليا، وظل وليد ينظر إليّ بينما أحاول إخفاء ما يدور داخلي.

وصلنا الإقامة. نزلنا من السيارة، أخذت أمشي عائداً برفقة وليد وقد بقينا صامتين كأن العالم قد وصل نهايته، قبل أن أسمع صوته يكلمني: "ها هي، إذا بغتيها خذها".

نظرت نحوه، فرأيته يمد إلي القبعة الحمراء التي أهدته كاميليا. أمسكتها وتأملتها، كانت مطرزة بثمانية خطوط متوازية. إنها حقيقية بكل تأكيد. قلت له بنفور: "مابغيتهاش".

فقال لي: "إذا كنا سنبقى أعداء، رد إلي موسوعتي".

– وأنت جيب لي سيفي.

فاستنكر: "أي سيف؟".

فأجبته: "راك عارف".

صعدنا إلى المنزل ورجعنا بسرعة. أعاد إلي سيفي وأرجعت إليه موسوعته.

وقبل أن نفترق قال: "يجب أن تنساها".

التفت إليه، وشعرت بالانزعاج قبل حتى أن أفهم عما يتحدث. عند ذلك أضاف: "إنها ليست لك".

تجمع الغضب في أصابعي. تكتلت قبضتي ولكمته لكمة قوية جعلته يسقط. كان ما قاله مباغثاً وعنيفاً. شعرت أنني أدافع عن نفسي وأنا أسدد إليه تلك اللكمة.

نهض وعاد يقف أمامي كأنني لم أضربه. بقيت ألهث وأنا أنظر إليه. كان متماسكاً كحارس مرمى. في تلك اللحظة، بدأت أشعر أنه انتصر عليّ فعلاً، لأنني لم أعد أدري ما أفعل.

– لا تكن أبله يا زيكو.

يمكن أن أضربه مرات أخرى حتى يصرخ ويعلن هزيمته، أو أن أتركه وشأنه وأتخلى عن فكرة كاميليا نهائياً. لم أجد داخلي رغبة في المواصلة.

مد إلي يده مصافحاً.

شعرت بالوجع وأنا أرى ذلك. تذكرت كل المغامرات التي عشناها، وتذكرته عندما كان صغيراً جداً يلعب بحصانه الخشبي بحماسة مثيرة للضحك. كانت تلك المصافحة هي ما يفصلنا عن تلك الأيام البعيدة. أمسكت يده وبقينا صامتين. لم يكن لدينا أي شيء نقوله أكثر، وعرفت أن كاميليا قد خرجت من الحكاية.

حملت سيفي وابتعدت. مشيت من حومة إلى حومة دون وجهة محددة، وظلت تطن في رأسي كلماته: "كاميليا ماشي ديالك". فكرت أنها ستنفلت مني وأنني لن أعثر على بنت مثلها أبداً. وأن بقية البنات لا يشبهن أي شيء لأن كاميليا هي كل شيء.

بعد المعركة الأخيرة في ذلك اليوم، وجدت نفسي واقفاً على حافة الطريق الذي يفصل الإقامة عن البحر بينما تعبر السيارات بسرعة فائقة. شعرت أنه لم يعد لدي ما أخسره. وفعلت ما لا يجب فعله، جريت بكل قوتي نحو البحر متمنياً أن تحدث لي مصيبة تخلصني مما أنا فيه، أن تدهسني شاحنة، أو تخطفني عصابة وتبيع أعضائي في السوق السوداء. نزلت إلى البحر وأنا أشعر أنني أقدم على فعل كبير.

اختفت العمارات ورائي، ولم تبقَ أمامي سوى الأمواج الهائجة. قفزت من صخرة إلى صخرة، باحثاً عن خطر يعترضني. ألقيت السيف عالياً في الهواء، فطار وسقط بعيداً في الماء دون إحداث أي صوت.

جلست فوق الحجر وأحسست أن العالم قد توقف أخيراً بعد أن ظل يتحرك من حولي طوال الوقت. تنفست. ثم تذكرت كل شيء عن كاميليا منذ رأيتها أول مرة، عندما كنا في مدرستنا القديمة. هاجمتني ذكريات وشعرت بمشاعر متضاربة، وبدأت أبكي. حاولت أن أتذكر الأشياء التي تجعلني سعيداً، أخذت أعدّها على أصابعي: نجاة أختي من الموت، دود القز، "الماكنتوش"، كنت كسلاناً وأصبحت مجتهداً، الامتحان الموحد، لقد انتهى الامتحان أخيراً وغداً ستبدأ العطلة. غداً سأخرج للعب كأنني إنسان جديد. لكنني شعرت بالحزن مع كل ذلك.

الصيف قادم وأنا حزين.

أخذت الدموع تنهمر بحرارة كأنها ظلت محبوسة لشهور طويلة. بكيت حتى شعرت بالراحة أخيراً. ثم نظرت إلى الخلف، إلى الجبال العالية الحادة وهي تخفي وراءها العمارات البيضاء. وعندئذ قررت العودة إلى البيت. فبدأت أمشي وأنا أنظر إلى صورتي منعكسة في البحيرات الصغيرة المليئة بالكائنات المائية. مشيت نحو المرتفع، وبدأت أصعد حتى عاد صوت السيارات ورأيت كل الإقامة. قطعت الطريق مفكراً أنه لم يحدث لي أي شيء خطير.

وجدت الأولاد يلعبون الكرة في ساحة الحومة. انضممت إليهم. رائحة الصيف تملأ الهواء، والعصافير تصرخ كأنها مجنونة، والنهار ما زال طويلاً. صاح الجميع: "زيكو، فين كنتي؟". ابتهجوا لرؤيتي، وبدأنا اللعب. ركلنا الكرة في كل الاتجاهات. جاء دوري لحراسة المرمى. تصديت لكل الضربات. كل ضربة كانت تخدّر ألمي وتتحول إلى فرح وتصفيقات.

عندما جاء دور وليد لأخذ مكاني. قال لهم اتركوه إنه حارس مرمى جيد. وأعطاني كاسكيطته لأضعها فوق رأسي، فأصبحت أبدو كحارس محترف، مثل الكابتن وليد في الرسوم المتحركة، واستمر اللعب بعد نزول الليل. هاجم الفريق الآخر بضراوة طوال المباراة، وفي كل مرة، كنت أنقض على الكرة

كطائر كاسر. واصلنا اللعب خلال الساعات الموالية، ولم أترك كرة واحدة تدخل تلك الليلة.

# 25

## السنوات

مرت خمس وعشرون سنة. توفّي الحسن الثاني بعد أن خرج كل المعتقلين السياسيين. توقف حمام الدم في الجزائر، وابتدأت مرحلة وئام مدني. اخترقت طائرة برجين هائلين في نيويورك، فهجم الأمريكان على العراق أخيراً، أسقطوا تمثال صدّام العملاق، وتراقص الشعب حول رأسه الأسمنتي قبل أن تتناقل قنوات العالم صور العراقيين يقتحمون متحفهم الوطني ويستحوذون على تراثهم البابلي. عثر الجنود الأمريكان على زعيم الأمة العربية في حفرة اختبأ فيها لشهور مثل الفيتناميين. كان شعره ولحيته كثيفين بما يليق بشيخ حكيم. وتابع الناس بحماس مسلسل مرافعته في المحكمة، ظلوا يرددون بالنشوة نفسها: صدّام رجل. في النهاية، تم تسريب لحظة إعدامه بهاتف ركيك الجودة.

جاء الربيع العربي، فتساقطت أنظمة كنا نظن أنها لن تموت. هرب من هرب، وقُتل من قُتل، وصمد من صمد. ربحنا في المغرب دستوراً جديداً، مثلما ربح الإسلاميون الانتخابات، فسمح لهم ذلك بقيادة الحكومة أخيراً. لم يطبقوا منع بيع الشراب للمسلمين، ولم ينجحوا في العودة إلى أيام النبوة. لكن الشعب ظل يهب هبة رجل واحد كلما خرج شخص بفستان إلى الشارع.

الكنز هو أن تغلق فمك. نسيت الدرس مراراً. الكنز هو أن تتحمل الضربات، أن تخطو مبتسماً في المجهول. ألا تعترف أبداً. ألا تترك العدو يعرف ما داخلك مهما حدث. ضيّعت ذلك الكنز مرات عدة، تسرب من بين أصابعي على نحو موجع ومهين ومثير للقرف، وفي كل مرة، كان علي أن أعود إلى الطريق نفسها حتى أنجح في استرجاعه.

بلغت الخامسة والثلاثين. افترق أبواي. تزوجت أختي وهي الآن تنتظر مولودتها الأولى. عدت إلى البيت الذي كبرت فيه، بعد أن صار يشبه سفينة

غريقة، حيث تتراكم الأغراض من كل الأزمنة. لم يعد التلفزيون يشتغل ولا الفيديو. وعندما أطل من النافذة على منزل وليد، لا أتوقع أبداً أن أراه. أما الساحة، فامتلأت بأطفال آخرين.

في التاكسي الذي أخذني إلى الإقامة، كان المذياع يبث حواراً. التفت نحوي السائق ممتعضاً: "يقولون إننا ننحدر من القردة، وليس من سيدنا آدم".

اكتفيت بإجابته مبتسماً: "هادوك الغرب مجانين، دعهم يقولون ما يريدون".

وقال أيضاً إن "داعش" غربيون، لأنهم ولدوا وكبروا هناك. فوافقته: "طبعاً، بكل تأكيد".

داروين، القردة، التطور. هذه الأشياء أصبحت مضحكة اليوم... خمس وعشرون سنة، هي المدة التي كانت تلزمني لأفهم أن معارك الكبار لم تختلف عن معاركنا الصغيرة قط، وأن الشوارع مليئة بأطفال لن يكبروا أبداً.

اختفت البراريك، وعوضاً عنها انبعثت بنايات جديدة ومقاهٍ يحج إليها كل سكان المدينة. شُيّد كورنيش على طول البحر، وزُرعت سلسلة لا متناهية من أشجار النخيل، وتوسعت الطريق الفاصلة بين البحر والإقامة حتى أصبحت تضم ستة ممرات. انتشرت فضاءات للتزحلق على الطريقة الأميركية، وملاعب كرة قدم وباسكيت. من الصعب اليوم القول إن هذا المكان كان مملكة لأحياء الصفيح.

فقدت الاتصال بكاميليا منذ عشر سنوات. قبل ذلك، كنا قد أصبحنا صديقين. صديقان عميقان كما كان يحلو لي أن أقول، في المرحلة الإعدادية، بعد أن طردوها من المدرسة العسكرية وتحولت إلى بنت متمردة. أحبت وليد أكثر من ذي قبل، لم تنجح القصة، وبقيت عالقاً بينهما، قبل أن تلقي بنا الحياة في اتجاهات مختلفة.

تقاطعت طريقنا مرات عدة، وعندما حصلت على الباكالوريا هاجرت لمتابعة دراستها في أوروبا. تبادلنا بضع رسائل وحافظنا على تقليد لقاء واحد كل سنة. كنت أتهيج في كل مرة وأحلم أن يتغير كل شيء، لكن الحياة كانت تخبئ دائماً أشياء أخرى.

ثم اختفت. لم تعد تجيب إيميلاتي، فتوقفت عن الكتابة لها أيضاً. ظللت أقارن كل أنثى ألتقيها بها. في البداية، كانت كفة الميزان تتأرجح على نحو موجع لمصلحتها. ثم ظهرت في حياتي بنات مدهشات، تفجرت كل واحدة في السماء مثل الألعاب النارية، منعشة خلايا القلب ومخلّفة وراءها رائحة البارود في الهواء، رائحة تشبه انتصاراً في حرب أو هزيمة ساحقة. مع الوقت تخليت عن المقارنة، ثم نسيتها بالكامل.

وقبل شهور رأيتها في الإقامة في لحظة خاطفة، راكبة في سيارة جنب أوروبي بدين. قلت لنفسي لقد تزوجت وأحضرت الزوج إلى أهلها. الآن جاء وقت مسحها من الذاكرة.

مرت سنة أخرى. سافرت إلى بيروت، التقيت وليد في المطار. وبعد أسبوعين من عودتي، التقيت كاميليا أخيراً. لم تكن تلك مصادفة. ظللت مستعداً لمثل هذا اللقاء طوال الوقت. لم أُفاجأ من رؤيتها وأنا أمر جنبها بالسيارة، كانت تمشي دافعة عربة أطفال، وغير بعيد عنها يمشي زوجها. لم أتوقف، ابتسمت لها وحييتها بيدي مواصلاً طريقي. لكنها دُهشت عندما رأتني، وكان فرحها أكبر من أن أواصل السياقة.

أوقفت السيارة ونزلت. عانقتني مبتهجة. لم يكن زوجها بديناً بل قوي البنية. نظرت إليه وأنا محرج من عناقها. صافحته وأنا أقول لنفسي إن كان لا بد من زواج، فليكن بأوروبي. اقتربت لتحية بنتها ذات السنوات الثلاث، مزاجها المتعكر لا يشجع على المقامرة بقبلة.

– لا أعرف لماذا يحجب عني الإيميل رسائلك، تلقيتها متأخرة جداً.

لم أدرِ هل ذلك اعتذار أو حجة، أم سوء استعمال للتكنولوجيا، أم مشكلة تقنية حقيقية. سألتها كم من الوقت ستقضي.

– أنا باقية لأسبوع.

ظل زوجها صامتاً ينظر إلينا مبتسماً دون أن يفهم أي كلمة.

قالت إنها بحثت عني عندما جاءت قبل أيام، رأت شاباً يشبهني في مدخل الحومة ثم أضافت: ”لكنني قلت مع نفسي إنك ستأتي لتحيتي لو أنه أنت“. عرفت الشاب الذي يقف باستمرار أمام حومتها، كان يشبهني إلى حدّ ما،

لكنني تحولت إلى شخص آخر بعد كل تلك السنين. وجدت نفسي أقول لها مبتسماً: "أعرف، لم أعد أشبه نفسي".

عندئذ ابتسمت وعانقتني من جديد. هذه المرة لم تتركني، ظلت تحكم قبضتها علي كأنها تحاول إمساك كل تلك السنوات كي لا تفلت منها. كبر كل الأولاد الذين حلموا بها وهم يتفرجون على التلفزيون صباح يوم الأحد. رحلوا في اتجاهات مختلفة بعد أن تلاشت من ذاكرتهم ولم يبقَ غيري يتذكر تلك الأيام المجيدة، لم يبقَ غيري ليتذكر طفولتها والسنوات التي ستأتي بعدها. وشعر زوجها بحرجي فابتسم لي أيضاً. كانت سعيدة بلقائي على نحو لم أتوقعه. فأحسست أنها لا تعانقني، بل زيكو الصغير، وأنني أقدم خدمة متأخرة إلى ذلك الطفل المكسور داخلي، لا بد أنه كان سيكون سعيداً بمثل هذه اللحظة.

سألتني هل لدي رقم جديد. كنت أجرب الحياة بلا هاتف. ضربنا موعداً في آخر يوم قبل سفرها، في مقهى بالإقامة. وفكرت أن علي أن أقول لزوجها كلمة واحدة على الأقل، فخرجت من فمي: "موتشو غوستو". ضحك كلاهما بهستيرية حتى ظننت أنني استعملت الكلمة الخطأ. وترجمتها حرفياً في رأسي وخمنت أنها تعني "ذوق كثير" وليس "تشرفت بمعرفتك".

كتبت لها إيميلاً ليلة قبل الموعد لتأكيده فلم تجبني. وفي اليوم التالي، حدثت تعقيدات قبل أن ننجح في التواصل.

انتظرتها مبكراً في المقهى. جاءت كأنها قادمة من زمن آخر: كنزة حمراء وسالوبيت جينس أزرق. نظارات صحية وشعر شلالي. جاءت برائحتها التي أعرف، مهما كان العطر الذي تضعه.

جلسنا في مواجهة البحر، وبدأت تتحدث عن تعقيدات حياتها المالية، وضغوط عمل زوجها وتبعات الأزمة الاقتصادية في إسبانيا. تحدثت عن طلاق أبويها بعد كل تلك السنين، بينما كنت أقول لنفسي إنها لم تعد الفتاة الحالمة التي عرفت. كنت أسمعها تتحدث لأول مرة عن تفاصيل الحياة العادية والمشكلات التي تهجم على الزوجين الشابين يوماً بعد يوم. وفكرت أنها مشكلات كثيرة فعلاً تحتاج خمس سنوات كي يتغلبا عليها كلها. خمس سنوات

مدة معقولة من عمر أي حياة زوجية. ثم فكرت أنني بلا مشكلات تقريباً. اختفت الخفافيش والحيوانات الكاسرة من حياتي.

مررت أصابعها داخل خصلات شعرها. تلك الحركة سحرتني دوماً في مراهقتي، تبدو لي الآن كلعبة طفلة بريئة تحاول نيل إعجاب أبيها. وفكرت أنها ما زالت تزداد جمالاً، وأن بشرتها ستصمد أمام الزمن، وأننا أصبحنا متشابهين.

شربنا القهوة. رافقتها إلى بيت أمها، المشوار نفسه الذي رافق حبي لها في مراهقتي. ودهمني مشهد العيش معاً في المستقبل البعيد. كان لدينا تراث نفسي مشترك، ولم نتعارك قط. كنا في ذلك المشهد عجوزين متشابهين، جالسين بطمأنينة في فيراندا تلطخنا شمس الزوال، وقلت لنفسي سيحتاج ذلك ثلاثين سنة أخرى.

عانقتها مودعاً. ورجعت خفيفاً طليقاً. لم أكن أشعر بشيء على الإطلاق، واندهشت أين يذهب كل ذلك الحب!

# برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام 2014، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (2014) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (2015) والثالثة (1620).

اليوم، وبعد انتهاء البرنامج، يمكن القول إنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

# حول الكتاب

## نبذة

في صالة المطار يلتقي زكريا برفيق عمره وليد، الأول وجهته بيروت والثاني وجهته كندا.

مصادفة تحمل إلى رأس زكريا خمساً وعشرين سنة من الحياة في المغرب. عائلته الصغيرة، اليساريّة التوجّه. ملاعب الطفولة. المدرسة. اللحظات الأولى لتلمّس العالم واكتشافه. الأسئلة حول ماهية الوجود، والرابط الذي يجمع السياسة بكلّ ذلك. الأحلام التي لا تتوقف...

وتبقى كاميليا، رفيقة الدراسة، الحلم الأجمل الذي تنافس طويلاً مع رفيقه وليد للفوز به... قبل أن يصطدم كلّ ذلك بالواقع حين تعلن مرحلة الطفولة نهايتها وتسلّم من كانوا أطفالاً إلى عمر الشباب في زمن عربيّ متحوّل.

## عن المؤلف

نزيه بحراوي كاتب مغربي مهتم بالسينما والفنّ المعاصر.